سلسلة أعلام وأقلام

١٠

سلام من جزيرة منسية

ذكريات وسيرة ذاتية

تأليف

محمد خير رمضان يوسف

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين

دار البشير الإسلامية

سلام من جزيرة منسية

ذكريات وسيرة ذاتية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأيِّ شكلٍ من الأشكال، أو نسخه، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكِّن من استرجاع الكتاب أو أي جزءٍ منه، دون الحصول على إذن خطي مسبقاً.

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٩٦١١/٧٠٢٨٥٧.. فاكس: ٩٦١١/٧٠٤٩٦٣..
email: info@dar-albashaer.com
website: www. dar-albashaer.com

ISBN 978-614-437-143-5
9 786144 371435

سلسلة أعلام وأقلام
(١٠)

سلام من جزيرة منسية

ذكريات وسيرة ذاتية

تأليف
محمد خير رمضان يوسف

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين
دار البشائر الإسلامية

المقدمة

الجزيرة المنسيَّةُ هي الجزيرةُ الفراتية، والمقصودُ بها هنا الجزءُ الواقعُ في الشمالِ الشرقيِّ من سورية، وفيها بلدتي «القحطانية» التي نشأتُ بها، وتبعدُ عن تركيا (١٥ كم)، وعن العراق (٩٠ كم)، وعن دمشق (نحو ٨٠٠ كم).

ويدَّعي صاحبُ هذه الذكرياتِ أنه كان قويَّ الذاكرة، لا ينسى ما يقرأ وما يسمع، ثم صارَ ينسى كثيرًا وهو في حدودِ الأربعين! ويحلو له أن يرجعَ ذلك إلى أسبابٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ قاهرة!

إذًا فكيف جاءتْ هذه الذكريات؟

لقد جاءتْ عفويةً وبإلحاح، في قصةٍ كتبتُها ثم حذفتُها من هذه المقدمة، قد لا يهمُّ القارئَ ذكرُها. جاءتْ غيرَ مستأذنة، تدقُّ بابَ الذاكرةِ بقوَّة، وتطلبُ من الخاطرِ العاطرِ في عزيمةٍ وإصرارٍ أن يتابعها، حتَّى صارَ كلُّ شيءٍ في نفسي يؤذنُ بالكتابة.

ولم يدُرْ في خاطري قطُّ أنني سأدوِّنُ شيئًا منها، للسببِ الذي ذكرته، ولأنها في نظري لا تستحقُّ الذكرَ من بين ما يمكنُ إيرادهُ

للقارئ، فإنَّ الاهتمامَ الحقيقيَّ للمرءِ قد لا يظهرُ من خلالِ كثيرٍ من هذه الذكريات، لأنه لا يقدرُ أن يجهرَ بالحقّ، ولا يُسمحُ له أن يبيِّنَ الواقع، ولو كان هو المعمولَ به أمامَ أعينِ الجميع! فما فائدةُ ما يمكنُ قوله، ولا يمكنُ قولُ ما فيه فائدةٌ وعبرة، وهو التاريخُ الحقيقيُّ بعينه؟!

لقد تناولتُ القلمَ وأنا لا أصدِّق بأنني سأدوِّن منها الكثير، لكنني أنهيتُ مسوَّدةَ ما ترى في أقلَّ من أسبوعٍ بفضلِ الله وتوفيقهِ وأنا أتعبَّدُ في المسجدِ الحرام، في الأولِ من شهرِ شعبانَ سنةَ ١٤٢٧هـ، وإن كنتُ أعلمُ أني نسيتُ منها الكثير.

وقد راجعتها ونقَّحتها كرّات، وأعطيتها لبعضِ إخواني وأصدقائي قبل نشرها لأتلقّى منهم الملاحظات، فلم أرَ من بعضهم تشجيعًا على طبعها، فأعدتُ الكرَّةَ في تنقيحها، وكدتُ أن أجهزَ على ما بقيَ فيها من روح، لكني رحمتُها وأشفقتُ عليها هذه المرَّة، فقصصتُ بعضَ أجنحتها، ونتفتُ شيئًا من ريشها، لتبقى حيَّةً قادرةً على الحياة، ويبقى عليها اسمُها.

على أنني أثلجتُ صدورَ بعضِ المظلومينَ والمنكوبينَ بكلماتٍ ووقائع... ثم حذفتُ بعضها أو «هذَّبتُها»؛ رجاءَ نشرها.

ولا أريدُ أن أوجزَ لكَ ما قلتهُ فيها أيها القارئُ الكريم، فإذا لم تستفدْ منها، فادعُ الله أن يحسِّنَ حالنا حتَّى نقدرَ أن نقولَ لك ما نريدُ وما تريد.

فهذا مقتطفاتٌ من ذكريات، ومحطّاتٌ بارزةٌ فيها ووقفات،

قد لا يجدُ القارئُ البعيدُ عن جوِّها شيئًا مهمًّا، أو جديدًا، ولكنها لغيرهم من أهلِ المنطقةِ فيها ما يفيدُ ويستأثرُ بالاهتمام، وسيتنسَّمُ منها القارئُ البعيدُ ـ على الأقل ـ رياحًا من جزيرةٍ منسيَّةٍ لا يعرفها، أو لا عهدَ له بها وبأهلها.

وكلها حوادثُ شخصيةٌ تناسبُ «ذكرياتٍ» و«سيرةً ذاتية»، تخصُّ شابًّا محبًّا للعلم، من طبقةٍ متوسِّطة، أو متأرجحةٍ بين اليسارِ والفقر، لا عهدَ له ولأسرته بمراكزَ علميَّةٍ بين العلماء، ولا بوجاهةٍ أو غنىً في المجتمع، ولا بمناصبَ في الحكومة، فلا يطمعنَّ القارئُ فيما يبهرهُ فيها.

وليس القصدُ منها وصفَ مجتمعٍ أو تأريخَ مدَّة، فإنَّ مثلَ هذا لا يُطمعُ به الآن، وإن جاءَ بعضٌ من ذلك عرَضًا بما يناسبُ المقام.

وتأريخُ هذه الذكرياتِ محصورٌ بين الأعوام (١٣٧٥ ـ ١٤٠١هـ)، فهي عن عهدِ الصِّبا والشباب.

كانت تلك خفقاتٍ تسبقُ رياحَ الجزيرة، دفعتْكَ إلى جسرِ الذكريات، لتعبُرَ منه إليها، وهي قصيرةٌ لا تأخذُ من وقتِكَ الكثير. أمَّا إذا أردتَ معلوماتٍ علميةً سريعةً عن صاحبِ هذه السيرة، فعليك بآخرِ الكتاب، ففيه بغيتك.

«أعوذُ بكَ اللهمَّ أن أَظْلِمَ أو أُظْلَم، أو أعتديَ أو يُعتدَى عليّ، أو أكتسبَ خطيئةً مُحبطةً أو ذنبًا لا تَغفره».

«وإني أعهَدُ إليكَ في هذه الحياةِ الدنيا وأُشهِدُكَ ـ وكفى بكَ شهيدًا ـ أني أشهدُ ألّا إلهَ إلَّا أنتَ وحدكَ لا شريكَ لك، لكَ المُلكُ

ولكَ الحمد، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قدير، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُكَ ورسولُك، وأشهدُ أن وعدَكَ حقّ، ولقاءَكَ حقّ، والجنةَ حقّ، والنارَ حقّ، والساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنكَ تبعثُ مَنْ في القبور».
(حديث شريف)

محمد خير رمضان يوسف
ربيع الأول ١٤٣٢هـ[١]

---

(١) ملاحظة: دفعتُ هذه الذكرياتِ للطبعِ والثورةُ الشعبيَّةُ في بلدي الحبيبِ في أوجها، ولم أغيِّرْ شيئًا منها، لتكونَ شاهدةً على عصرٍ مظلم. ولله العزَّة ولرسولهِ وللمؤمنين (٢٢/ ٢/ ١٤٣٣هـ).

توطئة

أيها الشيخُ الواجمُ الحزين.

ما لي أراكَ ساكتًا منزويًا وقد أخذَ منكَ الهمُّ كلَّ مأخذ؟!

هلَّا أبحتَ بآهاتكَ، وفتحتَ أسرارَ قلبك، وأرسلتَ سلامًا من جزيرتك، لنرى من أنتَ، وما الذي جرى لكَ، وأينَ رسَتْ بكَ سفينتُك؟

حسنًا... لقد علمتُ أنكَ لا تحبُّ الكلام، فإذا تكلمتَ كان قصيرًا، ولا تحبُّ الاستماع، فإذا زادَ مللتَ وضجرتَ وشردت.

فلأطرقْ عليكَ بابَ مكتبكَ، ولْتبقَ ساكتًا تنظرُ إليَّ، وأنا أسردُ عليكَ ذكرياتك، وأقصُّ عليكَ بعضَ أخبارك، وأعرِّفُكَ إخوانَك، فلعلكَ بهذا تفرِّجُ همَّك، وتُجلِي حزنك، وتؤدِّي حقًّا عليكَ، وتُبرئُ ذمَّةً لك! وأنا رهنُ إشارتك!

أنا صوتُكَ المسموع، وقلمُكَ الذي يَكتب، وظلُّكَ الذي يتحرَّكُ بإرادتك. أنا نفسُك. أعني أنني أنت! وما عليكَ إن قيلَ إنكَ تكلمُ نفسَك، أو إنَّ نفسَكَ تكلمك؟! لا تأبهْ بذلك ولا تحزن!

إنكَ إذا أمرتَ بالكلامِ تكلمتُ، وإذا أشرتَ بالسكوتِ سكتُّ، ولا أفصحُ إلَّا بما تريد، فكنْ كما تريد، لأكونَ كما تريد، وأوعِزْ إلي بالكلامِ إذا أحببتَ أن أبدأ، وسلامٌ عليكَ يومَ تكلمت!

❊ ❊ ❊

البداية (الأصل والأسرة)

لا يُعرفُ تاريخُ مولدِكَ الحقيقيّ، لكنْ من خلالِ معرفةِ تواريخِ المواليدِ التالية، وبعدَ مراجعةِ الوالدةِ وحساباتها الموافقة، عرفتَ أنَّ مولدكَ كانَ في شهرِ ربيعٍ الأول من سنةِ ١٣٧٥هـ، الموافقِ لأحدِ التشرينينِ من سنة ١٩٥٥م.

ومولدُكَ في قريةٍ تسمّى «كِرِي بْرِي» وتعني «تلَّ الجسر» التي تقعُ في جنوبِ شرقِ ناحيةِ تِرْبَ سْبِي (القحطانية)، وتبعد عنها (٥ كم). والقحطانيةُ تابعةٌ لمنطقةِ القامشلي، التي تبعدُ عنها (٣٠ كم)، والقامشلي تابعةٌ لمحافظةِ الحسكة، وتبعدُ عنها نحو (٨٠ كم)، وهذه المحافظةُ تسمى شعبيًّا «محافظة الجزيرة»، لأنها من المناطقِ الواقعةِ بين نهرَي دِجْلةَ والفُرات، وهي كبيرةُ المساحة، زراعيةٌ، وفيها أكبرُ حقولِ النفطِ بالقطر، ومعظمُ سكانها أكرادٌ، مع أصنافٍ شتَّى من قبائلَ عربيَّةٍ أصيلةٍ ونازحةٍ، وطوائفَ من النصارى معظمهم أرثوذكس، وأرمن، وآشوريين، ويزيديين، وقليلٍ من اليهودِ، لعله لم يبق لهم أثرٌ هناك.

وقد فُتحت مع بلادِ الجزيرةِ بقيادةِ الصحابيّ الجليلِ «عِياض بن غَنْم» في عهدِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه سنة ١٧ أو ١٩هـ، وكانت البلدةُ التي نشأتَ بها (القحطانية) والمناطقُ

المجاورةُ لها في مدَّةٍ ما حدًّا بين المسلمينَ والروم (الحدودُ التركيَّةُ الآن)، وثغرًا من ثغورِ الإسلامِ ومواقعَ تدريبِ المجاهدينَ للإغارةِ والحربِ ضدَّ الكفار.

وكان ذلكَ الصحابيُّ الفاتحُ من المهاجرينَ الأولين، وكان سمحًا جوادًا شجاعًا، ثم كانَ أميرًا على الشام، وماتَ سنة ٢٠هـ. جزاهُ الله عنا خيرَ الجزاء.

يقولُ الجغرافيُّ الرحّالةُ محمد بن حَوقل (المتوفى سنة ٣٦٧هـ) في كتابه «صورة الأرض» ص١٩٠، في هذه الجزيرة: «إقليمٌ جليلٌ بنفسه، شريفٌ بسكانهِ وأهله... كانتْ مَعدِنَ الأبطال، وعنصرَ الرجال، وينبوعَ الخيلِ والعُدَّة».

وقدْ قال الوالدُ مرّاتٍ: إنكم من «أكرادِ الرومِ القدماء».

وكنتم أولًا في قريةِ «باتي» التركية، التابعةِ لـ«مديادي» و«إيستلي»، ضمن عشيرةِ «دكشوري»، وتعني «صاحبَ السيفِ القوي» تضمُّ مسلمينَ ونصارى، وكانتِ الأسرةُ من النصارى الأرثوذكس، تتكلَّمُ السريانيَّةَ والكرديَّة، حيث إن القريةَ كرديَّة. ثمَّ جاءتِ الأسرةُ إلى قريةِ «خربة تْعَوْ» التابعةِ لـ«ماردين» نحو سنةِ ١٣٠٠هـ. ولم يكنْ بها أحدٌ من العشيرة، فاندمجتْ بعشيرةِ «كوسا» بالواوِ المفخَّمة، وصاروا يُعرفونَ بها. ولمَّا لم يكنْ لهذه العشيرةِ شيوخٌ (أغوات)، مالوا إلى عشيرةِ «أُوْمَري» الملاصقةِ في حدودِها بالعشيرةِ السابقة. وفي القريةِ المذكورةِ وُلِدَ الوالد. و«تْعَوْ» ثمرٌ لذيذٌ مثلُ الكرز. و«كوسا» كلمةٌ كرديَّةٌ تعني الكوسج، وهو الرجلُ الذي لا ينبتُ في لحيتهِ شعر.

ولم يكنْ تكرارُ الوالدِ القولَ بأنكم من (أكرادِ الرومِ القدماءِ) باعثًا على التفكيرِ آنذاكَ في غيرِ ظاهره، فكنتَ تظنُّ أنهم جيلٌ من الأكرادِ الموغلينَ في القدم، حتَّى ناقشتَهُ في ذلك وأنتَ تكتبُ هذه الذكريات، فحدَّدَ موطنكم الأصليَّ بـ«رومانيا»، وأنه أثناءَ انتشارِ الامبراطوريَّةِ الرومانيةِ بقيَ أجدادكم في أرضِ تركيا (الآن) بعد أن هُزِمَ الرومُ أمامَ جحافلِ الإسلامِ الفاتحين، واستوطنتم أرضَ الأكرادِ هناك، فذكرتَ للوالدِ أنه لا يُعرفُ للأكرادِ موطنٌ في رومانيا، وأن الرومَ قومٌ والكردَ قوم، فتبيَّنَ أنه يقصدُ بالروميَّةِ القوميَّة، وبالكرديَّةِ السكنَ والخلطةَ والعشرة! فلم تلمَّ بهذا التفصيلِ عن أصلِكَ إلَّا وأنتَ تكتبُ هذه الذكريات! وهو أمرٌ يدعو إلى العجبِ حقًّا!! وكان الوالدُ يسردُ لكَ أخبارًا في ذلك فلم تكنْ تهتمُّ بها ولا تتعمَّقْ فيها، لكنه كان يقولُ إنهم أكراد، فتكتفي بمعرفتِكَ أنكَ كردي، وأن المهمَّ هو الاستقامة، وأن الأصلَ والقبيلةَ لا يأخذانِكَ إلى الجنَّةِ إذا خانَكَ عملك... ثمَّ تبيَّنَ أنَّكَ لستَ من الأكرادِ حقيقةً، بل قريبٌ ومخالِطٌ لهم حتَّى ظننتَ أنكَ منهم، ويحدثُ هذا نتيجةَ اختلاطِ الأنسابِ والأقوامِ بامتدادِ الأزمان، كما يقولُ المصريُّ إنه عربي، وهلمَّ جرًّا. والإسلامُ لا يقولُ لكَ كنْ عربيًّا، ولكنْ يقول: كنْ صالحًا تقيًّا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

وقد ذكرَ الوالدُ أن الأماكنَ والأقوامَ الذين خالطوهم بعد أن أسلموا لم يكنْ فيهم رومٌ ولا دكشوريون. فبقيَ الأصلُ معروفًا، لكن العشرةَ الطويلةَ مع الأكراد، والتكلمَ بلغتهم، جعلَ الأسرةَ كأنها منهم.

تركِّزُ على هذا للحديثِ الصحيحِ الذي رواهُ الإمامُ البخاري: «**ليس مِنْ رجلٍ ادَّعى لغيرِ أبيهِ وهو يَعلمهُ إلَّا كفرَ بالله، ومن ادَّعى قومًا ليس له فيهم نسبٌ فليتبَوَّأْ مقعدَهُ من النار**».

والمقصودُ بالكفرِ هنا كفرُ النعمة، تغليظًا وزجرًا لفاعله.

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ في شرحهِ على صحيحِ البخاري: «في الحديثِ تحريمُ الانتفاءِ من النسبِ المعروفِ والادِّعاءِ إلى غيره، وقُيِّدَ في الحديثِ بالعلم، ولا بدَّ منه في الحالتينِ إثباتًا ونفيًا؛ لأن الإثمَ إنما يترتَّبُ على العالمِ بالشيءِ المتعمِّدِ له». أي أن المرءَ يأثمُ إثمًا كبيرًا إذا تعمَّدَ الانتسابَ إلى قوميَّةٍ وهو ليس منها.

وورد في موضعٍ من شرحِ ابن ماجه: «. . . فإنَّ من علمَ أنه منهم بسببِ الجهالَةِ وفي الواقعِ ليس منهم، فليس داخلًا في هذا الوعيد».

وقد ذكرَ لكَ الوالدُ مرَّةً أنَّ سببَ انتمائهِ إلى الكردِ هو لئلا يُقالَ إنهم بدونِ أصل! والحقُّ أن الأصلَ موجود، ولكنه لم يكن معروفًا في المجتمعِ الكرديّ. وما كان الوالدُ يعرفُ حرمةَ هذا، ولمَّا أوردتَ له النصَّ لم يقلْ بعدها إنه كرديّ.

فندعو الله تعالى أن يغفرَ لنا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

فأنتَ الروميُّ أصلًا، الدكشوريُّ قبيلة.

ولمَّا طُرِحَ اسمُ «صهيب» لتسميةِ ابنٍ لك، انتصرَ له والدُكَ لأجلِ صحبتهِ ونسبهِ الرومي.

وكان الوالدُ يحثُّ على معرفةِ الأصل، ويذكرُ أنه هو الوحيدُ في العائلةِ الذي كان يسألُ أباهُ عن أصلهم، وأنه ذهبَ إلى بلدةِ «باتي» التي جاءتْ منها العائلة. . . ويقولُ في سببِ التحرِّي عن الأصل: إنه كانت عندهم أسرٌ لا يُفصحونَ عن أنسابهم، ثم تبيَّنَ أنهم غجر!

وقد جاءَ في كتاب «فرائد اللغة» لهنريكوس ص٤٧٥: «الرومُ نسبةً إلى روما العظمى، وأُطلقَ لفظُ الرومِ فيما بعدُ على مُستَحدَثي اليونانِ بعدَ نقلِ كرسيِّ المملكةِ من روما العظمى إلى القسطنطينية. وقد يُقالُ رومان، تفرقةً بين الرومِ البيزنطيةِ والرومِ القدماء». فأنتم من الرومِ القدماء. والذي بدا لكَ أن هذا ما كان يقصدهُ الوالد.

ويكونُ كلامُكَ في هذه الذكرياتِ من قولِكَ إنكَ «كرديٌّ» من بابِ التأريخِ لِما كان، لا الحقيقةِ التي ظهرتْ لكَ من بعد.

وجدُّكمْ «إسماعيل» كانَ نصرانيًّا، أسلمَ وهو فتىً يافعٌ عن رغبةٍ منه، دونَ إكراهٍ من أحد. هذا ما ذكرَهُ الوالد. وكان الوقتُ في تلكَ الأيامِ عصيبًا، والرومُ والأرمنُ في صفٍّ ضدَّ تركيا مع أحلافٍ خارجية، ولذلك شدَّدتْ عليهم الدولةُ آنذاك، وقتلتْ منهم عددًا كبيرًا.

ولم ترَ الجدّ؛ وكانَ أشقر، أزرقَ العينين، طيِّبَ الأخلاق، فقيرًا، هيِّنًا ليِّنًا، حاولَ أكثرَ من مرَّةٍ أن يقطعَ الحدودَ التركيةَ ليرى أحفادَهُ في سورية فلم يقدر، كذا تذكرهُ من غير روايةِ الوالد، لكنه ذكرَ أنه طلبَ المجيءَ فلم يقدر، وكان ضعيفًا، مريضًا، لا يعرفُ الطرق، ولا أحدَ يصحبه، وماتَ ولم تروه، نحو عام ١٣٨٤هـ، وهو في حدود

السبعينَ من عمرهِ أو أكثر. وأنتَ تدعو له كلَّ يوم، وتتصدَّقُ عنه بما تقدرُ عليه، وتطلبُ من ذرِّيَّتكَ أن يفعلوا ذلك إلى يومِ القيامة.

وقد عُرفتِ الأسرةُ آنذاكَ باسمِ والدِ جدِّكَ النصرانيِّ «دَنْحي» الذي أسلمَ ولداهُ محمد أمين وإسماعيل، ثمَّ كانت شهرتكم هناكَ «إيْبَكْ» وهي كلمةٌ تركيَّةٌ تعني «الحريري». ومازالتِ الأسرةُ في تركيا منهمُ المسلمُ ومنهمُ النصرانيّ. وأكبرُ أعمامِكَ «يوسف» الذي بقي في تركيا، وبها مات (عام ١٤٠٦هـ)؛ وكان كوسجًا؛ عُرِفَ ببسالته، وما كانَ يعرفُ شيئًا اسمهُ الخوف. زاركم في البلدةِ عدَّةَ مرّات، رحمَهُ الله. واختارَ الوالدُ أن يكونَ هذا الاسمُ (يوسُف) شهرةً لكم، نسبةً إلى جدِّ والدتهِ سارة.

وانتقلَ الوالدُ معَ الوالدةِ إلى سوريةَ بعدَ الحربِ العالميةِ الثانيةِ بسنوات، لأسبابٍ أسريةٍ وعداواتٍ في القرية، وسكنَ أولًا في قريةِ «كري بري». وأخوالُكَ كلُّهم في تركيا، أثرياء، منهم أصحابُ بنوك.

المهمُّ أن تاريخَكُم في الإسلامِ يزيدُ عن القرنِ بقليل.

ولم تعرفْ عن والديكَ سوى الاستقامةِ والتمسُّكِ بآدابِ الدين، فكانتْ تربيتهما شعاعًا لكَ في الحياة.

وأختكَ ألمص (ألماس) هي الكبرى في الأسرة، تركتِ المدرسةَ (الابتدائية) لتساعدَ أمَّها. وهي ذاكرةُ الطفولةِ والبراءةِ معك. لم تسعد في حياتها الزوجية؛ وقد أصيبتْ بداء السكر، فعميت، وشُلَّتْ من رجليها، وأُصيبتْ بالفشلِ الكلوي، حتَّى توقَّفَ جميعُ أعضائها عن العمل، وماتتْ ليلةَ الخميس (١٥) شعبان ١٤٣٠هـ، الموافق

(٦) آب ٢٠٠٩م، . . . رحمها الله تعالى. وهي والدةُ الكاتبِ الصحفي (سلام مراد) الذي سكنَ دمشق، وكتبَ في صحفها.

ثم أنت.

فشقيقُكَ محمد زكي؛ لم يكملْ دراستَهُ الثانوية. وكان نعمَ العونُ للأسرةِ في شدَّتها، ولكَ خاصَّة. أمضى شبابَهُ في الغربةِ والعملِ الشاقّ. وهو قليلُ الكلام، لكنه صريحٌ جريء وصبور، يحبُّ التفكيرَ الحرّ، وهو ذو حسٍّ أدبيٍّ عميق، ومشاعرَ فيّاضة، يهتمُّ ويألمُ لأحوالِ المجتمعِ كثيرًا، ولكنه إذا نكَّتَ أضحكَ الثكلى. وقد جذبَ الأسرةَ كلَّها ـ مع الصديقِ الوفيِّ عبد الرحمن ـ إلى دمشق. وهو صاحبُ «دارِ عبادةَ لبيعِ وشراءِ الكتبِ والمجلاتِ القديمة» في دمشق، ويحتفظُ بكتبٍ كثيرةٍ عليها إهداءاتٌ بأقلامِ مؤلفيها وغيرهم، وربما بنوادرَ أخرى ثمينةٍ مميَّزة، وهو صاحبُ روايةِ «السفر الأخير: مأساةٌ واقعيَّةٌ لأسرةٍ كرديَّة» وله كتاباتٌ أخرى لا يُظهرها. وقد رأيتَهُ في زيارةٍ خاطفةٍ إلى الرياض، بعد فراقِ (٢٥) عامًا!

ثم سارة؛ كنتَ تقولُ إنها «الحكيمةُ» في الأسرة، ولم تكملْ دراستها الإعدادية. تزوَّجتْ صديقكَ عبد الرحمن أحمد الذي أشرتَ إليهِ أكثرَ من مرَّةٍ في ذكرياتك، وتُكنى أمَّ محمد خيرٍ.

فأمينة (أمُّ حسّان)؛ كانتِ الأذكى في الأسرة. . . ولم تكملْ دراستها الجامعية، وهي زوجةُ أستاذِ التفسيرِ بجامعةِ دمشقَ عبد العزيز حاجي.

ثم محمد نور، الحاصل على الدكتوراه في اللغة العربيَّة من كلية

الآداب بجامعة دمشق، عن بحث بعنوان «الظواهر النحوية والصرفية في شعر أبي تمام». كان بارًّا بوالديه، ونعمَ الخُلق. طُبعتْ رسالتهُ في الماجستير بعنوان «شرح أبيات المفصَّل» لفخر الدِّين الخوارزمي (تحقيق) في مجلدين ضخمين سنة ١٤٢٠هـ، أصدرتهُ كلية الدعوة الإسلاميَّة بطرابلس الغرب، وكان المشرفُ عليها العلّامةُ اللغوي إبراهيم رفيدة. ودرَّسَ في جامعةٍ تركية.

ثمَّ «سِيْف دِيْن» (سيفُ الدين)؛ الثائرُ الهادئ! اكتفى بالثانويةِ العلمية. وقد تجنَّسَ بالجنسيةِ الهولندية. رأيتَهُ في الحجِّ بعد فراقٍ طويل. وله كتاباتٌ شعريَّةٌ منشورة، وترجماتٌ عديدةٌ من الهولندية، ثم كان مراسلًا لموقعِ الألوكةِ بالرياض، يمدُّها بأحوالِ المسلمينَ هناك. وقد أرسلَ ولديه (جودي وعبد الله) إلى معاهدَ شرعيةٍ بدمشقَ ليتعلَّما الدِّين، ولغةَ كتابِ الله الكريم، ولكنهما رجعا بسرعة.

وآخرُ عنقودِ أسرةِ الخيرِ «إدريس» الحنون؛ صاحبُ عاطفةٍ جيَّاشة، وعشرةٍ طيِّبةٍ، وكلامٍ حلو، وقلمٍ سيّال، مع أنه لم يُكملْ دراستَهُ الجامعية. وله كتاباتٌ جيِّدةٌ لا يهتمُّ بتنظيمها، وأهدى كتابًا لشخصٍ فنشرَهُ باسمهِ دون الإشارةِ إليه، وهو في قصصِ المهتدينَ الجدد، وله مجموعةٌ قصصيَّةٌ مخطوطة. وقد جذبَه الطبُّ النبويُّ وأخذَ بلبِّه فصارَ همَّهُ وعملَه، وخاصةً الحجامة، التي برعَ فيها، وشفَى الله على يديه ناسًا عجزَ الطبُّ الحديثُ عن معالجتهم، وألَّفَ كتابًا في الحجامةِ بعنوان: «الحجامة: فوائد علمية وتجارب عملية» ونشر عام ١٤٣٢هـ بدمشق. وقد عملَ في عُنيزةَ والرياضِ سنوات، ثم في بنغازي.

وماتَ اثنان من الأطفال: محمد صالح، ومحمد أمين، قبراهما في «كري بري».

ولكَ أختٌ من الأمّ، الحاجَّةُ «عزيزة»؛ على طبعِ الوالدةِ وحنانها. عاشتْ في بيروت.

وأخوها «مطلق» في تركيا، لم يرَهُ أحدٌ من الأسرة.

وقد توفِّيتِ الوالدةُ يوم (٢٨) رمضان ١٤٢٠هـ، عليها رحمةُ الله، وجزاها عنا خيرَ الجزاء. وتوفي الوالدُ بعدها بثماني سنوات. ويأتي الحديثُ عنهما.

وتوفِّيَ العمُّ أحمد (جدُّ الأولادِ لأمهم) في ٧ جمادى الأولى سنةَ ١٤١١هـ. وكان حنونًا، طيِّبًا، فقيرًا، ضعيفَ البنية، محافظًا على صلواتهِ في الجماعة، لم يشكُ منه أحد. وكان يحبُّكَ ربَّما أكثرَ من أولاده! رحمَهُ الله رحمةً واسعة.

* * *

القرية وأحوالها

وعودةً إلى قريتكَ «كرِي برِي» التي ولدتَ بها، وكانت تسمَّى في الحكومةِ «القنيطرة» حيثُ لا تعترفُ بالأسماءِ الكرديَّة؛ عشتَ فيها نحوَ (٥) سنوات، كان كبراؤها (آل حاجو) الذين ملكوا (٢٠) قرية، وكانت عاصمتُهم ـ أو إحدى مراكزِهم القويَّةَ ـ القريةَ المذكورة.

ولمَّا أطلَّتِ الاشتراكيةُ على البلادِ ووصلتْ حِمَمُ الشيوعيةِ إلى تلكَ المناطق، كانت تلكَ القريةُ من أولى المناطقِ انتفاضةً، حيثُ اعتنقَ كثيرٌ من أهلها الأفكارَ الماركسيةَ اللينينية، وثاروا على ذلك البيتِ وأخرجوهم منها، فكانت تلكَ القريةُ مركزًا للإقطاع، ثم تحولتْ إلى مركزٍ للشيوعية، وانتشرتْ منها إلى أماكنَ أخرى، وقدَّرَ الله ألّا تكونَ واعيًا آنذاك، فلم تتلطخْ بأوهامها الماديةِ الجدلية، فقد خرجَ والدُكَ بالأسرةِ إلى «القحطانية» الناحيةِ المجاورةِ لها، وكان لسببِ خروجهِ منها قصةٌ طويلة، حيث قُتِلَ أحدُ أهالي القريةِ خطأ، فاتُّهِمَ عمُّكَ (أحمد) به، وتلتهُ أسبابٌ عائليةٌ أخرى.

ولا تذكرُ من حياتِكَ في القريةِ سوى كثرةِ الأرانبِ في بيتٍ مهجور، الذي أصبحَ من بعد مدرسة.

ثم مباغتةُ والدِكَ لصوصًا دخلوا بستانًا في نهارِ يومٍ قائظ، فطلبَ منكَ أن تبقى راكبًا، وذهبَ هو إلى اللصوصِ بخنجر، فاعتذروا، وانتهى الأمرُ بسلام.

وكانت لكم فرسٌ يقال لها «سَعدة»، مرضتْ وكادتْ أن تموت، وأُشيرَ على والدِكَ بأن يجرحَ وجهها بشفرةٍ من الجانبين، وتُقادَ في فناءِ الدارِ ذهابًا وإيابًا لتنشط. لكن ذلك لم يُفِدْ شيئًا؛ فماتت، فحزنتْ عليها الأسرة، وكان في إخراجها من الحوشِ صعوبةٌ ومشقَّة، ثم سحبها إلى البيادرِ لتنهشها الكلاب. . . .

واحترقتْ مساحاتٌ كبيرةٌ من الحنطةِ في قريةٍ قريبة (لعلها عتبة)، فتدافعَ الناسُ من القرى ليحصِّلوا منها بعضَ ما ينفعهم، فصحبتَ والدكَ على دابَّة إلى هناك، ولعلَّ رحلتكم إليها لم تذهبْ هباء، وربما عُرِفتْ تلكَ السَّنةُ بسنةِ الحنطةِ المحروقة.

وكان الأهالي يحتفظون بقُوتهم من القمحِ وربما الشعير في حُفَرٍ بالبيادر، ويحيطون الحفرةَ بالتبن، ثم يملؤونها بالحنطة، حتَّى لا تفسدَ ولا تتعفَّن. وفي أعلاها القشّ، وعليه طبقةٌ سميكةٌ من الوحل، فإذا لزمهم منه شيءٌ فتحوا جانبًا منها، ثم ردُّوهُ كما كان.

أمَّا ما يكونُ من القوتِ تحت اليد، ويستعملُ كثيرًا، كالعدسِ وغيره، فإنَّهم يحفظونهُ في «خِزاناتٍ» من طين، هي أقربُ إلى صوامعِ الحبوبِ المصغَّرة، وتسمَّى عندهم «كُوَار». تُصنعُ من طينٍ أحمرَ مخلوطٍ بتبنٍ كثير، ويكونُ طويلًا، ليسعَ مؤنةَ شهرٍ أو أكثر، أعلاهُ

مفتوح، وبأسفلهِ فتحةٌ صغيرة، يُفتحُ ويُغلق عند الحاجة، ولعلها لم تكنْ في كلِّ البيوت.

وكانت قريةً ذاتَ خيرات، أرضُها خصبةٌ جدًّا، وفي مناطقَ منها كانتْ نبتةُ العدسِ تعادلُ طولَ نبتةِ الشعير، مع أنواعٍ نباتيةٍ كثيرةٍ تنبتُ بنفسها، يستفيدُ منه الأهالي لمطعوماتهم أو حيواناتهم، وخاصةً في فصلِ الربيع. أمَّا في الصيفِ فكانوا يزرعونَ البطِّيخَ بنوعيهِ الأصفرِ والأحمر، وأنواعًا أخرى من الخضروات، كالقثَّاءِ والعجُّور، وكلُّها تنبتُ بدونِ سقي، مع كبرِ حجمِها وطعمها الرائع.

وتذكرُ أن المحصولَ الصيفيَّ كان يزيدُ على حاجةِ معظمِ الأهالي، فكانوا يأخذونَ حبوبَ الثمار، ويرمونَ الباقي، إلَّا ما قطَّعوهُ ونشَّفوهُ وقتُّوهُ لموسمِ الشتاء، أو احتفظوا بكميةٍ من الحبحبِ بين التبن.

وقد تغيَّرَ هذا كلُّهُ من بعد، فنُزِعَ منها البركة، وصارَ أهلها يتمنَّونَ أن يستفيدوا من المحصولِ الأساسي، وهو الحنطة، ولو شكروا اللهَ وقابلوا نعمتَهُ بالعملِ الصالحِ لأدامَ عليهم نعمتَهُ وزاد، ولكنْ صارَ كثيرٌ منهم يصرفُ عائدَها في المنكراتِ والأعراسِ وما إليها، وما زالوا متمادينَ في ذلك، ولا يعتبرون.

وكان أكثرُ الطيورِ انتشارًا في القريةِ طائران، يسمَّى الأولُ بالكرديَّةِ «تي تي» ولعله طائرُ السَّلوى، وهو نفسهُ المسمَّى «السُّمانى». والآخر «جِعْلِي»، وهو أقربُ إلى شكلِ ذكرِ العصفور، مع حجمٍ أكبرَ وألوانٍ أوضح.

وتنتشرُ فيها العقاربُ بكثرة، حتَّى في بيوتِ السكن. كما ينتشرُ في أرضها نباتٌ شوكيٌّ يسمَّى «صِدْرانْك».

وهي على تلٍّ عالٍ كبير، لا يقدرُ المرءُ أن يصعدَ إلى أعلاهُ إلَّا بعدَ جهد، ولم ينقَّبْ عنها، فلعلَّ فيها آثارًا، وقد تعني التلالُ الأحقابَ من التاريخ.

ومن عجائبِ هذه القريةِ أن يُصبحَ أغنى شخصٍ فيها رئيسًا للحزبِ الشيوعيّ، وأن يُصبحَ الرئيسُ السابقُ للحزبِ إمامَ ومؤذِّنَ مسجدِ القريةِ الوحيد، ولم يُعلنْ عن تخلِّيهِ لأيٍّ من أفكارهِ السابقة!!!

* * *

تِرب سبي (القحطانية)

ولم تكن القحطانيةُ «ناحية» آنذاك، وكان اسمها المعروفُ بين الناسِ جميعًا «قبورُ البيض» كما هو مسجَّلٌ في هويتك، وبالكرديَّة «تِربي سْبِي» وتسهيلًا يُقال: تِرْبَ سْبِي. سُمِّيتْ بذلكَ لشواهدَ وعواميدَ بيضاءَ طويلةٍ لقبورٍ بارزةٍ كانت هناكَ، وحُذِفت من أولها «ال» التعريفِ تخفيفًا، ولا يُعرفُ أين هي تلكَ العواميدُ الآن.

وكان بها ثكنةٌ عسكريةٌ فرنسيةٌ (قِشْلة)كبيرةٌ واضحةُ المعالمِ آنذاك، كلُّها مبنيَّةٌ من الحجارةِ السودِ الضخمة، وقد هُدِمت، فصارتْ خربةً ومرتعًا للعبِ الشبابِ والأطفال، ثم بيعتْ لرجلٍ ثريٍّ فجعلها منطقةً تجارية.

وتذكرُ في السنواتِ الأولى من وصولِكَ إلى البلدةِ أنه كان بها جواميس، ذكرَ الوالدُ أنها كانت لآلِ حاجو. ثم لم يبقَ لها أثر!

وذكرَ الوالد أيضًا أنه كان بها خنازيرُ أيامَ الاحتلالِ الفرنسي، وأنها كانت تُربَّى للجنودِ الفرنسيينَ وأهاليهم، ورحلتْ برحيلهم.

وفي جنوبيِّها قريةُ «ليلان» الأثرية، التي تبعدُ عنها نحوَ (٧ كم) وهي معروفةٌ عالميًّا لآثارها النادرة، وقد زرتَها كثيرًا، فهي قريةُ زميلكَ المحبوبِ «عبد الرحمن محيي الدِّين أحمد».

ويُذكرُ أن «تربَ سبي» كانت قريةً صغيرة، وعندما حلَّ بها آل حاجو بعد الحربِ العالميةِ الأولى، عمَّروها وجعلوها عاصمةً لهم، حتَّى صارت بلدةً عامرة. وقد احتلَّها الفرنسيون عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م)، وكان مجيءُ آل حاجو إليها عام ١٣٤٤هـ.

وكانت البلدةُ جميلة، ذاتَ طبيعةٍ خلّابة، تفتَّحتْ عيناكَ على زهورها الساحرة، وافترشتَ أعشابها التي كانتْ تغطي أراضيها كلَّها، والتحفتَ سماءها الصافيةَ في الصيف، وراقبتَ نجومَها المتلألئةَ في المساء، وذقتَ بردَها القارسَ في الشتاءِ، وحرَّها القائظَ في الصيف.

وأجملُ مناطقها المحيطةِ بها «شايي كَرِّكِي» التي تقعُ خلفَ قريةِ «دريجيك» الصغيرة، هكذا يلفظُ «شايي» شعبيًّا، ربَّما تخفيفًا من «جيايي» يعني جبل. وكانت تعتبرُ متنزَّهَ البلدةِ، سفحٌ فيه صخورٌ عظيمة، ووادٍ فيه أصنافُ النباتِ والزهر، وأنواعُ الطيورِ المغرِّدةِ، وهواءٌ صافٍ نقي، يقدرُ المرءُ أن يُمضيَ يومَهُ هناكَ دونَ أن يجوع، لكثرةِ النباتات المأكولةِ فيها. واحتفلتم بالنوروزِ هناكَ سنوات، ثم صاروا يفضِّلونَ عليها «عين ديوار» مع ما يرافقها من منكراتٍ ومحرَّمات، كالخمر، والاختلاطِ المزري، وما إلى ذلك، نعوذُ بالله من غضبه.

وفي سنةِ وصولِكَ إلى البلدةِ (نحو ١٣٨٠هـ) أو بعدها بعام، كانتْ قدْ بُنِيَتْ «مدرسةُ خالد بنُ الوليدِ الريفية» الابتدائية، وكانت كبيرةً جميلةً.

وكان بها مخفرٌ واحد، ولمَّا صارتْ «ناحيةً» وأنت في الخامسِ

أو السادسِ الابتدائي، نحو عام ١٣٨٧هـ، كانَ أولَ مديرٍ لها ـ ظنًّا ـ «أبو جميل» ضابطٌ عسكريٌّ من دير الزّور، ويُذكرُ بالخير؛ كان يشاركُ في الاحتفالات المدرسيةِ ومناسباتها، ولعله كان يصلي الجمعةَ مع المصلِّين.

والذي تذكرهُ أن اسمها تحوَّلَ إلى «الكرامة»، وكأنهُ رُؤيتْ لوحةٌ مكتوبٌ عليها هذا الاسم، لكنهُ لم يدمْ، حيثُ عمَّ تعريبُ أسماءِ قرى ومدنٍ كثيرةٍ في هذه الجزيرة، من منطلقٍ قوميٍّ، وكان نصيبُ «قبور البيض» منها هو «القحطانية». وعندما سمِّيتْ بهذا الاسمِ لم يكنْ فيها أحدٌ من بني قحطان، ماعدا (٨) بيوتاتٍ من المحلَّميةِ، و(٥) بيوتٍ من القَرْطمينية، يُذكرُ إنهم عربٌ، وبيتٌ عربيٌّ جاءَ من الموصل ـ ولكنه التعصُّبُ القوميُّ البغيض، الذي يفرِّقُ بين المسلمينَ وهم إخوةٌ، وما ضرَّ البلادَ الإسلاميَّةَ التي فتحها المسلمونَ إبقاءُ أسماءِ مدنها وقراها على ما هيَ عليه، وكانتْ قوَّةً وسندًا لكلِّ بلادِ الإسلام. على أن هذه التغييراتِ والممارساتِ العنصريةَ تبعثُ في النفوسِ ما يقابلها من نوازعَ في القوميَّةِ المضطَهدة، ومن أمثالِ هذا ينشأُ الانشقاقُ والنزعاتُ الانفصاليةُ في البلاد.

ولم يكنْ تغييرُ الأسماءِ أمرًا فذًّا، بل هو أهونُ ما كان يُصَبُّ على أهلها من العذابِ: عذابِ الظلمِ الأعمى والعنصريةِ البغيضة، حتَّى انحرفَ سلوكُ كثيرٍ من أبناءِ الأكرادِ، للطرقِ والمسالكِ المعوجَّةِ التي أُجبروا على كثيرٍ منها، وصاروا يتلقَّفونَ أفكارًا غربيةً وشرقيةً لظنِّهم أنها ستُنقذهم مما هم فيه، فينحرفون، ويُتَّهمونَ بما به يُتَّهمون، وسياسةُ الدولةِ وحزبِ البعثِ هي السببُ في ذلك. . . .

ولم تُعْطَ صورةٌ واضحةٌ للأحوالِ الاجتماعيةِ والسياسيَّةِ هناك، فللحديثِ شجونٌ، ولم تُسَقْ هذه الخواطرُ لأجلِ ذلك.

وكانَ عددُ سكانِ بلدتكَ عندما دخلتَها بضعَ مئاتٍ، ولمَّا غادرتها كانت أكثرَ من (١٢٠٠٠) نسمة، ويقالُ إنها صارتْ من بعدُ أضعافًا مضاعفة، توافدَ إليها الناسُ من القرى، وتوسَّعتْ حتَّى اتَّصلتْ بقرىً مجاورة!

وكانتْ بيوتُها كلُّها من طين، ما عدا قصورِ آل حاجو الجميلةِ على سماطي الطريقِ العامِّ، وبيتكم في زاويةٍ قريبًا من البئرِ الارتوازيِّ الوحيدِ في البلدة، وهبكم إياها جاجان حاجو، والدُ «عزيز» الذي ماتَ بالقريةِ بمرضِ الاستسقاءِ مبكرًا. و«عزيز» هذا هو والدُ «أحمد» زميلكم في المدرسةِ حتَّى نهايةِ الاعدادية، ثم التحقَ بأخيهِ «زاغاروس» في أوروبا. وكان أنظفَ طالبٍ في الصف، مدلَّلًا، ولذلك ـ كما يُقال ـ كان وأواه. ولعلَّ الوالدةَ ذكرتْ أنهُ أخوكَ في الرضاعة.

ولكَ أخٌ آخرُ من الرضاعة، اسمهُ «يوسف»، نسيتَ اسمَ والدهِ ونسبته، لكنهم يُعرَفونَ باسمِ والدتهم (نعيمة) رحمها الله، وقد نشأ يتيمًا، وهم من القرية التي ولدتَ فيها، وكان شيوعيًّا، ثم تركَ الحزبَ والتزم، ذُكِرَ أنهُ بسببِ وفاةِ أخيهِ «عبده» الذي كانَ يصغَره، فتأثرَ بذلك وآب.

* * *

أحوال وفيضانات

وكان جيرانكم من الجنوبِ نصارى، ومن الشرقِ والغربِ أكراد، ومن الشمالِ محلَّميَّة.

وبدتْ بعضُ الشوارعِ نظيفة، لكنَّ معظمَ شوارعِ أحياءِ الأكرادِ كانت مهملة، والمزبلةُ في طرفِ المدينةِ قريبةٌ جدًّا من بيوتهم، وعندما كنتَ تعودُ من العاصمةِ وتذكرُ الاهتمامَ بشوارعها النظيفةِ وطرقها المستويةِ وتخطيطها الرائع، ثم ترى ما في ربعكم من إهمالٍ ووساخة، تتألمُ كثيرًا، وخاصَّةً أن ما في جزيرتكم الخضراءَ لا يصيبكم من عائدِ ثرواتها الغنيةِ إلَّا النَّزرُ اليسير.

وكان معظمُ أهلها فقراء، يعملونَ في الرعي والزراعة، وأعمالٍ يوميةٍ متنوِّعة.

هذا إضافة إلى مكوسٍ ومطلوباتٍ ماليةٍ كانت تُفرضُ على أهلها... فالحفرياتُ الصحيةُ ورصفُ الطرقِ وتسويتها، وحتى أجرةُ الزبّالينَ ـ على ما تذكر ـ وغيرُها من الخدماتِ البلديةِ كانت تعوَّضُ منهم، فإذا لم يدفعوا عرَّضوا معاملاتهم للإهمالِ والتأخير، وإذا مضى على ذلك سنةٌ أو أكثرُ تضافُ نسبةٌ مئوية إليها عن كلِّ سنة!

وقد تجمَّعَ عليكم مبلغ، ما كان بإمكانكم دفعهُ مع مصاريفِ بناءِ غرفتينِ جديدتين، لولا ما بعثَ الله لكم من رزق، حيث بلَّغكَ الوالدُ أنه عثرَ على نقودٍ فضِّيةٍ تحت صخرةٍ قربَ البستان، فذهبتَ إلى هناك، ونبشتَ ما تحت الصخرة، فإذا بها ليراتٌ عثمانيةٌ فضِّية، فأخذتها وبعتها في سوقِ التحفِ بدمشق بنحو ألفي ليرة سورية، قضى الله بها حوائجَ لكم.

ويمرُّ بوسطِ البلدةِ نهرٌ يسمّى «الجرّاح»، اختُلفَ في سببِ تسميتهِ بذلك، وكان يحلو للبعضِ أن يعلِّلَ ذلك بـ«جرحهِ» الناس، لعدمِ الاهتمامِ بهِ من قبلِ الدولة، لكنَّ أهلَ تلك المنطقة، أعني التي يمرُّ بها ذلك النهرُ، يُعرَفونَ باسمه، فيقالُ «أهلي جَرَّحي» أو «مِنْ جرَّحي»، للتمييزِ بينهم وبين شرقيِّهم وغربيِّهم، فمن القامشلي وما بعد تسمى المنطقةُ وأهلُها «غربيّ» وما بين القامشلي والقحطانيةِ تسمَّى « سِنْجَق»، وما بعدَ القحطانيةِ يسمَّى أهلها «آلِي»، يليهم «كوجَر» القريبونَ منَ المالكية «ديريك»، ولهجةُ سنجق وجرَّحي وآلِي متشابهة، ولهجة غربي وكوجَر تختلفان، كما تختلفانِ عنِ اللهجاتِ الثلاثِ السابقة. وأهلها يشكلونَ تركيبةَ الجزيرةِ من الأكرادِ في الجزيرة، و«جرَّح» في الوسط.

وقد تعرَّضتِ البلدةُ لفيضاناتٍ عديدة، معظمها بسببِ هذا النهر، مع ما يجتمعُ إليهِ من مياهِ الأوديةِ والآبارِ في فصلِ الشتاءِ، وكانَ منظرًا مهولًا عندما كنتم تذهبونَ إلى السوقِ ـ حيث يتَّسعُ النهر ـ وترونَ النهرَ في فيضانهِ كلَّ عامٍ تقريبًا.

لكن أكبرَ فيضانٍ تعرَّضتْ له البلدةُ كان سنةَ ١٣٨٢هـ عندما كنتَ في الصفِّ الأولِ في الكنيسةِ ـ على ما يأتي ـ حيثُ هطلَ مطرٌ غزير، وفاضَ النهرُ بما فيهِ وبما كانَ ينزلُ إليهِ من الهضابِ القريبة، فغطتِ المياهُ البلدةَ كلَّها تقريبًا، وكان الناسُ يرونَ بيوتًا تمشي معَ المياه، وأكنانًا وحيوانات، والبيوتُ كلها منَ طينٍ تقريبًا، والبلدةُ في شبهِ واد، وخاصةً وسطها، فلم يسلمْ منها سوى بيوتِ آلِ حاجو، ومضافتهم التي كانت في عليةِ البلدة، أمَّا البيوتُ التي كانتْ تلي البئرَ الارتوازيَّ فكانت أحسنَ حالًا، لكنها لم تسلمْ من الأذى، وكنتَ قد وصلتَ إلى البيتِ من المدرسة، ووضعتْ لكَ والدتُكَ الغداء، وقبلَ أن ترفعَ المائدةَ داهمتْ مياهُ الفيضانِ الدار، واجتمعَ ماءٌ كثيرٌ في الحوشِ، ودخلَ البيتَ من النافذةِ والباب.

وكان والدُكَ آنذاكَ في القريةِ التي ولدتَ بها «كري بري» حيثُ كانَ الفيضانُ قد وصلَ إلى هناكَ أيضًا، وكان يريدُ أن يصلَ إليكم ويقطعَ الفيضانَ بالسباحة، فمنعهُ الناس، لِما رأوا من شدَّتهِ وما يحملهُ في طريقه.

وكنتَ مع أختِكَ الكبرى، وأخيكَ الذي يصغرُكَ محمد زكي، فكانتْ الوالدةُ ترفعكم إلى أعلى وتضعكم فوقَ الفرشِ حتَّى لا يغمركمُ الماء، وتنتظرُ الفرجَ وهيَ تنادي وتستغيث.

وقدَّرَ الله أن يصلَ إليكم جارٌ طيِّبٌ يسمى «أمين خاشو» وكانَ سمينًا، دخلَ البيتَ لمظنَّة حاجتكم إلى مساعدة، فرأى ما أنتم فيه، وقالَ للوالدة: سأحاولُ أن أنقذَ اثنينِ من أولادكِ وآخذهما إلى بيتِ

«غَمِّي» الأرملة، الذي كان يبعدُ عن البيتِ نحوَ ستينَ مترًا، وبينكم وبينه ساقية، وكان أفضلَ حالًا، فاختارتكَ وشقيقكَ محمد زكي، فحملكَ على كتفهِ الأيمن، وأخاكَ على كتفهِ الأيسر، ودخلَ الشارعَ وهو يواجهُ شلَّال الفيضانِ الرهيب، وعندما وصلَ إلى مكانِ الساقيةِ ارتفعَ الماءُ إلى حِقْوَيه، فخافَ أن نغرقَ جميعًا، فعادَ وقالَ للوالدة: اختاري واحدًا منهما فإني لا أقدرُ على قطعِ الشارعِ وهما معًا! فدفعَتْكَ إليه، وكانت تحبُّكَ أكثرَ من أولادها جميعًا، فأخذكَ إلى هناك، ثم عادَ ليُحضرَ شقيقك.

وأُدخلتَ غرفةً، فوجدتَ فيها آخرينَ كانوا كالأشباحِ، وبينهم جارُكَ الذي ما كنتَ تنقطعُ عنهُ «نجم الدِّين يوسف» فلم تعرفه، لِما علاهُ من خوفٍ وارتعاشٍ وكُسيَ أسمالًا بالية، ثمَّ حضرَ شابٌّ (حسن أسعد)، وحفرَ بؤرةً في أرضِ الغرفة، وصبَّ عليها الكازَ وأشعلها لتتدفَّؤوا... حتَّى فرَّج اللهُ وانحسرَ الماء. وقد تزوج ذلك الشابُّ أختكم الكبرى، ومات في ٢٨ محرم ١٤٣٤هـ، ١٢ كانون الأول ٢٠١٢م.

وماتَ خلقٌ، وهدِّمتْ بيوت، وفُقدتْ أموالٌ ومجوهراتٌ وعروض، ولم يمتْ من الأسرةِ أحد، بل هُدمَ كوخانِ ونفَقتْ أغنامٌ فيهما.

وعادَ الوالد، ربَّما في اليومِ التالي، وخرجتم بعدَ انحسارِ الماءِ عن البلدة، فكانتْ كأنها غُسلت، وكأنكم في بلدةٍ جديدة، لِما بدا فيها من التغييرِ والشوارعِ الفارغةِ والبيوتِ المهدومةِ والأشجارِ المكسورة...

وقد استفادَ ناسٌ من آثارِ الفيضان، فعثروا على أموالٍ وعروض، كما أفقرَ آخرون. وكان هناك دكانٌ مشهورٌ في السوقِ لصاحبهِ «كَلُّو هيرِلُّلو» يشتري فيهِ الحبوبَ من الناسِ، فكان يشكو دائمًا من كثرةِ الفئرانِ والجرذان، وبعدَ الفيضانِ سُمعَ وهو يقولُ: المهمُّ أنهُ لم يبقَ أثرٌ للجرذانِ في دكَّاني وهذا يكفي.

وبعد سنواتٍ طويلةٍ بُنيَ سدٌّ ترابيٌّ في أعالي البلدة من الشرقِ ليمنعَ وصولَ مياهِ الأمطارِ المتجمِّعةِ إلى بيوتها، وكان في علوِّ ثلاثةِ أمتار تقريبًا، وطولِ ثلاثةِ كيلومترات، فسلمتِ البلدةُ بعد ذلك من الفيضانات. وقد ذرعتَ ذلك السدَّ ذهابًا وإيابًا سنوات، وخاصَّة في فصلِ الربيع، حيث الهدوءُ وجمالُ الطبيعة، مما يساعدُ على التفكيرِ الصافي وذكرِ الله، مع رياضةِ المشي.

وكانتْ نهايةُ السدِّ تصلُ إلى بستانٍ لكم على جانبي نهرِ الجرّاح، ولكَ فيه ذكرياتٌ جميلةٌ لا تُنسى.

وكنتَ أنت الذي أحرزتَه، فتسلَّمَهُ منكَ الوالد، واستأنسَ به كثيرًا، متذكِّرًا أيامَ الصِّبا والشبابِ في قريته، ثم أصبحَ ذكرى لكَ أيضًا، فكنتَ تساعدهُ فيه أحيانًا، وتجلبُ إليهِ أصدقاءك، فإذا رأيتَ ـ من بعدُ ـ خضرةً وجمالًا في الطبيعةِ تذكَّرتَ وتنفَّستَ عميقًا. . . .

وقد جفَّ ذلكَ النهرُ الكبير، ولم يعدْ يُرى فيهِ ماءٌ سوى في الشتاء، ولا تدري أحوالَهُ بعد ذلك!

وذكرتَ جارَكم الذي أغاثكم من الفيضان، وجازيتَهُ ـ في شيءٍ

من الوفاء ـ بما منَّ الله به عليكَ من فضله. وقد توفَّاهُ الله تعالى في ١٦ محرم ١٤٣٣هـ، أو قريبًا من هذا اليوم.

كما تعرَّضتِ البلدةُ لإعصارٍ قويٍّ سنةَ ١٣٩٤هـ، وكنتَ أثناءها تَدرسُ الثانويةَ الأدبيةَ العامةَ في القامشلي، فحضرتَ إلى البلدة، وكانَ يومَ جمعة، فهبَّ إعصارٌ قويٌّ رؤيَ من مسافةٍ بعيدة، ووصلَ إلى طرفِ العمرانِ من الجانبِ الشرقيِّ، وخافَ الناس، وما عرفوا كيفَ يتصرَّفونَ، ولا تذكرُ أن الجهاتِ الحكوميةَ فعلتْ شيئًا، ولا حتى إشعارَ الناسِ بالخطر، ولطفَ الله، فكان أكثرُ مرورِ الإعصارِ بالأماكنِ الخوالي، مع تعرُّضِ بيوتٍ وبساتينَ لأضرار.

وذكر بعضُ الناسِ أنهم رأوا براميلَ وحيواناتٍ تعلو في السماءِ من شدَّته، وكانَ يبعدُ عن بيتكم نحوَ (١٠٠) مترٍ فقط. ولمَّا تجاوزَ البلدةَ حضرتِ الشرطةُ وتابعتْ خطَّ الإعصار، وقدَّرتْ الخسائرَ بـ (٣٠٠٠٠ ليرة) على ما تذكر.

* * *

أرض وأعمال

وكانتِ الزراعةُ والرعيُ أغلبَ معاشِ الناسِ هناك، مع شيءٍ من التجارةِ وأعمالٍ شعبيةٍ يومية، وقليلٌ من العمّالِ يعملونَ في حقلِ رميلانَ للنفط.

أما الرعيُ فلا يتجاوزُ تربيةَ الماشية.

وأما الزراعةُ: فالقمحُ والشعيرُ والعدسُ والحمّص. ولا تُستغَلُّ الأرضُ في الصيفِ والخريفِ سوى للبطّيخِ بنوعيه، والقثّاءِ والخيارِ والعَجّور، ولعله في وقتٍ متأخّرٍ زُرِعَ القطن.

وعلى الرغم من صلاحيةِ الأرضِ لزراعةِ أنواعِ الفاكهة، إلّا أنه لم يشتهرْ من بينها سوى العنب.

ولمّا حلَّ أهلُ الغمرِ هناكَ زادوا من أصنافِ الزراعةِ وتفنّنوا فيها، وخاصّةً الخضروات. . . .

ومن المفيدِ ذكرهُ هنا أن البلدةَ كانتْ غنيّةً بالنباتاتِ البعليّةِ المتنوّعة، التي تنبتُ بنفسها في الحقولِ وعلى أطرافِ الدروبِ وبين الزروع، وكثيرٌ منها يؤكلُ نيّئًا أو يُطبخ، وكان الأهالي يُقبلونَ عليها، وربما اقتصرتْ بيوتٌ عليها في فصلِ الربيع، للذّتها وغناها وكفايتها.

وتذكرُ من هذه النباتات، بأسمائها الكرديَّة: طُوْلِك (الخبّيزة). سْتِرِي زَرْك (ترجمتها: الشوكةُ الصفيراء). قِيفار، سَرْسِبِيْك (ذو الرأسِ الأبيض). قنيبر، تُوْزِك (وهو لذيذٌ جدًّا عندما يُتَّخذُ سَلَطة، ولم ترَهَ سوى في شايي كرّكي، المشارِ إليه). شُوْقِل (وألذُّها شوقلي خاتونا، شبيهٌ بالبازلّاء). كَرَنْك، دَرْبِيِي ديكا (سروالُ الديك، لذيذ، شكلهُ يُشبهُ رِجلَ الديكِ الذي يكونُ أعلاهُ عند فخذهِ مغطىً بالريش). بَنيروك (وهو مثلُ الفَقَعِ لكنْ بحجمٍ صغير، ينبتُ تحت الأرضِ كذلك). حَسُوك (وهو ثمرُ نبتة الخرنوف، هكذا تسمَّى بالكرديَّة، ولعلها نفسُها «الخِرنِفة»، التي هي ثمرةُ العِضاه، وهو كلُّ شجرٍ له شوك، صغرَ أو كبر). وجَعْفْ جِيلَك (عينُ البقر). والأخيرانِ لا يؤكلانِ إلَّا عند الضرورة. إضافةً إلى نباتاتٍ طبية، مثل: كُلِيلْك (وُرَيدة)، وخَجْخَجوك... مع أنواعِ الورود، وأجملها: الشيفون.

ومن النباتات التي تتغذَّى بها الحيوانات: كَلْبَش، ونَفَل، وباربار (بقلة).

وفي مقابلهِ كان الآباءُ يحذِّرون أبناءَهم من النباتات الضارَّة، أو التي لا تؤكل، مثل: طولكا كرا (خبِّيزة الحمير)، وكيرْكي صي (ذكَرُ الكلب)، وشِيْرِك (الحُلَيبة).

والنحلُ يربَّى في قرًى عديدة.

* * *

أوّليات في البلدة

وكانتِ البلدةُ شطرين: شرقيَّ النهرِ وغربيَّهُ، يمرُّ بينهما خطٌّ دوليّ، يصلها بمدنٍ أخرى حتَّى العاصمة، ثم بالعراقِ من الشرق، وفي الشطرِ الشرقيِّ كنت.

وفي شرقيِّ البلدةِ كان النشاطُ التجاريُّ كلُّه، ففيه مضافةُ آل حاجو وقصورهم، وفيه المسجدُ الوحيد، والمخفر، وإدارةُ الناحية، والمستوصف، والمدرسة، والملعب، والبريد، ومحوِّلُ الكهرباء، والطاحونة، ومحطَّةُ الوقود، والسوقُ كله. ولم يكنْ في غربِها سوى بيوتِ السكن، وطبيبِ أسنانٍ أرمنيٍّ عجوز، لعلهُ لم يكنْ حاذقًا في مهنته، أو أنه كان يعملُ بدونِ ترخيص، فقد أخذكَ إليه والدُكَ ـ وأنتَ طفل ـ ليقلعَ سنًّا لكَ فلم يفعل، وقال إنه سيموتُ إذا قلعته! وإدارةِ جمركٍ صغيرة، ولحَّامِ أكسجين، كان صاحبهُ يسمَّى «محمود أكسجين» نسبةً إلى عملهِ الفذّ، وكان نظيفًا، ديِّنًا، أحمر، في وجهه آثار الجدري، ذا شاربينِ أسودين طويلينِ معقوفين، وله أولادٌ كبار، يأتي بهم جميعًا في كلِّ صلاةِ جمعةٍ إلى المسجد، مع تبتُّلٍ وخشوع. وقد ذهبوا إلى تركيا وأنت فتى صغير.

ومع ذكرِ هذا الطبيبِ يُذكرُ طبيبان شعبيانِ في البلدة، أحدهما

كان يَجبرُ العظام، ويسمَّى «علي» أو «سيِّد علي»، والدُ زميلكم حوَّاس، وكان ماهرًا نوعًا ما في مهنته، وهو الذي جبرَ يدَ شقيقكم محمد زكي، فما كان يستطيعُ أن يحملَ الأشياءَ الثقيلةَ من بعد. وكان وجومًا لا يكادُ يتكلَّم، وإذا تكلَّمَ لا يكادُ يُسمِع، وله ابنةٌ خرساء، هي التي يُذكَرُ شأنها مع المنصِّرة. وابنهُ حوَّاس كان مكتنزَ العضلات، لا تعرفُ مثيلًا له بين الشباب في كمالِ الأجسام، ولكنه كان مؤدَّبًا، لا يؤذي أحدًا، وقد جاء مرةً ابنُ خالتكَ «محمد» من المدينة، وكان قويَّ البنيةِ كذلك، وطلبَ منكَ أن تدلَّهُ على أقوى شابٍّ في البلدةِ ليتحدَّاه، فدللتَهُ على حوَّاس، وبحثتم عنه حتَّى رأيتموه، فتحرَّشَ به واستفزَّهُ ليصارعه، ولكنَّ حوَّاسًا أبَى، وقال: أنتَ ضيف! وكانوا غربيَّ البلدة.

وفي شرقيِّها كان أشهرُ طبيبٍ شعبيٍّ، هو «الحاج عيسى»، الذي كان يُقصَدُ من أنحاءِ القرى، بل وبعضِ المدن، وكان متخصِّصًا في معالجة ما يُسمَّى بالكرديَّة «قارْجِكْ»، وقد سألتَ عن مقابلها بالعربيَّةِ فلم تحظَ بجواب، وله علاقةٌ بعظامِ الظهرِ أو أعصابه، فيضعفُ المريضُ بها، وربما مشى مائلًا أو معقوفًا، ويُعالَجُ من أسفلِ العصعص، وبعضهم يبقَى عندهُ أيامًا حتَّى يتعافَى. ويعالجُ في الطبِّ الحديثِ بالتدليكِ والكماداتِ لمدةِ عام!

وكان الحاج عيسى أحمرَ الوجه، يلبسُ كوفيةَ الحجّاجِ البرتقالية، ضعيفَ البنية، مزَّاحًا، وقد ورثَ منه هذا الخُلقَ أبناؤهُ الثلاثة، وخاصة أوسطهم (محمد)، الذي كان أشهرَ نُكتيٍّ في البلدة، يؤلِّفُ الكلمات، ويلفِّقُ الفكاهات، فتنتشرُ في البلدة، وخاصةً بين الفتيانِ

والشباب. وكانوا جميعًا إذا تكلَّموا، أو تكلَّمَ غيرهم في مجلس، أوردوا نُكتًا عليها، وضحكوا قبل الناسِ على ما ينكتونَ به!

وحانوتٌ عجيبٌ كان قريبًا من ديرِ النصارَى من الجهةِ الجنوبية، واسمُ صاحبهِ أعجبُ منه، يُقالُ له «شاموشو»، يبيعُ فيه أنواعَ النباتاتِ الطبيةِ والحبوبَ والبذورَ النادرة، التي تستعملُ للبخور والسحرِ وما إليه، وكان إذا اشترَى منه شبابٌ شيئًا منها نبَّهُ أهله إلى ذلك! وكان يُرَى في كلِّ صباحٍ تقريبًا وهو يحملُ فأسَهُ على كتفهِ ويذهبُ إلى بستانهِ جنوبيَّ البلدةِ على شاطئ النهر، ولعله كان يزرعُ فيه تلك النباتات.. وكان شكلهُ عجيبًا كذلك، من قامتهِ وشواربهِ الكبيرةِ واحديدابه. وقد كبرَ حتَّى إنه لم يكنْ يُرَى في دكانهِ أسابيعَ وشهورًا، ولذلك شاعَ أكثرَ من مرَّةٍ أنه مات.. وما إن يجدْ في نفسهِ نشاطًا حتَّى يعودَ إلى الحانوت، ولا يتركه، على الرغم من حسنِ حالهم وتوسُّطِ معيشتهم، فقد كان ابنهُ مديرًا للبريد. وقد انتهى الحانوتُ بانتهاءِ حياةِ صاحبهِ نحوَ عامِ ١٣٩٠هـ.

وأكبرُ مركزٍ تجاريٍّ في البلدةِ «محلُّ أوسيب» وكان ضخمًا، إضافةً إلى مخزنٍ له في القبو، في وسطِ السوقِ تمامًا، مقصودًا من البلدِ والقرى، والوالدُ يشتري منه كلَّ تموينات الحانوت، والبلديةُ تعلِّقُ على جدرانهِ الأماميَّةِ قراراتها ولوائحها، وقد أتى عليه الفيضانُ الكبيرُ فأفسدَ جميعَ ما فيهِ تقريبًا، ثم نُهِبَ وانتهى.

وكان الطبيبُ العام في الشرقِ أيضًا، ولا تذكرُ الطبيبَ الذي كان قبل «نعيم الصفدي»، وولدهُ «غياث» كان يدرسُ معكم، وأخوهُ الأكبرُ

اسمهُ «كيناز»، وكان موقعُ عيادتهِ خلفَ المخفرِ مباشرة، غرفةٌ طينيةٌ صغيرة، وبجانبها بيته، وأمامها مدرسةٌ ابتدائيةٌ للبنات.

وتذكرُ أوَّلَ نجّارٍ في البلدةِ قدمَ من الداخل، لعله من حلب، وبقيَ عدَّةَ سنواتٍ ثم رجعَ إلى مدينته، فلم يستفدْ شيئًا، وكانت له صداقةٌ حميمةٌ مع الوالد، فهو الذي صمَّمَ بابَ الحانوتِ بشكلٍ رائع، وكان مسلمًا متديِّنًا، يضعُ طاقيةً بيضاءَ على رأسه، ويقرأ القرآنَ بصوتٍ رفيعٍ مؤثِّر، كالقرّاء تمامًا، وكان يقرأ سورةَ الرحمنِ فجرَ كلَّ يومِ عيدٍ بصوتهِ الجميل، على ما لم يعهدْهُ أهلُ البلدة!

كما قدمَ إليها آخرُ ربَّما من حلب أيضًا، أتى بأوَّلِ معملِ مرطَّبات إليها، آيس كريم (ضوضرما) و(بوظه)، فكان البائعونَ المتجوِّلون من الأولادِ يحملونها في برّاداتٍ صغيرةٍ جميلةٍ ويتنقلونَ بها بين الأزقَّة، وينادونَ عليها بصوتٍ جميلٍ وكلماتِ سجعٍ يؤلفونها، تذكرُ منها قولهم: (بوظا صافي أكله عوافي)! وكان سعرُ العاديِّ منها خمسةَ قروش (فرنكٌ واحد) والأفضلُ منه بعشرةِ قروش.

أما قوالبُ الثلجِ (الجليد) فكانتْ تستوردُ من مدينةِ القامشلي، من «معملِ النجمة» الوحيدِ الذي كان في آخرِ المدينةِ قبل الهلالية، ويأتي بها البعضُ لأعمالٍ تجارية، خفيفة، فيعملُ منها الأولاد «الخرّاطة»: يمرُّ على القالبِ منه بآلةِ الخراطة، وهي علبةٌ صغيرةٌ من الصفيح، لها أسنانٌ من أسفل، تُفتحُ وتُغلق، يُمَرُّ بها على الجليدِ فتخرطهُ وتفتُّهُ، ويوضَعُ منثورهُ في كأس، ويُصَبُّ عليه الشرابُ الملوَّن، مع ملعقة، ويباعُ بفرنكٍ أو فرنكين.

والقصّاب (اللحّام) أيضًا أتى من حلب، يقالُ له «عبدو القصاب» بقيَ مدَّةً طويلةً هو وأولادهُ في البلدة، حتَّى شاخَ ومرضَ وعادَ إلى مدينته.

والحلوياتُ فُتحَ لها محلٌّ لعلهُ نحو سنةِ ١٣٩٠هـ لصاحبها «محمد حمزة» الذي جاءَ من قرية الشلهومية.

وقبل هذه وتيكَ كانت هناك عدَّةُ محلاتٍ لصنعِ المفروشاتِ الأرضيةِ الخفيفة، وهي المَطارح (طايشك، مَرْش)، الأولى تُصنع من بقايا الأقمشة، والأخرى من شعرِ العنز. وكان جاركم (كورية إبراهيم) صانعًا ماهرًا فيها، وقد انقرضتْ قبيل إنهائكَ الابتدائية.

وما عدا سياراتِ الأجرة،، وسياراتِ العملِ لآلِ حاجو، فلا تذكرُ لأهلِ البلدةِ أكثرَ من سيارةٍ خاصَّةٍ لصاحبِ المحطَّة (سمعان).

بل تذكرُ أنه لم تكنْ هناك سيّاراتُ أجرةٍ في البلد، سواء بما يصلها بمدينةِ القامشلي أو بحواليها من القرى، سوى «جيب» لرجلٍ عجوزٍ من القامشلي اسمهُ «جبُّو»، لعله كان أرمنيًّا، ينامُ في «كراجه» المعدِّ لسيارته، وقد وضعَ فيه بعضَ الحيواناتِ الأليفةِ الغريبة، فكان يتردَّدُ إلى البلدةِ كلَّ أسبوع، أو كلَّ عدَّةِ أيام، ليأخذَ الركَّابَ منها إلى المدينةِ وبالعكس.

وتذكرُ أنه جاءَ مرَّةً في فصلِ الشتاءِ وقد هطلَ مطرٌ كثير، ففاضَ النهر، وارتفعَ الماء، ولم يقدرْ على تجاوزه ـ ويُظنُّ أنه قبلَ بناءِ الجسرِ القديم ـ ثم تحدَّى جماعة، برِهانٍ أو بغيره، على أنه قادرٌ على تخطّيه،

وكادتْ أن تغيبَ السيارةُ وقد غمرها شلّالُ المياه. . . ولا تذكرُ نهايةَ القصَّة، وأغلبُ الظنِّ أنه لم يكملْ تحدِّيه.

كما تذكرُ جرّارًا زراعيًّا واحدًا في البلدة، لصاحبه جاجان حاجو، وكان أثيرًا لديه، لكن يبدو أنه كان كثيرَ العطل، وكان يغضبُ ويتعصَّبُ إذا نُقِصَ منه، وذُكرَ أنه كان بين أصحابهِ في المضافةِ مرَّة، فجاءَ ذكرُ الجرّار، فقيلَ له: إنه دائمُ العطل، ولا يساوي شيئًا؛ وكلامٌ من هذا القبيل، فغضبَ وقامَ من المجلس، وتناولَ طاقيَّةً كانتْ هناك ليضعها على رأسه، وعندما لامستْ طاقيَّتَهُ التي على رأسهِ عرفَ أنها لغيره! رحمَهُ الله، فهو الذي وهبَ الوالدَ أرضًا للفلاحةِ عندما كان في القرية، وأرضًا للسكنِ في البلدة.

وقد حدثتْ مأساةٌ بسببِ هذا الجرّار، حيث كان يسوقهُ رجلٌ أخرس، فحدثَ أن وقعَ في حفرة، فاستعانَ برجلٍ اسمهُ «أمين جومري» ليدفعَهُ بمذراةٍ كانت في يده، فلما صعدَ به قليلًا كرَّ راجعًا، فدهسه، أو دخلَ عمودُ المذراةِ في بطنه، فماتَ في الحال، ثم تصالحوا على مال، وعلى ألَّا يبقى ذلك السائقُ الأخرسُ في البلدة، على ما تذكر، وكان الميِّتُ جارًا لكم.

يبقى القولُ أن وسائطَ النقلِ المنتشرةَ في البلدةِ للتنقلِ والعملِ وحملِ الأثقالِ لم تكنْ تتعدَّى البغالَ والحميرَ والعرباتِ التي تجرُّها، والدرّاجاتِ الناريةَ والعادية، وبين الحميرِ حُمرٌ شاميَّة، تتميَّزُ بالطولِ والضخامةِ مع اللونِ الأبيضِ والشكلِ الأحسن، وقليلًا ما كان يُرى الحصانُ والفرس.

أما المخبز، فكان إنشاؤهُ متأخّرًا كذلك، في حدودِ سنةِ ١٣٩٢هـ، وكان قريبًا من محلّاتِ الأقمشة، في السوقِ الشماليّ؛ يدويًّا بدائيًّا، وكان الأهالي من قبلُ يخبزونَ في التنانير، ويوقدونها من الحطبِ والسرجين.

أما الصرفُ الصحي فقد جاءَ متأخرًا عن الماءِ والكهرباءِ بسنوات، في حدودِ سنةِ ١٣٩٧هـ، وكان أحدُ متعهدي تمديداتهِ زميلًا لكم في التدريسِ بقريةِ الحصيوية، اسمه عبد الباقي، من القامشلي، وقد تركَ التدريس. ذكرَ أنه عرضَ على والدهِ «الملّا» أوراقًا أو موضوعاتٍ كتبها في القوميَّة، أو الدينِ والقوميَّة، فمزَّقها.

وتذكرُ يومَ أن نعمتم بالكهرباء، وكنتَ آنذاكَ طالبًا في أواخرِ المرحلةِ الإعدادية، وقدْ غضبَ مشغِّلُ المولِّد (لَحْدو) لأنكم استعنتم بكهربائيٍّ كرديٍّ في التمديداتِ الكهربائيَّةِ ولم تطلبوا منه ذلك، وهدَّدَ بأنَّه بإمكانهِ قطعَ الكهرباء عنكم لأجلِ ذلك!

واسمُ ذلك الكهربائيِّ الشابِّ «عبد السلام بن عبد الرحمن عثمان»، مهنيٌّ قديم، أخو زميلكم «فتح الله». ولم يكنْ «لحدو» يجرؤ على مكالمته، لشجاعتهِ وقوَّةِ شكيمته، فكان يخشى بطشه، ولذلك صبَّ جامَ غضبهِ عليكم!

وتمديداتُ المياهِ قديمةٌ لا تعرفُ تاريخها، حيث إن البئرَ الارتوازيَّ كان موجودًا منذُ معرفتِكَ بالبلدة. وتمَّ تمديدُ الماءِ إلى بيتكم وأنتَ في الابتدائي أو أوائل الإعدادي، بواسطةِ شخصيَّةٍ معروفةٍ في البلدة، هو «إبراهيم جيلكي» الذي يعدُّ من أوائل المهنيين هناك،

وكان ممرِّضًا أيضًا، في مستوصفٍ قديمٍ كانت أولى مهمّاتهِ محاربةُ البلهارسيا.

وما كان الاشتراكُ بماءِ البئرِ الارتوازيِّ منتشرًا؛ للفقر، بل يشتركُ أكثرُ من حارةٍ في حنفيَّةٍ توضَعُ في جانبِ حيٍّ، ويُنقَلُ منها الماءُ بالصفائحِ والأباريق.

وقبلها ذكرَ الوالدُ أنه كانت هناكَ بئرٌ عاديَّةٌ قربَ الطاحونةِ المائيةِ عند المسجدِ يأخذونَ منها الماء.

وهذه الطاحونةُ رأيتَها تعملُ مرَّاتٍ قليلةً وأنت طفلٌ صغير، ثم أُغلقت، لعله بسببِ قلَّةِ الماء، وكان قد عُمِلَ لها مجرىً طويلٌ متفرِّعٌ من نهرِ الجرَّاح.

وفي غربيِّها طاحونةٌ ميكانيكيةٌ كبيرة، لا تذكرُ تاريخها، لعلها منذ الاحتلالِ الفرنسي، يعملُ فيها رجلٌ يُقالُ له (موشي)، تراهُ موشًّى ببياضٍ من الدقيقِ على رأسهِ ووجههِ وثيابهِ كلِّها، نتيجةَ بقائهِ المستمرِّ فيها، إذ كان ينامُ فيها أيامًا، وتُقصَدُ الطاحونةُ من القرى إضافة إلى أهلِ البلدِ كلِّهم، ويبقى أهلُ القرى أحيانًا أيامًا ولا يصلهم الدور، فينامون مع دوابِّهم حول الطاحونة.

ولعلَّ أولَ مصلِّحٍ للإذاعاتِ والمسجِّلاتِ هو «محمد صالح درويش» من آلِ حاجو. وكان مدرِّسًا قديمًا؛ درَسَ أربعَ سنواتٍ في الابتدائيةِ فقط، ثم درَّسَ في قريةِ «تل حسنات»، وذكرَ بعضُ تلاميذهِ أنه كان يبدأ يومَهُ في التعليمِ متأخِّرًا، بعد التاسعةِ أو العاشرةِ صباحًا، وما كان أحدٌ يجرؤ على إيقاظهِ أو مؤاخذته، لقيمةِ المعلمِ آنذاك.

وقد ساعدَهُ في المحلِّ الذي اتخذَهُ لتصليح المسجِّلاتِ بوسطِ البلدةِ «عبد السلام» المذكور، الذي سبقَ ذكرهُ قبلَ قليل، وكان مخلصًا معه بشكلٍ لافتٍ للنظر.

وأولُ مصلِّحٍ للساعاتِ «شيخ كور» من البلدة، وكان شخصيَّةً عجيبة، ضعيفَ البنية، واثقًا من نفسهِ جدًّا، ولعلهُ نشأ يتيمًا، وأمُّهُ خرساء!

ووصلَ التلفزيونُ (أبيضُ وأسودُ) إلى البلدةِ نحو سنةِ ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) في عدَّةِ بيوت، وكان يذهبُ بعضُ الشبابِ إليها ليتابعوا برامجَ ومسلسلات، وكنتَ تنهى من تعرفُ منهم.

وكان هناك «ملعبٌ» لكرة القدم، بين المدرسةِ الابتدائيةِ والبئر الارتوازي، ومعظمُ أعضاء الفريقِ من شبابِ آلِ حاجو، وتجري مبارياتٌ بينهُ وبينَ فرقٍ أخرى من خارجِ البلدة، ويجذبُ معظمَ شبابِ البلدة، وأبرزُ اللاعبينَ الماهرينَ كانوا ثلاثة: فريدون بن محمد شريف حاجو، وزرادشت بن محيي الدِّين حاجو، وبرزان بن جميل حاجو. وقد بقيَ هذا الفريقُ ربَّما حتَّى سنة ١٣٩١هـ.

وكان «خير الدين» القياديُّ الكرديّ، أولَ من أنشأ مكتبةً في القحطانية، سنة ١٣٩١هـ، بوسطِ السوق، مقابلَ سوقِ الخياطينَ القريبِ من النهر، وضعَ فيها مجموعةَ كتب، لعلها لا تتجاوزُ العشرةَ أو العشرين، مع قرطاسية، يجلسُ فيها أخوهُ الأصغر، زميلكم في الدراسة «عبد القادر» لم ترَ ألطفَ ولا أكثرَ تبسُّمًا ووداعةً منه، مع جمالٍ وبراءةٍ تعلو وجهَهُ الأبيض، لا يشبهُ أخاهُ الأسمرَ في شيء

من ملامحِ شخصه، وكانَ دائمَ المطالعة في كتبها، واشتريتَ منه آنئذٍ «مذكرات مالكولم إكس» وتأثرتَ بها كثيرًا.

ومنذ سنةِ ١٣٩٣هـ بدأ الاهتمامُ بالجانبِ الغربي، فأنشِئَتْ في السَّنةِ المذكورةِ محطَّةُ بنزين، وجلبَ صاحبُها (شمعون.. أخو أسمر) أولَ آلةِ تصوير ورقيَّة، يصوِّرُ فيها أصحابُ المعاملاتِ أوراقهم.

وبعد أن دخلتَ الجامعةَ افتتحتِ الثانويةُ هناك.. وتطوَّرتِ الأمور.

* * *

عادات وألعاب شعبية... ومظاهر

ولا تذكرُ كلَّ ألعابِ الأطفالِ آنذاك، لكنَّ منها لعبةَ «الغمّيضة» المعروفة.

وكذلك سَوْقُ «العجلة»، وهي آلةٌ دائريَّةٌ تُدفَعُ بسلكٍ معقوفٍ يكونُ بيدِ اللاعب.

وحبلُ القفز.

ولعبةُ «البرّامة»، وتسمَّى في دمشقَ «بلبل»، وهي جسمٌ خشبيٌّ مخروطيٌّ صغيرٌ بحجمِ نصفِ الكفّ، في وسطهِ مسمارٌ غليظٌ يشكِّلُ أعلاهُ نتوءًا بارزًا، يُلَفُّ عليه حبلٌ ناعم، يكونُ آخرهُ بيدِ اللاعب، وهو ممسكٌ بالبرّامة، ثم تُرمَى مع سحبِ الحبلِ المحيطِ بها، لتصيبَ برّامةً أخرى، أو ليبديَ اللاعبُ مهارتَهُ بطولِ مدَّةِ دورانها على الأرض.

ولعبةٌ تسمَّى «دَبِّك» أي الخُشَيبة، وهي خشبةٌ عاديةٌ طولُها نحو (٤٠ سم) تؤخَذُ في اليد، وعودٌ في طولِ شبرٍ مبريٌّ من الجانبينِ يكونُ على الأرضِ، فيضربُ اللاعبُ طرفَهُ بالخشبة، ليرتفعَ ويقعَ على الخشبة، فيرفعهُ ويخفضهُ عليها هكذا، مع تفنُّن فيه، ويعدُّ هذه الحركات، فإذا كانت أكثرَ ممّا عدَّهُ زميلهُ كان هو الفائزُ.

وكان أكثرُ الألعابِ انتشارًا مسابقاتِ الجري، مع اختلافِ صفاتها وأحوالها، منها لعبة تسمَّى «تُوْشْتي» نسيتَ أصولَها، والذي تذكرُ أنَّ الفائزَ فيها يكون الأسرع، ولا يتعبُ بسرعة، وقد يمتدُّ بهِ الجري إلى الحقولِ وما إليها!

ولعبةُ أطفالٍ أخرى مشتركةٌ بينَ الذكورِ والإناثِ تسمى «مَستَريح»، وبالعربيَّة «خطَّة»: أربعةُ مربعاتٍ عمودية، في آخرها مربَّعانِ اثنانِ على جانبي المربَّعِ الأخيرِ، يرمي اللاعبُ بحجرٍ في المربَّعِ الأولِ ويقفزُ عليه إلى المربعِ الثاني، حتَّى ينتهي إلى الأخيرِ، ثم يعودُ ويرمي الحجرَ إلى المربعِ الثاني ليقفزَ عليه من جديد، وهكذا حتَّى الأخير، فإذا سلمَ من الخطأ حتَّى نهايتهِ أدارَ ظهرَهُ إلى المربعاتِ ورمى بالحجرِ من خلفهِ ليقعَ فيها من جديد. وكلَّما تنقَّلَ إلى مربَّعٍ جديدٍ تلفَّظَ بكلمة «مارشو»! وربما زاد، أو سكت، وهي تخصُّ البناتِ ولو كبرن، ولا يشاركهنَّ فيها سوى الأطفالِ الصغار.

ومن ألعابِ البناتِ لعبةُ «حَفْتِكْ» وتعني «السُّبيعة»، تصغيرُ سبعة، وهي سبعُ حُصِيٍّ تُرمى جميعًا على الأرضِ إلَّا واحدة، ثم لا تُحرَّكُ ولا يُفرَّقُ بعضُها عن البعض، فترفعُ اللاعبةُ تلك التي بيدها عاليةً، وتأخذُ واحدةً من التي على الأرضِ بسرعةٍ لتجتمعَ الثنتانِ في يدها، وهكذا حتَّى ينتهيَ الجميع، فإذا انتهتْ بدأتْ برفعِ اثنتينِ (مثنى مثنى) إلى التي بيدها، فإذا انتهتْ من هذه أيضًا جمعتِ الثلاثة، ثم الأربعةَ، فالخمسةَ، فالستةَ، وهي في كلِّ مرةٍ لا تفرِّقُ ما أسقطَتهُ منها على الأرضِ، ويكونُ الأفضلُ أن لا تكونَ مجتمعةً إذا لقطَتِ الواحدةَ تلوَ الأخرى، وأن تكونَ مجتمعةً إذا أرادَتْ رفعَها جميعًا، وتتفنَّنُ الماهرةُ

في ذلكَ، بأن تُبعدَ الحصاةَ عن غيرها وهي ترفعُ الحصاةَ التي بيدها في كلِّ مرة، لا تنفكُّ عن ذلك، وإذا حرَّكتِ الحصاةَ التي على الأرضِ عن غيرها فينبغي أن لا تتحركَ الأخرى عن مكانها.

ومن ألعابِ الشبابِ كرةُ القدم، والطائرةِ، وقوَّةُ اليد، وتسمى كسرَ اليد (دَسْتْ شْكانْدِنْ)، وهو أن يشبِّكَ كفَّهُ بكفِّ الآخرِ ويدفعَ ساعدَهُ حتَّى يوقعه، وهي معروفةٌ عالميًّا كذلك.

ولعبةُ «الكلَّة» (المصقال) كانت منتشرةً جدًّا آنذاك، بين الكبارِ والصغار، والذي تذكرُ منها نوعان: الكرمانجي، وهو تثبيتُها على الأرض، وبسطُ الكفِّ على الأرضِ كذلك، ووضعُ إصبعِ الشهادةِ على الوسطى، ودفعُ الكلَّةِ بالأخيرة. والنوعُ الثاني: العربي، وهو جمعُ قبضةِ اليدِ وجعلُ طرفِ الإبهامِ تحت إصبعِ الشهادةِ ثم دفعُ الكلَّةِ بالإبهام.

والذي يحبُّ هذه اللعبةَ كان يصنعُ لنفسهِ «كلَّةً» من الصخرِ القاسي، الأبيضِ أو الملوَّن، يضعها بين «برغيين» ويظلُّ يديرها بينهما حتَّى تكتملَ دائريًّا، ثم تُدهَنُ بالسمنِ في قماشٍ وتُحفَظ ليومينِ أو أكثر، حتَّى تبدوَ صقيلةً لامعةً جميلة.

ومثلها (كاب) يعني «كعبَ» الحيوانات، يُلعبُ بها مثلَ لعبةِ الكلَّة.

ومن عاداتِ الصغارِ في ذلك الوقت، أنهم إذا تخاصَموا وضعَ كلٌّ إصبعَهُ الصغرى في إصبعِ الآخر، وقالوا: (قاجي). وإذا تصالحا مدّا إصبعَي الشهادةِ كالمتصافحين، وقالا: (صالح)!

وتذكرُ من لعبِ الكبارِ لعبةَ «الهوكي»، ولم ترهم يلعبونَ بها سوى مرَّةٍ أو مرَّتينِ وأنتَ طفلٌ، وكأنها انقرضتْ، وكانت تتمثَّلُ في عدةِ رجالٍ يذهبونَ إلى البرِّ ومعهم عِصيٌّ غليظة، وكرةٌ خشبيةٌ يرفعونها بها إلى السماء، وتؤلمُ كثيرًا إذا سقطتْ على أجسادِ اللاعبينَ وعظامهم بدلَ عصيِّهم.

ولعبةُ «الدامة» معروفةٌ، وقد يقالُ لها الضامةُ بالضاد، عربيًّا.

وألعابٌ أخرى في المنازلِ والسهراتِ، كلعبةِ الشَّدَّة.

وكانَ صيدُ السمكِ يمارسه الصغارُ والكبارُ، ولكن لا يحصلونَ منها على شيءٍ يذكر، فكانَ البعضُ يعمدُ إلى أسلوبٍ مؤلمٍ ومنكر، وهو رمي عجينةٍ أو نباتاتٍ سامةٍ من أعالي النهرِ في البلدة، لتطفحَ أسماكٌ كثيرةٌ على ماءِ النهرِ بطولِ عدَّةِ كيلومترات، دون الانتفاعِ بها، لتغيُّرها مباشرةً، وربما حصَّلو بعضها وهي تتحركُ أو لم تأكلِ الكثيرَ من السمِّ، وكانَ هذا حتَّى قبيل سنة ١٣٩٠هـ.

أما صيدُ البرِّ، فكانت محصورةً في الأرانبِ والثعالبِ تقريبًا، ولا تعرفُ سوى شخصينِ كانا يمارسانه، فكانَ لكلٍّ منهما كلب «سَلوقي» ويلفظها البعضُ «سُلوكي»، يذهبانِ إلى الصيدِ في السَّنة عدةَ مرَّات، فيصطادان القليلَ أيضًا، وهما جاركم يوسف جومري (أبو حبيب) وجاركم الآخرُ أمين خاشو، السابق ذكره. ولآلِ «لطو» جولاتٌ في الصيدِ أيضًا.

وكان في البرِّ القريبِ من القريةِ ذئاب، تأتي في الليلِ أحيانًا وتدخلُ حظائرَ الحيواناتِ والطيورِ الداجنة، فتقتلُ بعضها وتأخذُ معها

ما تقدرُ عليه وتهرب، وقد تفعلُ الثعالبُ فعلها. وكان الأطفالُ يخافونَ منها كثيرًا.

ولا تعرفُ أحدًا كان يحملُ بندقيةَ صيدٍ سوى بعضِ آلِ حاجو، و«أوصمان» الآذن، وكان اقتصارُ الأخيرِ على صيدِ الطيور، يتتبعُ الأشجارَ على ضفتي النهرِ القريبِ من البلدةِ غالبًا. وسائرُ صيدِ الطيورِ كانَ بالمقلاع، يستخدمه الأولادُ والشباب.

وكان موسمُ الشتاءِ مرتعًا للزرازيرِ في هذه البلدة، يأتي إليها فوجٌ بعد فوج، ولم يكنْ حظُّكَ من صيدِها كثيرًا مثلَ غيرك، فلم تصطدْ في عمرِكَ كلِّهِ سوى عصفورٍ واحدٍ وأنتَ صغير، ولم يكنْ هذا لمهارةٍ منكَ في الرمي، بل اصطدتَهُ عن طريقِ الفخّ.

وطيورٌ أخرى، مثلُ مالكِ الحزينِ الذي يُرى على ضفافِ الأنهارِ وبين أوحالها، واللقالقُ التي استأنستْ واتخذتْ لها أعشاشًا في أعلى مناطقها، كالبثرِ الارتوازي، ومضافةِ آلِ حاجو، وما كان أحدٌ يؤذيها... ومثلها طائرُ السنونو الذي كان يعشِّشُ داخلَ البيوت... .

وطيورٌ أخرى تمرُّ من سماءِ البلدةِ ولا تستريحُ في بيادرها، مثلُ البطِّ البرِّي وغيره... فيبدو أن المنطقةَ ممرٌّ للطيورِ المهاجرة.

ومن الفراشاتِ المحبَّبةِ إلى الأطفالِ «الحشرة الذهبية» (كيزكا زيرين)، حيث يبدو جناحاها متلألئين، وهما بين الأخضر والأصفرِ الذهبي، فكان الأطفالُ يضعونها على ظهرها، ويضربونَ الأرضَ بأيديهم على جانبي الجناحين، وهم يُنشدون: أيتها الحشرةُ الذهبية،

انقلبي انقلبي (كيزكا زيرين قوبلاني موبلاني). فتنقلبُ على بطنها ـ من ضجرها ـ فيفرحون، ويظنون أنها انقلبتْ بندائهم لها!

ويحبُّون ـ كذلك ـ حشرةً صغيرةً حمراءَ منقَّطة، تعيشُ على الخضرواتِ غالبًا، يسمُّونها حشرة الحجّ (كيزْكا حَجِي)، وهم بالأحرى يحترمونها، ولا يؤذونها، لأن أهاليهم يقولون لهم إنها آتيةٌ من الحج، أو أنها تذهب إلى الحج، ربَّما للونها القريبِ من عِمامةِ الحاجّ، فيضعها الأطفالُ على ظهورِ أكفِّهم، ويرفعونها فوق رؤوسهم، فتطير، فيقولون إنها طارتْ إلى الحجّ!

وكان حولَ البلدةِ ساحاتٌ كبيرةٌ يقضي فيها أهالي البلدةِ حاجاتهم، ويتخذونها بيادر لمحاصيلهم، ومرتعًا للخرافِ، وللعب، وما إلى ذلك.

ومن العاداتِ الفريدةِ في المجتمعِ الكرديِّ عادةٌ للتقاربِ بين العائلاتِ تسمَّى (كِرِيف)، وهو أن يُختنَ الصبيُّ في ثوبِ أحدهم، فتصبحُ أسرتا الطرفين (كريفين). وغالبًا ما تكونُ هناك ثنائيةٌ في الاختتان، فيُختنُ صبيٌّ في ثوبِ واحدٍ من الأسرة، وهذه تختنُ صبيَّها في ثوبِ واحدٍ من الأسرةِ الأخرى، فيصبحانِ (كريفين). وكان من العارِ والشنارِ أن يكبرَ الطفلُ وهو غيرُ مختون، والوالدُ هو الذي يُعابُ ويُلام؛ لكسلهِ ولامبالاتهِ مع ولده.

وتأتي هذه العادةُ من المحبَّةِ الزائدة، والاحترامِ المتبادلِ بين الأسرتين، وهما ليستا من الأقرباء، فإذا أصبحتا كريفينِ تقاربتا أكثر، وتعاونتا في الضرَّاء، وتبادلتا الهدايا وتزاورتا، وصارتا مثلَ الأهلِ

والأقرباء، وبلغَ من بعضِ هذه الأسرِ ألَّا يتزوَّجَ بعضُها من بعض، وكأنها صارت كالمحارم!

ويتجاوزُ هذا التقاربُ كذلك إلى ما بين الأكرادِ وغيرهم من المللِ والأقوام، كما هو بين الأكرادِ المسلمين واليزيديين، وقد اختُتِنَ طفلٌ يزيديٌّ في ثوبكَ وأنتَ طالب، وكان يلقَّبُ بـ «كيسو»، ابن كريفكم «قرَّاجه» من قرية «دريجيك»، وقد كبرَ وأقام في ألمانيا.

* * *

وقائع وأحداث (صور من البلدة)

* ومما لا تنساهُ ـ وأنتَ طفلٌ ـ حادثةٌ وقعتْ في البلدةِ لم تشهدْ مثلها من قبل، حيثُ أقدمتْ فتاةٌ على إحراقِ نفسها بعدَ أن صبَّتِ الكازَ على ثيابها وجسمها، وبعدَ أن اشتعلَتِ النارُ بجسمها صارتْ تولولُ وتستغيث، فأُسعفتْ، وأُرسلتْ إلى المدينةِ لتطبيبها، لكنها ماتتْ، حيثُ كانت النارُ قد التهمتْ جسمَها كلَّهُ، وذُكرَ من بعدُ أنه كانَ في بطنها جنين. ثمَّ أقدمَ والدها على طلاقِ أمِّها، لأنها لم تخبرْهُ بالحقيقةِ وهي تعرفُ ذلك.

وكان الطلاقُ ـ أيضًا ـ حادثًا نادرًا، فلم تشهدْ في مدةِ بقائكَ بالقحطانيةِ سوى بضعِ حالاتِ طلاق، فإنهُ قليلٌ جدًّا في المجتمعِ الكرديّ. والمرأةُ محترمةٌ فيه: عندَ زوجها، وعندَ أولادها، وإخوانها... لكنها إذا فسدتْ وتجاوزتِ المسموحَ لها، أُهملتْ أو ضُرِبتْ وأُذلَّت. وذاكَ الذي طلَّقَ زوجتَهُ لم يكنْ ذا مزاجٍ هادئ، فقد تشاجرَ مع (صوفي عَزي) ربَّما على أرضٍ بينهما، فوصلَ الأمرُ إلى أن طرحَهُ (عَزي) أرضًا وعضَّهُ من أذنهِ واقتلعها، فاشتكى عليه، فبقي في السجنِ عامًا كاملًا. ويأتي الحديثُ عن المسجون.

* ومما لم تنسَهُ أيضًا وأنتَ صغيرٌ، عجوزٌ اسمه «جميل العطار»، كانَ من المحلَّمية، يتعاطى العطارة، ويسكنُ هو وحصانُه في كوخٍ جنوبَ مضافةِ آلِ حاجو، وكان كلَّ أسبوعين أو أكثرَ يحملُ خُرجًا على حصانهِ فيه خردواتٌ يتجوَّلُ به في القرى، ويعودُ بعد أيام. وفوجئتم مرةً أنه عُثِرَ عليهِ ميتًا في كوخهِ وقد تعفَّنتْ جُثَّتهُ، وقيل يومها: مرَّ على وفاتهِ ثلاثةُ أيام، وكان الذي عثرَ عليهِ ثريٌّ اسمهُ «يوسف حنا» ربَّما افتقدَهُ لأنه لم يمرّ على محلِّهِ مدَّة، فكانَ يعيِّرُ المسلمينَ بذلك، ويقول: لا يتفقَّدُ بعضُكم بعضًا!

ومما سمعتَهُ من ذلك العجوزِ وهو في المسجدِ يقولُ للأولاد: إذا سجدتم فضمُّوا أصابعكم إلى بعضها البعض، فإنَّها إذا كانت متباعدةً هربتْ من بينها الرحمة!

* وفي هذه المرحلةِ من سنِّكَ الصغيرةِ كنتَ مُغرمًا بترديدِ عبارةِ «كِيتُو حَا لَيْتو ترِي» وهي جملةٌ بالسريانيةِ ألفتها من عندك، وتعني: يوجد واحدٌ ولا يوجدُ اثنان، فكنتَ تقولها إذا مررتَ بحارةِ النصارى، لعله ردًّا على شركهم وجعلهم عيسى عليه السلام إلهًا مع الله، سبحانه وتعالى.

* وكانتْ رأسُ السَّنة، للمسلمينَ والنصارى، موسمًا للأولادِ في تجوالهم بين الحارات، والدخولِ إلى بيوتاتٍ ليلًا، وقد اتخذوا أغطيةً مقنَّعةً على وجوههم، وطرابيشَ ورقيَّةً طويلةً على رؤوسهم، وربما اصطحبوا معهم آلاتٍ بدائيةً للعزفِ واللهو، مع ترديدِ كلماتٍ معيَّنة للمناسبة، وإذا ذهبوا إلى بيوتِ النصارى قالوا بالسريانية: (شْلُومو

عَليخو عِيدو بْريخو عاليخو). وتعني: السلامُ عليكم، كلّ عامٍ وأنتم بخير. ويقومونَ بحركاتٍ بهلوانية، أو شيءٍ من تهريج، أو يقدِّمونَ مسرحياتٍ قصيرةً (على الواقف) ليحصلوا منهم على قروش، أو بعضِ الحلوياتِ والسكاكر.

* وكنتم فتيانًا تغدونَ وتروحونَ في أنحاءِ البلدة، تستكشفونَ الجديدَ وتتعرَّفونَ على الحياةِ بعقولكم الصغيرةِ المتوثِّبة، وفوجئتم مرَّةً بفتىً أشقرَ غريبِ الهيئةِ ينزلُ البلدةَ دونَ أن يكونَ معه أحد، وهو متوتِّرٌ لا يدري كيف يتصرَّف، تتحرَّكُ جميعُ أطرافهِ على غيرِ اتِّزان، وعيناهُ تنظرانِ إلى بعيد، وهو يقولُ بصوتٍ متهدِّج، وبإرادةٍ ضعيفة، وكأنه غيرُ واثقٍ من نفسه: سأعودُ مرَّةً أخرى ولو طردوني، سأذهبُ إلى البيتِ بنفسي، في ديريك (المالكية). أنا اسمي بصري... لا أعرفُ من هو أبي... لقد عشتُ هناك، ولا أدري لماذا طُردتُ هذه المرَّة!

وكأنه يريدُ أن يقول: أنا ما زلتُ صغيرًا... وكان في نحوِ الحاديةَ أو الثانيةَ عشرةَ من عمره، ولا يُشبهُ الأكراد، فقد كان أشقرَ يضربُ إلى القِصَر، وفيه سِمَن، وحتى اسمهُ لا يُعرَفُ في مجتمعِ الأكراد، أو أنه نادرٌ جدًّا.

وكنتم تتألمونَ لحالهِ وتواسونه، وتجلبونَ له خبزًا وماءً وشيئًا من الأكل، وربما باتَ ليالِيَ في العراء، أو في أماكنَ مهجورةٍ لا تعرفونها، فقد كنتم تتركونَهُ بُعيدَ المغربِ إلى بيوتكم، وتنامونَ عند آبائكم وأمَّهاتكم، ويبقى هو وحدَهُ في الظلام، ثم لا تدرونَ أينَ يبيتُ وكيف...؟

وغابَ أيامًا أو أسابيع، فحمدتم الله وظننتم أنه عادَ إلى بيتهِ السابق... لكنه عادَ مرَّةً أخرى مكسورَ الخاطر، مثقَّلًا بهمومهِ السابقة، وما زالَ في هِجّيراهُ يقول: لقد طردوني مرَّةً أخرى، لكني سأعود... فأنا لي أشياءُ في البيت... ربما كان يتحدَّثُ عن ثيابٍ له، أو محفظة.

وكان لذلك المشهدِ أثرٌ كبيرٌ في نفوسكم، حيث عرفتم نعمةَ الأمان، والحنان... وعرفتم أن هناك أطفالًا لا آباءَ لهم ولا أمَّهات، يعيشونَ بدون عطف، وبدون مأوى، وبدون نقود... .

أما ذلك الفتى، فجاءَ اليومُ الذي لم تروهُ فيه، ولم تعرفوا حقيقةَ غيابهِ الأخير!

* وكانت مدافعُ الإفطارِ في شهرِ رمضانَ نعمةً ونقمة! أمَّا النعمةُ فلكونها تُسمِعُ أهلَ البلدةِ كلهم عند الإفطار، حيث لم يكنْ هناك مكبِّرُ صوت، وحتى الأذانُ بالمكبِّرِ ما كان يصلُ إلى أواخرِ البلدة.

وأمَّا النقمةُ فكانتْ حيثُ لا تنفجرُ القذيفة، وكان يتولَّى ذلك كلَّهُ الملا أحمدُ القرطميني إمامُ الجامع، فتسودُّ الدنيا أمامَ عينيهِ وتعتريهِ الهواجس، لأن أمرَ العثورِ عليها واللعبِ بها ومن ثم تفجُّرها وارد، فكان يذهبُ أيامًا وهو يبحثُ عنها في الفلوات، فإذا عثرَ عليها أحضرها وفجَّرها، وإلا بقيَ الهمُّ والغمّ! وقد تفجرتْ مرّاتٍ بنفسها، لكن المكروهَ الذي أصابَ البلدةَ بالفزع، هو أن ثلاثةَ أطفالٍ في العاشرةِ من عمرهم عثروا على قذيفةٍ ولعبوا بها فانفجرتْ فيهم، وأُخِذوا إلى مستشفى القامشلي وأُسعِفوا، ولطفَ الله أن لم يُقتلْ أحدٌ

منهم، لكنْ عَميَ أحدهم من عينيه، وقُطعتْ أصابعُ للثاني، وحدثتْ عيوبٌ في عينِ الآخرِ مع جروح.. فكان المتضرِّرُ هو الطفلُ الأعمى، الذي لم يوجَّهْ بأسلوبٍ تربوي إسلامي، فاتجهَ إلى الغناءِ وصارَ عازفًا ومغنيًا، ربَّما هاويًا لا مطربًا، وقد هاجرتْ أسرتهُ من البلدةِ منذ زمن، ولم تعرفْ أخبارهم من بعد.

* وجارةٌ لكم اسمها «كُلِي»، كانتْ تسكنُ في بيتكم بالإيجار، وزوجها (رشيد) يعملُ في القرى سائق حصَّادة، مرضَ ولدها الصغيرُ «لقمان»، وضعفَ واصفرَّ حتَّى شارفَ على الموت، وكان هادئًا، حنونًا، جميلًا، في نحوِ الخامسةِ من عمره، تذكرهُ كأنه أمامك، يتعلق بأمهِ كثيرًا من مرضهِ وألمِ ما يجد، وعندما ازدادَ في ليلةٍ مرضهُ طلبَ الوالدُ أن تنام مع صديقٍ لكَ في غرفة الجارةِ حتَّى تستأنسَ بكما، وكنتما في الابتدائية. ومات الطفلُ في تلكَ الليلةِ وأنتما نائمان، والأمُّ ساهرةٌ عليه وتبكي بحرقةٍ وألم، ولا ترفعُ صوتَها حتَّى لا توقظكما من النوم، ولم تخبرِ الوالدَ كذلك، بل صبرتْ حتَّى أصبحَ الناس.

* وفي موقفٍ شبيهٍ بهذا كنتَ في سنٍّ صغيرةٍ كذلك، زرتَ خالتكَ في القامشلي، فماتَ طفلٌ لامرأة، فكانتْ تبكي وتولول، وتغسلهُ مع أخرَياتٍ ليُدفَن، وذُكرَ أثناءها أن أكثرَ من طفلٍ لها مات، ربَّما وهم في عمرٍ واحد، وأنَّ زوجَها كانَ يتَّهمها بالإهمال، وأنها السببُ في وفاتهم، وكانَ يعملُ خارجَ المدينة، فكانتْ تبكي على ولدِها، وتخافُ من زوجِها.

وكانت أخبارٌ تَشيعُ آنذاك من أن أمَّهاتٍ نمنَ بأثدائهنَّ على أطفالهنَّ حين إرضاعهنَّ بالليلِ وماتوا. وسمعتَ الوالدَ يحذِّرُ الوالدةَ من ذلك أكثرَ من مرَّة، وكانت ربَّما أرضعتْ ويبقى الوالدُ يقظًا فيناديها ويذكِّرها.

* وكانَ هناكَ جسرٌ رفيعٌ على النهرِ في آخرِ البلدةِ، بُعيدَ السوقِ، غيرَ الذي بُنيَ في وسطها من بعد، لا يسَعُ سوى سيارةٍ واحدة، وتذكرُ أنَّ شاحنةً وقعتْ من فوقِ الجسرِ في النهرِ، وكان يقودُها أخوانِ من حلبٍ أو حماة، وقد نعسَ الذي يسوقها، فأُخرجا من النهر، وأُسعفا إلى الطبيب، وقد قطعتْ أصابعُ أحدهما مع جروحٍ في الرأسِ والجسدِ، ولا تذكرُ مصيرَ الآخر.

* وسينما حائط، أُتيَ بها مرةً أو مرتين، في نحوِ سنةِ ١٣٨٥هـ، عند مضافةِ آلِ حاجو، فكانَ الشبابُ والأطفالُ يتفرَّجونَ عليها ويتعجَّبون، وتدومُ أيامًا قليلة.

* وساحرٌ حضرَ وحدَه، وربما بقيَ أيامًا، يبرزُ مهنتهُ لمجموعةِ مشاهدين يتحلَّقونَ حولَه، ربَّما لم يتجاوزوا الخمسةَ عشر، ما بينَ صبيٍّ وشابٍّ ورجل، وكانَ مقابلَ المخفر، وكنتَ صغيرًا أثناءها، لا تذكرُ من عملهِ سوى أقمشةٍ كان يُخفيها ويُظهرُها، أو شيئًا من هذا.

* ولم يكنْ في البلدةِ منَ العميانِ سوى اثنين، أحدهما صاحبُ محلِّ أقمشة، وكانَ عجبًا في ذكائه، فهو الوحيدُ الذي كانَ يجلسُ في المحلِّ ويبيعُ فيه، ويعرفُ جميعَ أنواعِ الأقمشةِ ومكانها وصفاتها وأسعارها، وربما أتى وحدَهُ إلى الجامعِ الذي في آخرِ البلدة،

وقد ساءتْ أحوالهُ من بعدُ على ما ذُكِرَ لك، عندما قامَ عليهِ أولادهُ لنزعِ أموالهِ منه وإعطاءِ قسمٍ كبيرٍ منها لحزبٍ كرديٍّ معروف.

والآخرُ اسمهُ «رفعت»، كان بطَّالًا يجلسُ في بيتِ أخيه، في عمرٍ وسط، اشتُهِرَ بمعرفتهِ بتحديدِ الوقتِ بالساعة، وعدمِ ردِّهِ أحدًا إذا سألَهُ عنه، حتَّى الأطفال، الذينَ كانوا يتعرَّضونَ لهُ وهوَ في طريقهِ إلى المسجد، يسألونهُ كم الساعة؟ فيجيبهم، وكنتَ واحدًا منهم. وقد تركَ البلدةَ منذُ وقتٍ بعيد، ربَّما إلى تركيا.

* ومما لا تنساه: عروسٌ ركبَ معكَ السيّارةَ في سوقِ البلدة، ليتَّجهَ إلى القامشلي ويقضي بعض الأعمال، ثم يعودَ بسرعةٍ إلى قريته، وكانت ليلةَ الزفافِ على ما تذكر، وكانت السيارةُ مكتظَّةً بالركاب، فأغلقَ السائقُ بابَ السيارةِ بشدَّة، فوقعَ على أصابعهِ الأربعةِ الطويلة، وكادَ أن يقلعَ أظافرَهُ من أساسها، وسالَ منه الدم، وهو يتألَّمُ بشدَّةٍ ويتأوَّه، وأخِذَ إلى الطبيب، ولا تدري ماذا كانت حالهُ من بعد. . . .

* وحادثٌ آخرُ مؤلمٌ حصلَ لزوجةِ عاملِ البئرِ الارتوازي، فقد ذهبتْ لتشغلَهُ بدلَ زوجِها، فتعلَّقتْ ضفيرتُها بالعمودِ الحديديِّ الطويلِ الذي يدور، فصارَ جسمُها كلُّهُ يدورُ معه، حتَّى انتُشِلتْ فروةُ رأسِها الأعلى كلُّه، وأُسعفتْ ربَّما إلى حلب، فقيلَ لها إنها لو جلبتْ معها فروةَ رأسِها لأعيدتْ إلى مكانها بعد خياطتها مع ما تبقَّى من جلدِ رأسِها. ولعلها كانت قد رمته.

وزوجها الذي كان يسمَّى«عيسى موتور» ذُكرَ أنهُ تفجَّرتْ معدتهُ من كثرةِ شربِ الخمر. والله أعلم.

وكان له أخٌ عجبٌ في أمره! شبهُ مجنون، أو مبتلًى بمرضٍ عصبيّ، يجلسُ في حديقةِ البئرِ الارتوازيّ، أو على الرصيفِ عند بيتِ أخيه، ويحرِّكُ رأسَهُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ وكأنها حركاتٌ رياضيَّةٌ مقصودةٌ قويَّة، في نهارهِ كلِّه! ما عدا لحظاتٍ يستريحُ فيها واضعًا رأسَهُ الصغيرَ بين يديه، وما كان يقدرُ على السكونِ كثيرًا، فإذا سكنَ صاحَ وتلفَّظَ بكلماتٍ كفريَّةٍ عجيبة! ولذلك صارتْ رقبتهُ طويلةً وعروقها غليظة.

* وحضرتْ منصِّرةٌ إلى كنيسةِ السريان، وقامَ النصارى بعملِ دعايةٍ كبيرةٍ لها، حتَّى قالوا إنها تشفي الأكمهَ والمشلول، وأنْ لا مرضَ إلَّا ويُشفى منه على يدها.. وقد عملتَ إعلامًا مضادًّا لهذا، ونبَّهتَ المسلمينَ إلى أنه كذبٌ ودجل، وأن لا يجوزُ للمسلمِ الاعتقادُ بذلك والاستشفاءُ عندها، فإنَّه كفر؛ لقولهِ ﷺ في الحديثِ الصحيح: «**من أتى عرّافًا أو كاهنًا فصدّقَهُ بما يقولُ فقد كفرَ بما أُنزلَ على محمد**». لكن الإعلامَ المضلِّلَ كان أقوى، فقد صدرتْ دعاياتٌ تقولُ إن فلانًا وفلانًا شفيا تمامًا، وطلبتَ التأكدَ من ذلك بسرعة، فتبيَّن أنْ لا أساسَ له من الصحَّة، لكن الدعايةَ تُعمي الجاهل، والحاجةَ تُصمُّ الملهوف.

وذهبتْ خرساءُ إليها ـ وما كانتْ تُخرجُ سوى أصوات ـ فقالوا إنها شُفيت، ولمَّا كُذِّبوا قالوا: إنها صارتْ تنطقُ حروفًا ـ وكان هو الآخرُ كذبًا ـ، ثم قالوا: إن فلانًا شُفي. وكانتْ بعضُ الحالاتِ شفاؤها مؤقتًا، حيث كانتِ المرأةُ تستعملُ عجينًا وزيتَ زيتونٍ وما إليه، فيشعرُ المريضُ بشيءٍ من الراحةِ والانتعاش، فتخرجُ الدعايةُ مباشرةً، لكن الحالةَ تعودُ إلى ما كانتْ عليه بعد دقائقَ أو ساعات.

وكان واحدٌ ممن ذهبَ إليها لا يُصدَّقُ أمره، مثقفٌ وابنُ عالِمٍ ومحافظٌ على صلاةِ الجماعة!! ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله.

وفي هذا يُنظرُ إلى الجهلِ بالدينِ وأنه قد يؤدي إلى الكفر، وأنْ يُحسَبَ حسابُ الدعاية، وأنَّ لها تأثيرًا ولو كانت كاذبةً وباطلة، فالمسلمُ يُحصَّنُ ويوقَفُ على مثلِ هذه الأمورِ قبل أن يُفاجأ بها، ولا يكفي العلمُ بها، بل لا بدَّ من التربيةِ وبيانِ المخاطرِ والآثارِ السلبيةِ وما إليها، فهذا هو معنى التحصين.

* ومن الصورِ الاجتماعيةِ التي لا تُنسى في البلد، رجلٌ أرمنيٌّ اسمهُ «سعيد غازار»، ويلفظهُ الناسُ «سيد غزال». كان صاحبَ أشهرِ محلٍّ لبيعِ الأقمشة، فيقصدونهُ حتَّى من القرى، وخاصةً النساء، وينتظرونَ حتَّى يتعصَّبَ ليخفِّضَ لهم الأسعار! وكان عصبيًّا جدًّا، حتَّى درجةِ الجنون! فكان يتكلَّمُ ويرفعُ صوتهُ حتَّى يسمعهُ أصحابُ المحلّاتِ الأخرى. ويُنزلُ أنواعَ الأقمشةِ على الطاولة، ويرمي بها هنا وهناك، فتتكوَّمُ، ويقعُ منها ما يقعُ على الأرض، ويسبُّ ويشتم، ويتحدَّى أن يأتوا له بأفضلَ وأرخصَ مما عنده، ويأتي أولادهُ إليه ليهدِّئوه، فلا يهدأ، ويبقى هكذا ربَّما ساعات. وكان الأطفالُ والجيرانُ يُخبرُ بعضهم بعضًا بذلك في الحارات، فيأتونَ ويتفرَّجون عليه، وهو مايزالُ يتعصَّب. . . .

* وكان في حارةِ النصارى رجلٌ عجوزٌ طوَّال، ذو رقمٍ قياسيٍّ في الطولِ بالبلدة، في نحو المترين، ومقاسُ رجلهِ كبير، ولذلكَ كانَ غالبًا ما يأخذُ نعليهِ بيدهِ ويمشي حافيًا، حفاظًا عليهما، فإنَّ الحصولَ

على نوعيَّةِ نعلهِ ليسَ سهلًا، ولا يوجدُ منها في البلدةِ ولا في المدينةِ القريبة، وربما كانت تأتيهِ من تركيا بالتوصية، على الرغمِ من أنها كانت من البلاستيكِ الأسودِ المطَّاطِ الرخيص، ومبطَّنَةً ببطانةٍ حمراءَ خفيفة؛ ولذلكَ كان يُقالُ له «مرادي بي خُواس» أي مراد ذو الرِّجْلِ الحافي. وإذا مشى زحفَ برجليهِ على الأرضِ فاهتزَّ جسمهُ وارتجَّ. وكان الأطفالُ يعجبونَ منه، فيصيحونَ به بلقبهِ وهو لا يلتفتُ إليهم. وكان صبورًا على العيش، لا يؤذي أحدًا ولا يتدخَّلُ في شؤونهم، أجشَّ الصوت، ثقيلَ الكلام، كأنهُ يقطِّعه، وله صداقةٌ مع الوالد.

وكان له ابنٌ يسمَّى «شمعون» أمضى طفولتهُ وشبابَهُ وكهولتهُ كلَّها في رعي أغنامهم، وكانت نحو خمسينَ شاةً ومعزًا، مع أبقار، ولذلك كانت ثقافتهُ «بهيميةً» شبهَ معدومة، لا يعرفُ سوى أخبارَ الرعي وبعضِ شؤونِ الحارة، إذ إنه لا يبقى في البيتِ إلَّا ليلًا، وإذا جاءَ الليلُ نام، وسائرُ أوقاتهِ في الفلاة.

وكانت لمرادٍ بنتٌ بكر، كادت أن تصلَ إلى سنِّ الأربعينَ ولم تتزوَّج، على الرغمِ مما كانت تتمتعُ به من وجهٍ مقبولٍ وقامةٍ طويلة، وقد أمضتْ عمرَها كذلك في شؤون البيتِ والشياه.

* وامرأةٌ شبح! كانت تسكنُ أولَ بيتٍ في حارةِ النصارى من جهةِ الشرق، طويلةٌ ضعيفة، قد سقطَ معظمُ أسنانها، ماتَ زوجها وتركَ لها ولدًا وبنتًا، ولم يكنْ عندها أحدٌ من أهلها أو من أهلِ زوجها، فعاشتْ في فقرٍ مدقع، تحكي قصَّتها لكلِّ من يمرُّ بها، وتزورُ قبرَ زوجها كلَّ يومِ أحد، وتُلقي على كتفها ملاءةً سوداء، وبيتها

كالمهجور لا يُرى فيه شيءٌ من أثاثٍ أو طعام، فاضطرَّ ولدها (كبرو) أن يتركَ المدرسة الابتدائية، ويذهبَ للعملِ في بلدٍ أو مدينةٍ ما، فكانت الأمُّ تضحكُ ويتهلَّلُ وجهها بعد ذلك، وتقول: إنَّ (كبرو) سوفَ يُحضرُ لها ما يلزم، ويخلِّصها من الفقرِ. والذي تذكرُ أن الوالدُ كان يتألَّمُ لحالها، ويساعدها، ويرسلُ لها اللبن، ويحثُّ النصارَى على مساعدتها. ثم حضرَ ولدها مرةً وأخذَها وابنتها إلى حيث يعمل، وأنتَ مازلتَ تلميذًا تدرسُ في المرحلةِ الابتدائية.

* ولا تنسَى صورةَ دلّالِ البلدة، الذي عُرفَ بـ(صبري دلّال)، وكان بيتهُ في السوقِ أيضًا، فعندما يخطو أولَ خطوةٍ إلى خارجِ منزلهِ يكونُ قد وصلَ إلى السوق، ولا يكادُ يُرَى إلَّا فيها، وهو إما أن تكونَ السيجارةُ بين يديهِ يلفُّها، أو بين شفتيهِ المنهكتينِ في آخرِ الزاويةِ اليسرَى منهما، وهي إما أن تتدلَّى إذا سكت، أو ترقصُ على موسيقى حروفهِ إذا تكلَّم. وهو لا يفتأ يردِّدُ (قامشلو... قامشلو). وعلى عكسِ ما تتطلَّبُ مهنته، فإنَّ صوتَهُ كان ضعيفًا، لا يُسمِعُ إلَّا نفسه، أو أقربَ شخصٍ إليه. وكان ذلك النداء هجِّيراه، يحدو به في السوقِ جيئةً وذهابًا! وكان طيِّبَ المعاملة، هادئًا، يُرضي السائقَ والراكب. ثم إنه عجز، فنابَ عنه ابنه، صديقكم في الدراسةِ (يوسف صبري).

* ومجنونٌ كان يُسمَّى «هنانو» يذرَعُ الشوارعَ والفيافيَ والقفارَ ذهابًا وإيابًا، ويمرُّ بالبلدةِ كلَّ أسبوعين، فيتبعهُ كثيرونَ بين صغيرٍ وكبير، لا يؤذونَهُ ولا يؤذيهم، وهوايتهُ المفضَّلةُ قطعُ الأوراقِ وتفتيتُها أينما وُجدت، حتَّى لو كانتْ نقودًا. وكان على هيئةِ كمالِ الأجسامِ وصورةِ الأبطال، ضخمَ الكتفين، واسعَ الصدر، قويَّ العضلات،

كثَّ الشعر... والذي تذكرهُ أنه كان أولًا خادمًا عند آل حاجو... ثم لم يُعرفْ له خبر.

* وحدثَ عرسٌ لأحدِ النصارى في الشارعِ الذي تسكنونَ فيه، فحضرَ من بين المدعوِّينَ شابٌّ مسلمٌ من ناحيةِ (ديريك)، أسمرُ جميل، اسمهُ (نواف)، ورأى وهو يرقصُ في الحفلِ فتاةً من البلدة، فأحبَّها، من أولِ نظرةٍ كما يُقال، وكانت سمينة، لا يوجدُ أسمنُ منها في البلدة. فطلبَ يدها، فقيلَ له إن والدَها مجنون، فقال: وهل أتزوَّجُ والدَها أم أتزوَّجها؟ وكانت تلكَ لغةَ الحبّ، وجوابَ المحبّ! وبقيتْ عندهُ سنواتٍ ولم ينجبا، فطلبَ أخٌ له أختًا لها جميلة، فأبَوا، فحضرَ إليهم وقال: إن الله لم يرزقني من أختها ذرية، فأرجو أن تقدِّروا الموقفَ ولا ترفضوا. فوافقوا.

وكان والدها ينتابهُ الجنونُ بين فترةٍ وأخرى، ويطولُ معهُ سنوات، وتصدرُ عنه كلماتٌ منمَّقةٌ عجيبة. وأكثرُ حديثهِ وتعاملهِ يكونُ مع الأولاد، ويتركُ بيتَهُ شهورًا، وينامُ في بستانٍ له عند الجامع، وقد حفرَ فيه حفرةً عميقةً على هيئةِ بيت. ثم إنه كان يعالَجُ بالحبوبِ فيسكن.

* وقد صدرَ من البلدةِ مَثلٌ انتشرَ في مناطقَ أخرى وما كان ذلك محسوبًا! فيُقال: «نعمةُ عبد الكريم عَمُو». وكان رجلًا فقيرًا، كبيرًا في السنّ، رأيتَهُ عندما كنتَ طفلًا أو فتى، بيتهُ قريبٌ من النهر، ويلبسُ كوفيَّةً على رأسه؛ فكان يأتي إلى السوقِ ويشتري باقةَ بقدونس، ويعودُ بها وحدَها إلى البيت، وهو يمدُّ بها يدَهُ على أنه أيضًا اشترى شيئًا له شأن!

فصارَ هذا المثلُ يُضرَبُ في الشيءِ التافهِ، لكنهُ عند صاحبهِ أو المحتاجِ إليهِ كبيرٌ جزيل!

* ولم يكنْ في البلدةِ متسوِّلون ـ ظاهرًا ـ على الرغمِ من الفقرِ الذي كان يلفُّ معظمَ أهلها، سوى رجلٍ عجوزٍ مع زوجته، وكان له ابنٌ وحيدٌ شابّ، يعمل، ولكنَّهُ سيِّئُ السمعة، لا يُعطيهِ شيئًا، ولا يجدُ هذا الرجلُ ما يأكله، ولا يقدرُ على العمل، وجسمهُ ضعيفٌ كالعود، أبرزُ شيءٍ فيهِ عظمتا وجنتيهِ البارزتان، وعيناهُ السادرتان، وفمهُ المفتوحُ دائمًا!، فيضطرُّ للذهابِ إلى إمامِ المسجد، ويطلبُ منهُ ذكرَ حالهِ للمصلِّين، عسى أن يساعدوه، وقد فعلَ الإمامُ ذلك أكثرَ من مرَّة، وما كان يحصِّلُ شيئًا يُذكر!

* ومن ملاحظاتِكَ في البلدةِ شدَّةُ تألُّمِكَ لبعضِ من توفيَ من رجالِ القرية، حيثُ تركوا وراءهم أراملَ وأطفالًا فقراءَ لا مُعيلَ لهم، ثم تجدُ حالَ الأُسَرِ هذهِ أفضلَ مما كانت عليهِ من قبل! ثمَّ علمتَ أنَّ هذا ليسَ في بلدتكَ وحدَها. وهو درسٌ كبيرٌ في قسمةِ الأرزاق.

* * *

أحوالٌ اجتماعية ودينية

وكانت البلدةُ متباينةً في شؤونها، وبها فِتن، ولم يكنِ التعاونُ بين أهلها ظاهرًا، ولا الدينُ قائمًا.

وكان الجامعُ الوحيدُ في البلدةِ لا يمتلئُ يومَ الجمعةِ بالمصلينَ إلَّا في شهرِ رمضان، وأحيانًا لا يفي بالعددِ المطلوبِ لإقامةِ صلاةِ الجمعة، فيعدُّهم الإمامُ وينتظرُ حتَّى يبلغوا الأربعين...!!

والإنفاقُ على الجامعِ شبهُ معدوم، إلَّا ما يُجمعُ يومَ الجمعةِ من ليراتٍ قليلة. ومنظرُ فَرْشهِ يدعو إلى الحسرةِ والألم!

وكان في آخرِ البلدةِ من الشمال، لا يوجدُ بعدها عمارٌ (حتى نحو سنة ١٣٩٥هـ). وقد بُنيَ من الحجارةِ السودِ القوية، وإمامها الملَّا أحمدُ بن حمزة القرطميني.

وقد صلَّيتَ فيه عمرًا، وكان مهوى فؤادك، ومنطلقَ دعوتك، ومجلسَ إخوانكَ وأحبابك... خطبتَ فيه، وألقيتَ دروسًا، وعلَّمتَ الأولادَ قراءةَ كتابِ الله وتجويده، وزوَّدتهُ بمكتبةٍ صغيرة... والفضلُ لله، والقبولُ منه وحده.

وكان في الجامعِ آلاتُ وزن، ربَّما على هيئة صحونٍ وموازينَ

توزنُ بها الحنطة، لا تذكرُ كيفيةَ استعمالها وسببهُ بالضبط، إذ نادرًا ما كانت تُستعمل، وقد لا يعرفُ استعمالها سوى الإمام، وربما كانت صيعانًا للكفّارات، أو لأمورٍ تتعلقُ بالمتوفَّى مقابلَ فروضٍ فاتته...؟

وكانت صلاةُ التراويحِ فيه تؤدَّى عشرينَ ركعة، لكنها تُنجَزُ بسرعةٍ فائقة، وما كانت تنتهي حتَّى كان المصلونَ يشعرونَ أن ما أثقلوا به معدتهم من الطعامِ قد زال.

وحتى لا ينسى المأمومونَ عددَ الركعات، كان هناك مساعدٌ للإمامِ يقولُ بعد عدَّةِ ركعات: «اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ أجمعين، ورضيَ الله عن سيِّدنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ الله عنه». وفي التاليةِ يترضَّى عن عمرَ بن الخطّاب، وهكذا حتَّى يُكملَ الخلفاءَ الراشدينَ الأربعة، رضيَ الله عنهم أجمعين.

وما كان المأمومونَ يقدرونَ على قراءةِ سورةِ الفاتحة، إلَّا إذا أدَّوها بسرعةٍ فائقة، وذلك أن الإمامَ كان يقرأ بعدها آيةً واحدة، أو سورةً قصيرةً بسرعة. وقلتَ مرَّةً للملَّا أحمد: إنكَ تقرأ بسرعة، ونحن لا نلحقُ أن نقرأ الفاتحة، فهل نقرؤها أم لا؟ فقال: إذا قدرتم على قراءتها فلا تقصِّروا!

وكان الشيخُ علوانُ رحمَهُ الله يقرأ بعد الفاتحةِ قولهُ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وحدها!

وذكرَ طالبٌ مهاجر، أنَّ البلدةَ تتميزُ بأمرينِ جميلين، تذكرُ منهما قولهُ: «صوتُ الملَّا»، وكانَ صافيًا جميلًا كما قال، لكنهُ كانَ عاديًّا في الأذانِ في أكثرِ الأحوال، وعندما يُسألُ الملَّا عن ذلكَ يقولُ:

اعملوا ليَ الموالدَ وكثِّروا اللحمَ فسترونَ كيفَ يكونُ الصوت. ثمَّ يضحكُ ويضحكُ مَن حوله!

لكنه كان دائمَ الشكوى من أهلِ القحطانية، وأنهم لا يعطونَهُ حقَّه، حيثُ إن ذلك الجامعَ الوحيدَ لم يكنْ مسجَّلًا في الأوقاف، فلم يكنْ له راتب، فيقولُ لهم: أنا أؤذِّنُ لكم، وأؤمُّكم في الصلواتِ والجُمعِ والأعياد، وأعقدُ الأنكحة، وأنظِّفُ المسجد، وأغسلُ الموتى... ولا تعطوني في السَّنةِ كذا. ثم إن الله سبحانه كان يرزقهُ بما لا يتوقَّع، ويسردُ في ذلك قصصًا عجيبةً نادرة!

وكان ذا روحٍ مرحة، ويضحكُ مع النكاتِ التي يلقيها حتَّى الآخِر! ومع ذلك كان المأمومونَ يتَّقونَ غضبه، فإذا غضبَ تعصَّبَ وهدَر! وكان قويًّا، صرع أكثرَ من شخص، ولكنهم كانوا ـ مع الأسفِ ـ من جماعةِ المسجد، وأكبرَ منه! وكان ذا خشيةٍ وتقوى أيضًا، وخاصةً في مسائلِ النظافةِ والطهارة، وقد لا تُبالغُ إذا قلتَ إنه كان أنظفَ شخصٍ في البلدة.

ومن تقواهُ وخوفهِ من الله عزَّ وجلّ، أنه إذا عرف أن هناك عقدَ قرانٍ في طرفهِ شيوعي، ولا أحدَ في البلدةِ يعقدُ سواه، اختفَى عن الأنظارِ أيامًا، وربما تتبَّعوا أخبارَهُ وبحثوا عنه في القرى، حتَّى إذا وصلتهُ الأخبارُ أن الحفلَ انتهى، عادَ إلى البلدة.

ومن تقواهُ ابتعادهُ عن الفتوى، والإجابةُ بقدرِ ما يعرف، وبدونِ تفصيل، حتَّى لا يدخلَ في فروعٍ لا يعرفها.

وله ذكرياتٌ جميلةٌ جدًّا، لو دوَّنتْ لرأيتَ فيها عِبرًا.

وكنتَ تقدِّرهُ ولا تناديهِ إلَّا بلقب «سَيْدا» وهو لقبُ تعظيمٍ للعلماء.

ولا تنسى أن معلمًا في قريةِ «كُنْدِكِي سيِّد» القريبة (وكان هو من قطنا)، طلبَ من بعضِ المدرِّسينَ زيارته، من بينهم الملَّا أحمد، وكان قد أحضرَ بندقيَّةَ صيدٍ لتخرجوا إلى البرّ، فدخلتم الغرفة، فما شعرَ أحدٌ منكم بوجودها إلَّا هو، فلما دخلَ نظرَ في كلِّ مكانٍ من الغرفة، فرآها وتناولها، فاستفسرتَ منه عن سببِ رؤيتهِ لها دون الآخرين، فذكرَ أنها من تربيةِ تركيا، أو قريبًا من هذا القول، فالحذرُ مطلوبٌ في كلِّ لحظة، وأن صاحبَ البيتِ قد يكونُ بيَّتَ شرًّا!

وفي القريةِ نفسها دعاكَ معلِّمها (أحمد) لزيارته، وكان صديقَ الدراسة، وبعد جلسةِ استراحةٍ قصيرةٍ ومعاتبتهِ على تطويلِ شعره، لاحظتَ شكلَ حجابٍ على صورةٍ بالجدار، ولم تعرفْ معناه، فقلتَ له: ما هذا القماشُ المستطيلُ المعلَّقُ هناك؟ فضحكَ وقال: هذا صورةُ فتاةٍ وضعتُ عليها حجابًا احترامًا لك! وكان صاحبَ نكتة. وهو نفسهُ الذي اشتكى معكَ على (قلمِ الناحيةِ) فيما يأتي من قصَّةِ «طاسةِ اللبن».

وكان اللباسُ المنتشرُ في ذلك الوقتِ للرجالِ هو القميصُ والبنطال، ولا يلبسُ الثوبَ إلَّا الكبارُ في السنّ، والكثيرُ من لباسِ الشبابِ والمتعلمينَ هو (الإسبانيولي)، فيكونُ ما حولَ العجزِ ضيِّقًا، وما على القدمِ واسعًا. وغالبُ هؤلاءِ يتميَّزونَ بالزوالفِ الطويلة، حتَّى ما تحت شحمةِ الأذن.

وكان يسكنُ تلك القريةَ الصغيرةَ ساحرٌ، اسمه «ملا يوسف» وكان فقيهًا فقيرًا، فانتكسَ واشتغلَ بالسحرِ عياذًا بالله، جلستَ إليه

مرارًا، وكان يتحدَّثُ عن مغامراتهِ السحريةِ بشكلٍ عجيب، منها انتقالهُ من جوٍّ باردٍ كالزمهرير، إلى ما هو حارٌّ قائظ.

ولعلَّ الخصلةَ الجميلةَ الثانيةَ في البلدةِ هي «ماؤها» فقد كان عذبًا سلسبيلًا.

وكانَ ذلكَ الطالبُ الفقيرُ ـ صاحبُ القولِ عن القحطانية ـ من «تل شعير» كبيرًا في سنِّ الرجال، لهُ مشكلاتٌ أسريةٌ معقَّدةٌ معَ إخوانه، فأحضرَهُ جارٌ لكم إلى بيتهِ وأسكنَهُ معَ أسرتهِ مشجِّعًا إياهُ على الدراسةِ ليأخذَ شهادةً ويتخلصَ من تلكَ الأحوال. وكانَ يتردَّدُ على قريته، فيحدثُ شجارٌ عنيفٌ بينهم هناك، وضربَ بطنَهُ مرةً بخنجرٍ كانَ معهُ فأُسعِف، ولم تعرفْ خبرهُ من بعد، لكنهُ لم يكملْ تعليمَهُ الثانويَّ في البلدة.

أمّا ذلكَ الجارُ فكانَ من الشبابِ الذينَ درسوا في القرى قديمًا، ولعلهُ حصلَ على الشهادةِ الابتدائية، فكانَ دائمَ الحديثِ في السياسة، وأحوالِ الأكرادِ خاصَّة، حتَّى كانَ له شأنٌ ما بعدُ، ولم تكنْ له فضيلةٌ في الدِّين، ولم يهنأ في حياتهِ كلِّها، على أنه كان صاحبَ خدماتٍ اجتماعيَّة. وقد مرضَ الوالدُ مرَّة، فصحبَهُ إلى مستشفى القامشلي، وكان مرضًا عويصًا يحتاجُ إلى عنايةٍ خاصَّة، فكان هو الذي ينتدبُ إلى ذلك قبلكم، ويقومُ بخدمته، ولم تنسَها له، مما منَّ الله به عليكَ بعد.

وأثناءَ وجودكم بالمستشفى وبعد منتصفِ الليل، زادَ مرضُ الوالدِ حتَّى خشيتم عليه الموت، وهُرِعتم إلى الطبيب، ولكن لا طبيبَ ولا مساعدَ للطبيب، في المستشفى كلِّه، وكان هو الوحيدَ في المدينة،

فجاءتِ الممرِّضةُ المسكينةُ وهي لا تدري ماذا تفعل، وهدَّدتها بأن الوالدَ إذا أصابَهُ مكروهٌ فستكونُ هناك شكاةٌ في إجراءاتٍ قانونيةٍ مسؤولة، فخافت، وانتهى الأمرُ بخيرٍ والحمدُ لله. ويظنُّ أن الطبيبَ المناوبَ كان في سهرة، أو أنه مضى إلى البيتِ في أحسنِ الظنون.

ويومُ المولدِ النبويِّ الشريفِ كان مشهودًا آنذاك، وكان في السابقِ يقتصرُ على حضورِ شخصيَّاتِ البلدةِ إلى الجامعِ في يومِ الجمعةِ ويخطبُ فيهم الإمام، وتكثرُ الولائمُ، ومنَّ اللهُ عليك أن تستفيدَ من أساليبِ الدعاةِ في المدنِ الأخرى لهذه المناسبة، فكان الاحتفالُ يمتدُّ أيامًا، ويجتمعُ أصنافٌ من الناسِ في الجامع، وتوزَّعُ الهدايا والحلويات، وتذاعُ الأناشيدُ الإسلاميَّةُ الجميلةُ فتُسمعُ حتَّى في الطريقِ العامِّ الذي يشقُّ وسطَ البلدة، وكان الأساتذةُ والطلابُ والإمامُ يشاركونَ في إلقاءِ الكلمات، فتسجَّلُ وتوزَّع أشرطتها، فكانت مناسبةً كبيرةً للدعوةِ والتذكير، وأن يأتيَ إلى المسجدِ من ليس له عهدٌ به!

وكانت هناكَ دروسٌ وحلقاتٌ لتحفيظِ القرآنِ الكريمِ للأطفالِ والناشئة، ومكتبةٌ صغيرة، ذُكر لكَ أنها ما زالتْ موجودةً، ويُقرأُ فيها ويُستعارُ منها! والحمدُ للهِ وحده.

ومما يؤسفُ له أسفًا ممضًّا أنه لم يكنْ في البلدةِ مقبرةٌ للمسلمين، وهم الكثرةُ الكاثرة، بل كانوا يدفنونَ موتاهم في القرى المجاورة! وإمامُ الجامعِ وغيرهُ يطالبونَ بها فلا يُلبَّى طلبُهم، وكانتِ السيطرةُ فيها للنصارى مع قلَّتهم، ورئيسُ البلديَّةِ منهم، وكذا المختار (العُمدة)، والقياداتُ الحزبيَّة، ويساندُ بعضُهم بعضًا، والمسلمونَ

ليسوا كذلك. وللنصارى مقبرةٌ جميلةٌ في أحسنِ موقع! وكان ذلك حالَ المسلمينَ فيها حتَّى خرجتَ منها.

* كما ابتُليتِ البلدةُ بسينما جاءتْ مفاجئةً لأهلها كلِّهم، اشتراها ثريٌّ وصارَ يرغِّبُ الناسَ في ارتيادها، وهم فقراءُ لا يملكونَ سوى أقواتهم، وسألكَ الشباب عن حكمِ ارتيادها فمنعتهم، وبيَّنتَ مفاسدَها وأضرارَها وتأثيرها ونتائجها على الفردِ والمجتمع، وخاصَّةً أن صاحبَها على غيرِ ملَّةِ الإسلام، فلم يكنْ مباليًا بالحرام، وكادتْ أن تتوقفَ تمامًا، فصارَ يطعِّمها صاحبُها ببعضِ المسرحياتِ الفكاهيةِ وما إليها دون فائدةٍ تُذكر، ثم سلكَ مسلكَ الحيلة، فجاءَ بفيلم «عمار بن ياسر»، وسألكَ الشبابُ عندئذٍ عن مشاهدةِ الفيلمِ فمنعتهمْ أيضًا، وذكرتَ أنه شَرَكٌ للشبابِ ومصيدةٌ لهم بعد أن فشلتْ جميعُ أساليبِ صاحبها.

وكان ما قلت، فقدْ جعلَ مقاطعَ من ذلكَ الفيلمِ الإسلاميِّ في أولِ أفلامٍ قبيحةٍ أخرى. . . .

ثم خطبتَ في المسجدِ حول هذا الموضوع، وبيَّنتَ أن البلدةَ بحاجةٍ إلى ثقافةٍ أصيلةٍ نافعة، وليسَ إلى إفسادِ البيتِ والمجتمعِ المحافظ. . وكانتْ صيحةً لاقتْ قبولًا إلى وقتٍ ما.

* * *

أصول وأجناس ومظاهر

وكان أهلُ البلدةِ أجناسًا شتَّى، فمعظمهم أكراد.

ثم عشراتٌ من الأسرِ النصرانيَّة، وكانت تتكلَّمُ الكرديَّةَ أيضًا.

وبيتٌ عربيٌّ جاءَ من الموصل، اختلطَ أهلهُ بالأكرادِ وصاروا كأنهم منهم، وسمعتَهم يتكلمونَ الكرديَّة، ويُعرَفون بآل دريعي.

وما ذكرتَ من الأسرِ المحلَّميَّةِ والقرطمينيَّة.

وأنتم من أصلٍ روميّ (من المسلمين)، ولعلَّ أصلَ نصارى البلدةِ كذلك.

وأسرٌ من الأرمن.

وأسرةٌ من بقايا التتارِ يُقالُ لها بيت «شيف تتر» وهم الحاج «محمد صدِّيق» وأخوه. وكان بيتُ الأولِ عند الجامع، ما عرفتَ منه إلَّا الخير، صاحبُ دينٍ وأدب، وتواضعٍ ورزانة، وحديثٍ هادئٍ ليِّن، أصفرُ كوسَج، يحبُّكَ كثيرًا، وقد حجَّ وأصيبَ هناك. وكان عنده ولدٌ وحيدٌ لم تعرفْهُ زائرًا والديه، والذي تذكرهُ أنه كان شابًّا جميلًا غيرَ قادرٍ على المشي، فكان يركبُ الدراجة، ذُكرَ أنه أصيبَ في رجلهِ لإبرةٍ طبيةٍ أخطأ الممرِّضُ في تصويبها. رحمَ الله والده.

وأخوهُ كان قريبًا من بيتكم، لا تذكرُ صورتَه، ولعله كان يعاني مرضًا مزمنًا، بل تذكرُ ولدَيه، كان أحدهما يبيعُ الكاز، اسمهُ «عَزُو» يُظَنُّ أنه تحريفٌ من «عبد العزيز».

وكثيرًا ما تُحرَّفُ الأسماءُ في المجتمعِ الكردي. وكانتْ كلُّها إسلاميَّةً جميلةً في لفظها العربي، ولا تجدُ بينها ما هو بلفظٍ كرديٍّ إلَّا ما ندر، بعكسِ ما هو عليه الآن.

وذُكِرَ أن «عَزو» اشترى حافلةً صغيرةً للركاب، وحاولَ جاهدًا أن يتعلَّمَ القيادةَ فلم يفلح، فاستأجرَ سائقًا لحافلته، وصارَ هو معاونًا له!

وفي فناءِ دارهم شجرةُ توتٍ ضخمةٌ جدًّا، كنتَ مع الأطفالِ تتطعَّمُ ثمرتها في غفلةٍ منهم. ولا تذكرُ إن كانتْ لهم لغتهم الخاصَّة، لكنهم كانوا يتكلمونَ كغالبِ أهلِ البلدة.

وبيتُ «آماد» لا تعرفُ أصلهم، كان يلبسُ سروالًا طويلًا فضفاضًا، وزوجتهُ تسمَّى «آنو»، ونسبتهم «مرجان»، وكانوا شديدي السمرة، غليظي الشفاه، إلَّا بعضهم، جاؤوا بعد حادثِ الفيضان، ويظنُّ أن كبارهم كانوا يتكلمون لغةً خاصَّة، وابنه «عثمان» (أوصْمان) كان آذنَ المدرسةِ عقودًا من الزمن، وهو الذي كان يقرأ نتائجَ الطلابِ في شهادتي الإعدادية والثانوية، ويأخذُ على كلِّ اسمٍ مبلغًا، يتقاسمهُ مع آخرين، ومن لم يدفعْ لا يعطيهِ النتيجة. وكان حسنَ الأخلاق، أنيسًا، متواضعًا، عصاميًّا، لا يقبلُ كلامًا على عمله، وله أخٌ أصغرُ منه عصبيُّ المزاج، كأنه غيرُ مكتملٍ عقليًّا، دأبهُ أن يلعبَ بالكلَّةِ مع الشباب، وهو يكبرهم جميعًا!

وكانتِ اليزيديَّةُ في القرى المجاورةِ، ولم يكنْ في البلدةِ سوى بيتٍ واحدٍ منهم قريبٍ من بيتكم، جاء إلى البلدةِ من قريةٍ مجاورةٍ وأنتَ طفلٌ صغير، وهو الراعي «كاسين كيجو»، لم ينجبْ سوى ابنٍ وحيدٍ سمَّاهُ «عمر»، والأكرادُ يلفظونَ هذا الاسمَ بفتحِ حركاتِ حروفهِ الثلاثة!

وحتى الأكرادُ الذين في البلدةِ جاؤوا من أماكنَ متفرِّقة، فما كنتَ ترى بينهم تجمُّعًا قبليًّا كبيرًا، سوى «آل حاجو» (بيتِ الآغا)، وعشيرتهم «هَفِيرْكِي»، ثم ناسٌ من عشيرةِ «دِلْ مَمِكِي»، فـ«جُوْمَرِي». وذكرَ الوالدُ أن أغلبَهم كانوا أصحابَ ثاراتٍ ومشكلاتٍ ودماء، قصدوا آل حاجو ليحموهم، ثم كانوا من أصحابهم. يعني هذا في عهدِ الاحتلالِ الفرنسي والإقطاع. وكان في البلدةِ رجالٌ من الدرَك (الشرطة)، أكراد، خدموا في الجيشِ الفرنسي، حصَّلوا رواتبهم التقاعديَّةَ من فرنسا حتَّى وفاتهم!

وتذكرُ وأنتَ طالبٌ أن متجوِّلًا، أو رحالةً شابًّا أتى إلى البلدةِ يتجوَّلُ فيها وحواليها، ويدوِّنُ ذلك في دفترٍ أو دفاترَ له، وبقيَ نحو أسبوعٍ أو أسبوعينِ ومضى، وكانَ كرديًّا، مقطوعةً إحدى رجليهِ من الركبة.

وتاريخُ البلدةِ مرتبط بآلِ حاجو أشدَّ الارتباط، فكانوا هم أصحابها، وكلُّ أحفادهِ مثقفون، فليتهم اهتموا بتاريخِ البلدةِ ودوَّنوا أحداثها وأوائلها، وأخبارهم منتشرةٌ بين الكبار. ولم تعاشرْ أحدًا منهم، وكنتَ زاهدًا في معرفةِ أخبارهم. لكنْ تعرفُ اثنينِ منهم كانا

متديِّنين، يأتيانِ إلى صلاةِ الجماعةِ أكثرَ الأحيان، مع بعدهما عن الجامع، وهما: محمد شريف ـ رحمَهُ الله ـ وكان سمينًا، جاحظَ العينين، ومع ذلك يحملُ نفسَهُ ويمشي من قصرهِ البعيدِ إلى الجامع، وقد أرَّختَ لوفاتهِ في أوراقٍ قديمةٍ عندك، فقد توفي يومَ الجمعة ١٢ رجب عام ١٣٩٣هـ، الموافق ١٠ آب ١٩٧٣م. وهو والدُ نزار، الذي كان هو الآخرُ يحضرُ الجمعةَ ويصلي، وكان يقولُ له أهلهُ وأقرباؤهُ (دكتور)، وظنُّكَ أنه كان حاصلًا على شهادةِ دبلوم فقط، وربما كانوا يقولونَ له ذلك لعدمِ وجودِ من يحملُ شهادةً أعلى منه في البلدةِ آنذاك.

والآخرُ هو سليم بن يوسف حاجو، والدُ نعيم، أو «محمد نعيم»؛ ذهبَ إلى أوروبا متأخِّرًا للحاجة، كان إذا مرَّتْ حافلاتُ الحجَّاجِ الأتراكِ من البلدةِ وتوقَّفتْ في محطَّةِ الوقود، يذهبُ ويقبِّلُ أياديهم! وكان مناضلًا قوميًّا وقياديًّا كبيرًا، ومع تدينهِ كان يقول (آنذاك): إني أعرفُ أن الإسلامَ لا يعطي الأكرادَ حقَّهم! سبحانَ الله! يعطي حقوقَ كلِّ القومياتِ إلَّا الأكراد!! وكثيرٌ من الأكرادِ يقولونَ ذلك بتوجيهٍ معادٍ للإسلام، ومن المؤكدِ أنهم غيرُ مطَّلعينَ على النظامِ السياسيِّ فيه أصلًا حتَّى يوازنوا بينه وبين الأنظمةِ الأخرى، ومن جهلَ شيئًا حكمَ فيه خطأ.

وكان كبيرهم «جميل حاجو» الذي ترجمتَ له في «تتمة الأعلام»، أصدرَ أو أشرفَ على إصدارِ دوريَّةٍ من الحجم الصغير (١٦ سم) عنوانها «السلام» رأيتَ منها عددًا، يعودُ إلى الأربعيناتِ أو الخمسيناتِ الميلادية، وكانتْ ذاتَ نهجٍ اشتراكي!! وفيه أخبارٌ

عن الحربِ العالميَّةِ الثانية، تذكرُ منها نكتةً سياسيَّة، وهي أن تاجرًا اشترى بنصفِ مالهِ لبنًا، وفكرَ فيما يصنعُ بالنصفِ الباقي منه، فاشترى به أيضًا اللبن. وعلقَ بقوله: وهكذا سماسرةُ الحرب، إذا بقيَ عندهم فائضٌ من المالِ اشتروا به أيضًا السلاح... وقد توفيَ جميل في سنةِ ١٤١٠هـ، ودفنَ بقريةِ «دُوكِر».

ولعلَّ أكثرهم ثقافةً وتأثيرًا في المجتمعِ الكردي كان «مجيد بن يوسف حاجو» والدَ زميلكم في الدراسة «نوري» الطبيب، ويقالُ إنه اشتركَ مع آخرينَ في تقعيدِ الكتابةِ الكرديَّةِ واختيارِ الحروفِ اللاتينيةِ لها دون العربيَّة.

ويُذكَرُ أنه لم يبقَ أحدٌ من آلِ حاجو هناك سوى «إبراهيم» والدِ نايف، وهو والدُ «جوان» أيضًا، أصغرِ أولاده، الذي كان يأتي معكم إلى النوروز ومعه كلبٌ كبير، وهو مازالَ فتى، فتمزحون معه وتقولون: «كوجكي جوان» يعني: «كلبُ جوان»، وكما يُفهَمُ منه هذا المعنى، فإنَّه يُفهمُ منه أيضًا بالكرديَّة: «الكلبُ جوان» وهذا ما كنتم تقصدونه، مزاحًا! وقد توفي والدهُ نحو عام ١٤٣٠هـ.

وكانَ قد وصلَ إلى البلدةِ في نحوِ سنةِ ١٣٩٤هـ «أهلُ الغمر» الذينَ أتتْ بهم الحكومةُ ووزَّعتهم في الأراضي التي يسكنها الأكرادُ من الجزيرة، بحجَّةِ غمرِ أراضيهم وقراهم قربَ الرقَّةِ من ماءِ الفراتِ بعدَ بناءِ السدِّ هناك، لكنَّ الهدفَ الأساسيَّ من ذلكَ كانَ لزيادةِ عددِ العربِ في مقابلِ أكثريةِ الأكراد، وكانتْ علاقتُكَ بهم جيدة، حيث تجتمعُ مع شبابهمْ في المسجدِ وفي المدرسةِ وحتى في البيت، وتذهبُ

إلى مواقعهم شرقيَّ البلدة، وكانوا هم أيضًا يبادلونكَ هذه العلاقةَ دون معظمِ الأكراد، والسببُ في ذلكَ أنك تلتقي معهم فيما تحبُّونَهُ وتجتمعونَ عليه وهو الدينُ الإسلاميُّ الحنيف، وتنعدمُ هذه العلاقةُ إذا كانتِ القوميَّةُ هي التي تتكلم.

وتذكر مرةً أنهم دعوكَ لتصليَ معهم وتخطبَ فيهم، حيث أعدُّوا بيتًا للصلاةِ في موقعهم، فلبَّيتَ دعوتهم، وعندما أتممتم الصلاةَ إذا بهم يقومونَ ويستندونَ إلى جدرانِ المصلَّى، وصارَ يسلِّمُ بعضُهم على بعض، وما إلى ذلك من الحركات، وبعد أن انتهوا سألتهم عن مصدرِ هذه المظاهر، فقالوا: هذا من اتفاقنا بين بعضنا البعض؛ فبيَّنتَ لهم أن كلَّ ذلكَ بدعة، وأنكَ لن تزورهمْ ولن تصليَ بهم إلَّا إذا تركوا هذه الأمور، فوعدوكَ بذلك، ووفَوا.

وكانَ الذي يصلي بهم أحدُ طلابك (خالد)، وقد تركَ المدرسة، ثم درسَ شيئًا من العلمِ الشرعي، وصارَ يؤمُّهم، وكانَ لهُ ولدٌ سمَّاهُ باسمك. وقد توفيَ يرحمهُ الله.

وممن تعرَّفتَ عليهم منهم «عيسى العاكوب»، من مواليدِ الرقَّة عام ١٣٧٠هـ، أستاذُ البلاغةِ والنقد، المهتمُّ بالأدبِ الفارسي وآثارِ جلالِ الدينِ الروميِّ خاصَّة، رأيتَهُ عندما كان في زيارةٍ لأهلهِ هناك، ولم يكنْ ساكنًا معهم، بل كان في حلبَ يكملُ دراساتهِ العليا، وقد صدرتْ له عدَّةُ مؤلَّفات، مع بحوثٍ ومقالات، ونالَ جائزةً عاليةً من إيران.

أما المظاهرُ الإسلاميَّةُ البارزةُ في البلدة، فكانَ أشملها وأجملها

هو هذا التمسُّكُ بأصولِ الإسلامِ، يعني أنَّ المسلمَ لا يشركُ بالله ولا يقبلُ غيرَ دينه، ولو كان منحرفًا، يشربُ الخمرَ ويلعبُ بالقمار. . . ، فإنَّه يتمسَّكُ بمبدأ دينهِ، ولا يقبلُ له بديلًا.

وأبدى هذه المظاهرِ وأوضحُها في عيدي الفطرِ والأضحى، والمولدِ النبويِّ الشريف، فإنَّ الأعيادَ مناسَبةٌ للقاءاتِ والزيارات، والسؤالِ عن الأحوال، ومساعدةِ الفقراء، والاجتماعِ على الفرح، واللباسِ الجميلةِ النظيفة. . وما إلى ذلك.

والبكورُ إلى المسجدِ والتكبيراتُ التي تملأ النفوسَ بهجةً في العيدين، يكونُ شيئًا مميَّزًا في السَّنةِ كلِّها.

والمولدُ النبويُّ كذلكَ، فالكلُّ يحبُّ نبيَّهُ محمدًا ﷺ ولا يقبلُ التعرُّضَ له بسوء، ويُصَلَّى عليه إذا ذُكر، صلى الله وسلمَ وباركَ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ وأحبابه.

وهم أصنافٌ ومشارب، فمنهمْ من يتبعُ آلَ الخزنوي في التصوُّف، ومنهم من يتبعُ آلَ حقِّي في ذلك، وكلاهما طريقةٌ نقشبندية، والبلدةُ أقربُ إلى آل حقِّي، لكن نشاطهم فيها كانَ ضعيفًا. وما كان فيها حنبليٌّ أو مالكي، فمعظمهم شافعية، والقليلُ منهم حنفية، وكلُّهم أشاعرةٌ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعة.

ويجتمعُ شملُ الناسُ في التعازي كذلك، يتواسَون، ويجتمعونَ في تشييعِ الجنائز. وكانت العادةُ فيمن مات، أن توضعَ جثَّتهُ في المسجد، ويجتمعَ من شاءَ من القرّاء حولهُ ليقرؤوا عليه القرآنَ حتَّى يختموه، وكلما زادَ العددُ كان إنهاؤهُ أسرع، فكلُّ واحدٍ يقرأ

قسمًا منه، لكن الذي رأيتَ أنهم كانوا قلَّة، فتبقى الجثَّةُ ساعاتٍ حتَّى يُختمَ القرآن.

وكانتْ هذه البلدةُ وغيرُها في وقتٍ تُفقَدُ فيهِ قيمةُ العلماءِ شيئًا فشيئًا، ويشكَّكُ في علمهم ومنفعتهم، ويُطعَنُ فيهم ويُستَهزأ بهم، ولا تُعطَى لهم حقوقهم، وصارَ الاتجاهُ إلى السياسةِ والحزب، الذي لا يعطي قيمةً للدِّين، ولذلكَ بدأت الشكوكُ تتسلَّلُ إلى نفوسِ الشبابِ وغيرهم، عندما توجَّهوا إلى من لا علاقةَ له بالدينِ، وأداروا ظهورهم إلى من له دين. . . .

ومع كلِّ هذا حافظَ المسلمونَ على دينهم، ولو خالطهُ في ذلكَ ما خالطهُ، فلم تسمعْ طوالَ عمركَ هناكَ أن مسلمًا اعتنقَ دينًا آخر، والشيوعيونَ مع نشاطهم كانوا قلَّةً بين جميعِ الأحزاب، معروفونَ في البلدةِ كلِّها، ربَّما لا يتجاوزونَ العشرات.

لكنَّ الوباءَ في الأحزابِ الأخرى أيضًا، التي لا توردُ آيةً من كتابِ الله ولا حديثًا من سنةِ رسولهِ ﷺ في أنظمتها ولوائحها، فهم في وادٍ والإسلامُ أعلى وأجلّ. ولن يجمعهم شيءٌ مثل الإسلام، لو علموا.

وهذا التفرُّق والتشتُّتُ والتمزُّقُ بين أحزابِ قوميَّةٍ واحدةٍ يعرفها الجميع، وحالُ العربِ وإصرارُهم على عدمِ الوحدةِ واضحٌ للعيان، وهم أمَّةٌ واحدة! فالقوميَّةُ وحدها لا تجمع، واللغةُ وحدها لا تجمع، والثقافةُ وحدها لا تجمع، الذي يجمعُ هو دينُ الفطرة، هو الإسلامُ، دينُ الله الصافي، الذي لا يفرِّقُ بين قوميَّةٍ وأخرى، ولا بينَ عشيرةٍ

وغيرها، ولا بينَ ذكرٍ وأنثى، ولا بينَ شريفٍ ووضيع، إنه دينُ الحقِّ، دينُ كلِّ زمان، ولجميعِ الناس، لو عرفوا.

ولعلَّ غالبَ الأحزابِ الكرديَّةِ كانت يسارية اشتراكية، فهي مثلُ غيرها من الأحزابِ العربيَّة العلمانيَّة، وفيها يكادُ تنعدمُ عقيدةُ الولاءِ والبراء، التي هي من صميمِ العقيدةِ الإسلاميَّة، وهي محبةُ ومناصرةُ المسلمينَ ومساعدتهم، ومعاداةُ عدوِّهم والتبرؤ منهم ومحاربتهم إذا لزمَ أو قُدر. فتجدُ في هذه الأحزابِ العكسَ أحيانًا كثيرة، فلا ينظرونَ في العلاقاتِ والمواقفِ إلى الدين، ولا إلى كونِ أهلها مسلمينَ أو لا. وكذا يأتي موقفهم من الأحزابِ والجمعياتِ والمؤسساتِ الإسلاميَّةِ ـ على ما يبدو ـ، أملِ الأمَّةِ في توحيدِ بلادِها وقومياتها كما كانت، وما حدثَ مرَّةً يمكنُ أن يحدثَ مرّاتٍ ومرّات، وليس ذلك على الله بعزيز. ومن ثمَّ لا يظهرُ عندهم مفهومُ الدعوةِ والجهادِ وما إلى ذلك.. هدانا جميعًا إلى صراطهِ المستقيم.

يقولُ الله سبحانه وتعالى في سورةِ الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الممتحنة: ١]، فلا يكونُ المؤمنونَ هكذا أبدًا. يقولُ ربُّنا جلَّتْ قدرتهُ في سورةِ المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

يعني أن هذه السياسةَ قد تؤدِّي إلى تأييدِ الكافرِ ضدَّ المسلم، ويعني هذا أن الحزبيَّ المسلمَ صارَ عدوَّ المسلمِ وليس أخاه، ويعني

أنه صارَ صديقَ العدوِّ وليس عدوَّ عدوِّه! وبذلك يكونُ قد صارَ منهم. فليُحذَرْ من هذا أشدَّ الحذر. يقولُ ربُّنا العليمُ الحكيمُ منبِّهًا إلى هذا الأمرِ الخطيرِ ومحذِّرًا منه ومن عاقبته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [سورة المائدة: ٥١].

وقبل إقفالِ هذه الفقرةِ الطويلة، لا بدَّ من البيانِ أن أكراد سوريةَ ظُلموا حتَّى في بطولاتهم الفذَّةِ ودفاعهم عن بلدهم، فقد دوِّنتْ ودرِّستْ بطولاتُ معظمِ المحافظاتِ السوريةِ ضدَّ العدوِّ الفرنسيِّ المحتلِّ عدا مناطقِ الأكراد! على الرغمِ من أنهم قتلوا قائدَ الجيشِ الفرنسي «روغان» في (قبور البيض) بقيادةِ آل حاجو، في قصةٍ نادرةٍ وتكتيكٍ عسكري وخدعةٍ خدعوا بها ذلك القائد، حتَّى قالتْ أختهُ ـ وكانت هناك ـ: إن قتلهُ لن يكونَ في صالحهم، وتعني حقوقَ الأكراد، وكانت المفاوضاتُ جاريةً بينهم بشأنها، ولكن النخوةَ الإسلاميَّةَ والوطنيةَ هي التي كانت تحرِّكهم، وكان الفرنسيون يقولون لهم: إنكم إذا لم تحاربونا أعطيناكم حقوقكم. وكذبوا، فقد كانوا يقولون دفعًا لبأسهم، وقد سبقَ الحديثُ عن الثكنةِ العسكريةِ الفرنسية، وكانت مدافعُ الفرنسيينَ على تلٍّ عالٍ قربَ البلدة، سمِّيَ بـ(كري طوبي)، أي: (تلِّ المدفعية)، الذي يقعُ بين (قبورِ البيضِ) و(كندكي سيِّد) و(كري بري)، وهو موقعُ اكتشافِ النفطِ حاليًّا، وذُكرَ لك أنه قُتلَ هناك.

ولم يقتصرْ جهادهم على مناطقهم فقط، فقد علموا أن هناكَ قوَّةً عسكريَّةً فرنسيَّةً في (قلعة الهادي) عند قريةِ (حدَّاد)، ولم يكنْ فيها أكراد، فهاجموها، وكانت معركةً قوية، قُتلَ فيها من الفريقينِ

من قُتل، وذُكرَ أن أهلها لم يقاتلوهم، ولم يساعدوا الفرنسيين كذلك.

هذا ما سمعتَهُ من شخصٍ واحد، وينبغي أن يدوَّنَ هذا التاريخُ ويفصَّل، ويكفيهم فخرًا أن أكبرَ بطلينِ في تاريخِ الجهادِ ضدَّ الفرنسيين في أكبرِ محافظتينِ بسورية: دمشقَ وحلب، كرديان، وهما: يوسف العظمة، وإبراهيم هنانو. إنهم أمَّةٌ شكيمةٍ وجهادٍ طويلٍ في تاريخِ الإسلام، إنهم أبناءُ صلاحِ الدينِ، القائدِ المجاهدِ والسلطانِ العادل، فهل جُوزوا خيرًا على فَعالهم؟

وأثناءَ العدوانِ الثلاثيِّ على مصرَ وقناةِ السويس، قامَ أحدُ زعماءِ العشائرِ الكرديَّةِ بتأسيسِ قريةٍ قربَ مدينةِ القامشلي وسمَّاها «قناةَ السويس» تضامنًا مع إخوانهم في مصر، وهي معروفةٌ حتَّى الآن بهذا الاسم، وصارتْ ضمنَ المدينة.

* * *

أول طريق العلم

وعندما أرادَ والدُكَ إلحاقكَ بالصفِّ الأوَّلِ لم تُقبل، بحجَّةِ أنكَ ما زلتَ صغيرَ السنّ، فأشارَ عليه بعضُهم بأن يلحقكَ بمدرسةِ «كنيسةِ السريانِ الأرثوذكس»، وكانت قريبةً منكم، والمدرِّسُ فيها « ملفونو نوفل»، أحمرُ مكتنز، فداومتَ هناكَ سنةً أو شهورًا، وكنتَ تصلي في كنيستهم وتقومُ بحركاتهم فيها، وتعلمتَ كتابةَ الكثيرِ من الكلماتِ بالسريانيةِ بعدَ إتقانِ أبجديتها، كما أتقنتَ اللغةَ السريانيةَ من بعدُ، وتكلمتَ بها مثلهم، حيثُ مِن جيرانكَ مَن هو منهم.

ثمَّ أتممتَ دراستكَ الابتدائيةَ في مدرسةِ خالد بن الوليد، والإعداديةَ في «إعدادية فايز منصور».

وكانت أحوالُكَ المعيشيةُ فوقَ المتوسط، بل جيدةً بالنسبةِ لزملائك، فكانَ لكم حانوتٌ صغيرٌ في الحيّ، وكنتَ تساعدُ أباكَ فيه، وتعيشونَ منهُ، وتعلمتَ فيهِ أساليبَ التعاملِ مع الناس، والحساب، وكنتَ تكتبُ الديونَ في دفاترِ والدكَ باللغةِ التركية، حيثُ أتقنتَ حروفها وأرقامها كما علمكَ إياها، ثم أُغلقَ المحلُّ قُبيلَ تسجيلِكَ في الجامعة.

وكان مستواكَ الدراسيُّ لا بأسَ بهِ، لستَ من الممتازينَ ولا دونَ المتوسط، ماعدا التفوقَ في بعضِ المواد، وهي قليلةٌ، ولم تَحُزْ جائزةً تقديريَّةً سوى في الصفِّ الرابعِ الابتدائيّ، حيثُ كنتَ الثالثَ في الصفِّ، وهي أقدمُ وثيقةٍ لديك، ثم كنتَ من العشرِ الأوائلِ عندما تخرَّجتَ في الجامعة.

وكُتبَ في حقلِ «صفات التلميذ البارزة» من شهادةِ الصفِّ الرابعِ الابتدائيّ: (تلميذ مهذَّب، أديب، مطيع، هادئُ الطبع، جريء، مجتهد).

وفي شهادةِ الصفِّ الخامس: (الهدوءُ التام، والمثابرةُ على دراستهِ ووظائفهِ خلالَ العامِ الدراسيّ).

وفي آخرِ المرحلةِ الابتدائيةِ تُقدَّمُ الاختبارات، وهي موحَّدةٌ لجميعِ الطلابِ في سورية، وكانت هذه السَّنَةُ ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) آخرَ سنةِ شهادة، ثمَّ صارتْ انتقالية، وقدَّمَ طلابُ البلدةِ الاختباراتِ في مدينةِ القامشلي، وتُهتَ في المدينةِ مرَّةً وكنتَ صغيرًا، فلطفَ اللهُ بك وردَّكَ إلى البيتِ الذي أودعكَ والدُكَ فيه، وكان بيتَ نصرانيٍّ اسمهُ «يوسف برصوم» من أصدقائهِ القدماءِ في تركيا، ومضى الوالد إلى البيت. وكان «يوسف» هذا صانعًا ماهرًا للأواني الفخاريَّة، وكانت تلك مهنته، وأرادَ أن يمتحنكَ في الإملاء، فقال: إذا استطعتَ أن تكتبَ (شيري نير) فأنتَ مجتهد. وهما كلمتانِ بالكرديَّةِ تعنيانِ (الأسد الذكر) ويعني الياءاتِ التي فيهما، حيث تُلفظُ مائلةً كأولِ حرفٍ من الحروفِ الهجائيَّةِ الإنجليزيَّة، فكتبتَها كما كتبت، فخطَّأكَ،

وكتبَ الصحيحَ هكذا (شهره نهر) أو قريبًا منه، وأن الياءَ المائلةَ تُكتبُ هاءً في الأبجديَّةِ الكرديَّة!

وكان أصعبَ مادةٍ في هذا الاختبارِ مادةُ «التربية الوطنية» حيثُ تذكرُ من أسئلتها تعريفَ الوحدةِ والحريةِ والاشتراكية، وهي شعارُ حزبِ البعث، فعرَّفتَها، ماعدا الاشتراكيةَ لم تعرفْ معناها، وعندما عدتَ سمعَ شيوعيٌّ بعدمِ توفيقكَ في تعريفها، فصارَ يشرحُها لك بالتفصيل!

وقبل هذه السَّنَةِ حدثتْ حربُ حزيران، أو حربُ العار، وما أكثرَ عارَهم وعوارهم، بل صارتِ المخازي والمهازلُ سمةً لم يعدْ يُستحيى منها، فقد صارتْ مألوفةً ومعلَّقةً على جِباهٍ وجدران... وسمَّوها «نكسةً»، كأنْ تقولَ «زكمة»؛ ضحكًا على شعوبٍ لم يعدْ فيها موضعٌ للضحك.

وكنتَ دائمًا تردِّدُ أسماءَ أساتذتك، حيثُ إنَّ كلَّ صفٍّ كانَ لهُ مدرِّسٌ يتولّى تدريسَ جميعِ الموادّ، وفاتكَ من بينهم اسمُ مدرِّس، وأما الباقونَ بالتسلسلِ من الصفِّ الأولِ إلى السادس فهم: عبد السلام، أحمد فارس، عبدربه مسالمة، عمر عبد العزيز (من حلب)، ظافر خلوف (من الساحل).

وكان بينهم أستاذٌ يؤذي الطلابَ كثيرًا، وعُرفَ عنهُ أسلوبٌ بشعٌ في أذيَّتهم وتعذيبهم، وكان ضعيفَ البنيةِ كبيرًا في السنِّ ترتجفُ يداهُ، فيأتي بالتلميذِ ويأخذُ بإصبعيهِ السبَّابةِ والإبهامِ ـ على هيئةِ كُلّابٍ ـ الشفةَ السفلى له حتَّى تكادُ تُدمى، ويرفعُ رأسَهُ الصغيرَ وهو ممسكٌ بها حتَّى

يستوي خدُّهُ جيدًا، فيصفعهُ بكل ما أوتيَ من قوة! وكانَ حديثَ التلاميذ، وكلُّهم يبغضونَهُ، واسمهُ «إسكندر بنُّوت»، أتى من بلدةٍ بعيدة. وكان نصيبُكَ من ذلك المعلِّم المجرم حصَّةَ الأسد... وممَّا تذكرهُ في ذلكَ أن أحدَ التلاميذِ أنمى إليهِ أنكَ تكلمتَ بالكرديَّة، أو أنكَ آذيته، فصفعكَ صفعةً قويةً وقعتَ إثرها من الشرفةِ إلى الساحة!

وكان أكثرُ من ٩٥٪ من المدرسينَ في الجزيرةِ آنذاكَ من خارجها، نظرًا للأميَّةِ المتفشيةِ بينَ أهلها، ولعدمِ إعطائهم حقوقهمُ التعليميَّةَ كافية، مع غيرها من الحقوق.

ومما لا تنساهُ عن زملائكَ في المرحلةِ الابتدائية صديقٌ لكَ اسمهُ «شيخموس عمر» من أسرةٍ فقيرةٍ بجواركم، كان لا يجدُ ثمنَ الحبرِ ليملأ به قلمَه، فكان يستخدمُ بدلًا منه الـ«جِفِيت» وهي «النيلة»، المستعملةُ لتلوينِ الثيابِ باللونِ الأزرق، وكان رخيصًا، ويكفيهِ مدَّةً طويلة، فكان يأتي إلى المدرسةِ وقد تلوَّنتْ أصابعهُ وتلوَّثتْ يداهُ ولباسهُ ودفاترهُ بها، ثم كانت تلك المادَّةُ تخرِّبُ أقلامه، فتركها، ولا تذكرُ هلْ تركَ المدرسةَ لفقرِ أسرتهِ أم لغيرِ ذلك، لكنهم جميعًا تركوا البلدةَ وذهبوا ربَّما إلى تركيا.

ومن مثلِ هذا ما كان يفعلهُ تلميذٌ فقيرٌ في قريةِ «كري بري»، فكان يمحو ما كتبهُ على دفاتره، ليكتبَ عليها مرَّةً أخرى في السَّنَةِ المقبلة؛ للفقرِ الذي هو فيه!

وكان لكم جيرانٌ أحدهم اسمهُ «محمد صدِّيق» يدرسُ معكَ أيضًا، ذهبتْ أسرتهُ كذلك إلى تركيا، وكانت المحبَّةُ بينكم زائدة،

وهو لا يدري أين سيكونونَ إذا حطُّوا رحالهم هناك حتَّى تتراسلوا، فقال أخيرًا وقد قربَ الرحيل: إذا لم أراسلكم فابعثوا إليَّ رسائلَ كلُّها سبٌّ وشتم. فضحكتم. ثم لم تكنْ هناك مراسلة!

وتلميذٌ ابتُليَ بالكسلِ وقلَّةِ الفهم، أُتيَ أكثرَ من مرَّةٍ من الصفوفِ المتقدِّمةِ إلى المتأخِّرةِ ليقرأ في كتبها أمامَ التلاميذ، بصورةٍ مهانةٍ ومنظرٍ كئيبٍ لا تنساه، وبأسلوبٍ جافٍّ وفظاظةٍ وسوءِ تربيةٍ وضربٍ من المعلمِ الذي لم يكنْ هناك حدٌّ لصلاحياتهِ في ذلك الوقت، مع ضحكِ التلاميذِ وتأليفِ أنغامٍ بسخريةٍ على اسمهِ الجميل. وكان والدهُ يصحبهُ إلى المدرسةِ أحيانًا ويُصرُّ على إكمالِ تعليمه، حتَّى أيسَ منه، فتركَ المدرسةَ، وارتبطَ بعملٍ أظنهُ كان ناجحًا فيه، ثم تركوا البلدةَ كلَّها، ربَّما حيثُ عمله.

* * *

مرحلة أخرى من التعليم

وكانت المرحلةُ الإعداديةُ أيضًا شهادةً، وتسمى «الكفاءة»، والسَّنَةُ التي قدمتَ فيها الاختبار (١٣٩١هـ) آخرُ سنواتِ الشهادةِ فيها، فقدْ تحوَّلتْ هي الأخرى إلى الانتقالية. ومما تذكرُ فيها قيامُ الانقلابِ العسكريِّ بقيادةِ حافظِ الأسدِ على نور الدينِ الأتاسي، فقامتْ المدرسةُ بمظاهراتٍ صاخبةٍ بقيادةِ الحزبيِّينَ البعثيِّينَ ضدَّ الانقلابِ الجديد، وصارَ أحدُ الطلبةِ النشيطينَ (إلياس... يأتي حديثٌ عنه) يضعُ الهتافاتِ السياسيَّةَ ويصيحُ بها على رؤوسِ الطلابِ وهم يرددونَ وراءهُ: لا دراسة ولا تدريس إلَّا برجوعِ الرئيس!

ثمَّ كانَ هو نفسهُ ـ وربما غيرهُ ـ الذي وضعَ الهتافاتِ ضدَّ الرئيسِ السابق، ومرحِّبًا بالرئيسِ الجديد!

ووُضعتِ الانتخاباتُ، وليسَ لديكَ جديدٌ تضيفهُ إلى ما يعرفهُ الصغيرُ والكبيرُ من مهزلةِ الـ ٩٩,٩٩٪، وقد ناداكَ أحدُ القياديينَ الحزبيينَ آنذاكَ (جورج إسكندر) على رؤوسِ الناسِ قائلًا: هل أنتَ موافقٌ على انتخابِ الرئيسِ أم لا! وكنتَ آنذاك فتى!

وفي هذه المرحلةِ تعلمتَ الأبجديَّةَ الكرديَّة، وأسماءَ أشياءَ بهذهِ

اللغة، وكان التعلُّمُ بالحروفِ اللاتينيَّةِ كما اختارَها قوميّو الأكرادِ بسورية، في قبوِ قصرِ الأرملةِ (حياة) أمِّ صديقكم أحمد عزيز حاجو سرًّا بالليل، وحصَّلتَ جائزةً بذلك، ونسيتَ تلكَ الأبْجَدِيّةَ كلها! كما نسيتَ الأبجديةَ السِّريانية، ومثلَها التّركية، كما نسيتَ اللّغةَ السِّريانيةَ التي تعلمتَها من الجيران، وكنتَ تتكلمُ مثلهم تمامًا، ومثلها اللهجةَ العَربيَّةَ المحلَّمية، التي يذكرُ بعضُ أهلها أن أصلهم من بني هلال.

وبعد ربعِ قرنٍ من الغربةِ نسيتَ لهجتكَ العربيَّةَ الجزيريَّة، وصرتَ تخلطُ بينها وبين اللهجةِ الشاميَّةِ والنجديَّةِ والفصحى، فصارتْ كأنها لهجةٌ جديدة! واللغةُ الكرديَّةُ التي تتحدَّثُ بها منذ البدايةِ مكسَّرة، فإنَّ شطرَ كلماتها عربيَّةٌ ملويَّة! ويرجعُ ذلك إلى انكبابِكَ على القراءةِ والكتابةِ بالعربيَّة.

* * *

بذرة الإيمان والتربية

وكانت بذرةُ الإيمانِ ونموُّها قد ألقتْ بظلالها على سلوكِكَ في هذه المدَّةِ خاصَّة، وتذكرُ من ذلك عندما كنتَ تلعبُ مع أترابِكَ بالكرة، وقد اقتربتِ الشمسُ من الغروب، والجوُّ جميل، وأنتم في حرارةِ اللَّعبِ وحلاوتها، فتركتَ اللَّعبَ والأصدقاء، وتوجَّهتَ إلى البيتِ لتؤدِّيَ صلاةَ العصر قبل أن تغيبَ الشمس. ومازلتَ تجدُ بردَ هذه الطاعةِ كلما تذكرتها!

وقد انغرسَ الإيمانُ في قلبِك، ووجدتَ حلاوتَه، وعرفتَ عظمةَ دينِ الإسلامِ وعدالتَه، حتَّى استأثرَ باهتمامِكَ ونافسَ نوازع نفسِكَ وأنت فتىً مراهق، ولا أحَدَ يوجِّهُكَ إلى هذا، وكنتَ تخشى أن تفقدَ هذه النعمة، وتحيدَ عن هذه الطريق، وتنسى هذا الإيمان، فكنتَ تبحثُ عن دعاءٍ جامعٍ تدعو به حولَ هذا، ولا تعرفُ ما هو وأين ستجده، ولا كتابَ عندكَ ولا شيخ، فقلبتَ صفحاتِ القرآنِ الكريم، وبحثتَ أيامًا، وربما أسابيع، حتَّى وقفتَ على قولِه سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران: ٨]، وأنتَ تدعو بهذه الآيةِ الكريمةِ منذ ذلك الوقتِ وحتى يومِكَ هذا؛ فالحمدُ لله والشكرُ له على الهدايةِ والإيمان.

بل كان كلُّ شيءٍ في الدينِ يستأثرُ باهتمامك، لأنه يُعتبرُ جديدًا عليك، ولأنك تحبُّه.

ولا تنسى نقاشًا دارَ بين والدِكَ وعمِّكَ وأنت طفلٌ تدرسُ الابتدائية، عندما خرجا من صلاةِ الجمعة، وجاءَ موضوعُ قصِّ الأظفار، فذكرَ عمُّك أنه ينقضُ الوضوء، ونفى والدُكَ ذلك، فرجعا إلى الإمام، فكان ما قال الوالد، وأرشدَهما إلى غسلِ اليدينِ بعد قصِّها.

وكان والدُكَ يكرِّرُ قولَهُ «الكذَّابُ عدوُّ الله»، فكان لمثلِ هذا وغيرهِ أثرٌ في تربيتكَ ونشأتِكَ على الإيمانِ والآدابِ الحسنة، ولذلك أهديتَ إليه كتابكَ «خصائص الإعلام الإسلامي» قائلًا: إهداء إلى والدي الذي ربّاني على قولِ الحقّ.

وكان أكثرُ ما يركِّزُ عليه هو تنبيهُكَ على عدمِ مصاحبةِ السيِّئين، ويغضبُ إذا ما رآكَ مع أحدٍ منهم، ويعيِّنهم أحيانًا، منهم عازفُ عود، وآخرُ نكتيٌّ أو مهرِّج، ويقولُ لوالدتِكَ ذلك أيضًا؛ لتثنِّيَ لكَ هذا القولَ وتركِّزَ عليه. وقد أفلحَ هذا الأسلوبُ والحمدُ الله.

* * *

الوالدان

وكان الوالدُ دائمَ الهمِّ والتفكيرِ بأحوالِ الناسِ والسياسة، يستمعُ إلى الأخبارِ والتحليلاتِ السياسيَّةِ والأحوالِ الاجتماعية، ولا ينامُ إلَّا والمذياعُ عند رأسه، ويعجبُ من مخالفاتِ الناسِ وانحرافهم وعدمِ الأمانةِ عند بعضهم وكذبِ آخرينَ منهم. وقد أثَّرَ عليكَ هذا السلوكُ حتَّى في أمورٍ صغيرة، فإذا رأيتَ ـ مثلًا ـ سيارةً في الشارعِ تقفُ خطأ تأفَّفتَ وحزنت، وإذا رأيتَ أخرى كذلك أخذكَ همٌّ واسترجعت، فإذا زادتْ كدرَ خاطرُكَ وتكلَّمت!

وكان صاحبَ شجاعةٍ وإقدام، مع حدَّةٍ وقسوةٍ على نفسهِ أكثرَ مما على أهله.

ويسردُ لك حوادثَ وقصصًا وأخبارًا ووقائعَ مما جرى معه أو مع غيره، وفيها عبرةٌ وخبرة، استفدتَ منها كثيرًا، ولو كنتَ ذا ذاكرةٍ حيَّةٍ وكتبتها أفدتَ بها غيرك.

كما يحثُّكَ على تعلُّمِ الصَّنْعة، فكنتَ تساعدهُ في أعمالهِ كلِّها منذُ الصغر.

وكان يتقنُ عدَّةَ صناعاتٍ شعبية، منها البناء، لكنه غيرُ ماهرٍ فيه،

فكنتَ أقلَّ مهارةً منه في ذلك! فصرتَ كأنك تعرفُ ذلك ولا تعرف!

وقد قرَّ عينهُ بكَ عندما رآكَ تقرأ القرآنَ كلَّهُ وتختمهُ وتُهدي ثوابَهُ إلى الأمواتِ من أهله، وطلبَ منكَ مرَّةً أن تُسجِّلَ سورةَ مريمَ بصوتِكَ الجميل، ثم أرسلَ الشريطَ إلى أصحابهِ القدامى في تركيا مباهيًا بك!...

وكان على تربيةٍ عالية، عارفًا بالأصول، مقدِّرًا للظروف، مؤدَّبًا، لا يطلبُ شيئًا من أحفادهِ إلَّا نادرًا، فإذا طلبَ فبإذن، وكلامٍ لطيف، وصوتٍ خفيض، ثم دعاءٍ مختارٍ لهم يناسبُ سنَّهم.

وكان يُشفقُ عليكَ ويطلبُ منكَ أن تستريحَ من عناءِ المطالعةِ والبحث، ومع ذلك يحرصُ على وقتك، فلا يتكلمُ ولا يسأل، ويحبُّ الخروجَ إلى البرِّ ولكنه لم يطلبْ منكَ ذلك مرَّةً واحدة، على الرغمِ من مللهِ في البيت! فكنتَ إذا وجدتَ فرصةً أخذتَهُ في السيارةِ إلى أطرافِ المدينة، وعدتَ به بعد ساعة، وكان لسانهُ لا يفترُ من الدعاءِ إثرَ كلِّ خدمةٍ تقدِّمها له، صغيرةً كانت أو كبيرة.

وكان نظيفًا، لا يطيقُ وسخًا على بشَرته، أو على لباسه. ودقيقًا، يحبُّ أن تكونَ الأشياءُ في مواضعها، لا يُطيقُ الفوضى...

وكان محافظًا على فروضهِ اليوميَّةِ ورواتبها، وما كان يفوته قيامُ الليلِ في سنواتهِ الأخيرة، وصامَ آخرَ رمضانَ كلَّه، وقبل وفاتهِ حرصَ على الاعتكافِ في المسجدِ ما بين المغربِ والعشاء، وكنت معه في ذلك، حتَّى مرضَ وما كان قادرًا على المشي. رحمَهُ الله

رحمةً واسعة، وقد لقيَ من كدِّ الدنيا وتعبها ما لا يوصف، وقلَّتْ حركتهُ في الأيامِ الأخيرةِ من حياته، فكان يتيمَّم، ويصلي مستلقيًا، ويتوجَّهُ بوجههِ إلى القبلة، وأحيانًا ما كان يقدرُ أن يضعَ رأسَهُ على المخدَّةِ وبينه وبينها شبر! رحمَهُ الله وتقبَّلَ صالحَ أعماله، وغفرَ له، وأكرمَ نُزُلَه.

وكنت قد شرعتَ في تفسيرِ القرآنِ الكريم، في شهرِ ربيعٍ الأول من عام ١٤٢٨هـ، فكان أولَ من أخبرتَهُ بذلك وأنت تطلبُ منه الدعاءَ بالتوفيقِ والسدادِ فيه، فدعا لكَ دعاءً صالحًا، جزاهُ الله خيرًا. وتدعو الله تعالى ألا يحرمَهُ ثوابَ هذا العمل.

وقد توفيَ رحمَهُ الله ظهرَ يومِ الأربعاءِ (١٣) جمادى الأولى عام ١٤٢٨هـ، الموافقِ (٣٠) أيار ٢٠٠٧م، في مدينةِ الظهرانِ بالسعوديَّة، حيث كان ولدهُ «محمد نور» يدرِّس هناك، فيتنقَّل بينها وبين الرياض حيث تقيمُ أنت.

وكان عندكَ في مرضهِ الأخير، الذي بدأ يومَ الأحدِ (٢) ربيعِ الآخر، فصلى الفجرَ جماعةً في جامعِ الملكِ عبد الله بن عبد العزيز بحيِّ الملَز، ولم يقدرْ على العودةِ إلى البيتِ ماشيًا، فحملتَهُ في السيارة وأخذتَهُ إلى الإسعاف، فعولجَ بمقويّات، وبعد أيامٍ قليلةٍ اختلَّ توازنهُ عندما كان في الحمّام فكُسرتْ فخذهُ قريبًا من العُنق، فعولجَ في المستشفى أيامًا، وعادَ إلى البيتِ وقد وهنَ منه العظمُ وضعف، وكان يشكو آلامًا مبرِّحة في رجلهِ الأخرى، حيث تقلَّصَ فيها الوتَر، وبقيَ أسبوعينِ وهو لا يقدرُ أن ينامَ على جنبه، مما سبَّبَ له قروحًا في

مَقعدته، كان يشتكي منها أحيانًا أكثرَ من رجله، وقد قصدَهُ ولدهُ إدريس من القصيمِ فخدمَهُ أيامًا.

ثم أحبَّ السفرَ إلى مدينةِ الخُبَرِ الملاصقةِ لمدينةِ الظهران، وكان قد عولجَ عند طبيبِ عظامٍ هناك فاستفادَ منه، فأحبَّ أن يراجعَهُ مرَّةً أخرى، فراجعَهَ، وتوفيَ في اليومِ التالي منه. وقد اتَّصلتَ به في اليومِ الذي راجعَ فيه الطبيب، فحكى قصَّتَهُ معه، وما لقيَ من صعوبةٍ حتَّى أُخرجَ من البيتِ وأُعيدَ إليه، وأنتَ تُشفقُ عليه من الحديثِ الطويل، وودَّعتَهُ وداعًا مؤثِّرًا. . . .

وقد ماتَ فجأةً بسكتةٍ قلبية، حيث طلبَ من ابنهِ أن يمسحَ العرق الذي على جبهته، ثم مالَ إلى الوراء، وفاضتْ روحه.

وكانتِ الأختُ الكبرى قد رأتْ منامًا، فخافتْ من تأويله، فأحبَّتِ الاتصالَ به للاطمئنانِ عليه، فكان أثناءَ مكالمتها له بُعيدَ الظهرِ بدقائقَ يعالجُ سكراتِ الموت، ولم يُذكرْ لها ذلك.

وقد صليتمْ عليه في اليومِ التالي من وفاتهِ بجامعِ الثُّقبةِ في الخُبَر، ودُفنَ في مقابرِ المدينة نفسها، وكان يحبُّ أن يُدفنَ عند الوالدةِ في دمشق، وقد أوصى بذلك في أثناءِ حياته، فكان في ذلك حرجٌ وتأخيرُ أيام، فدُفنَ حيث دُفن، وكثيرًا ما كان يسألُ: هل تلتقي الأرواحُ ويستأنسُ بعضها ببعض؟ رحمَهُ الله وجعلَ مثواهُ الجنة.

وقد صحبكَ إلى تشييعِ جنازتهِ ولدُكَ أنس، كما قصدَهُ لذلك ابنهُ إدريس من القصيم.

ماتَ وأنتَ تنقِّحُ هذه الذكرياتِ المرَّةَ تلوَ المرة، وقد استفدتَ منه كثيرًا لمَّا ضعفتْ ذاكرتك، وكان هو ذا ذاكرةٍ قوية، وتمتَّعَ بجميعِ حواسِّه، وما خرف، وقد بلغَ التسعيَن أو يزيد.

وكان قد بقيَ لك جزآنِ لتختمَ القرآنَ الكريم، وقدَّرَ الله أن تختمَهُ قُبيلَ صلاةِ الظهرِ بثوان، وصليتم عليه صلاةَ الجنازةِ إثرها، فدعوتَ الله تعالى أن يقبلَ ثوابَ هذه الختمةِ له، وأن يقدِّمها هديةً له عند دخولِ القبر، جزاءَ حرصهِ على تعلُّمِكَ القرآن، وتفانيهِ في تعليمك. اللهمَّ ارحمْهُ كما رحمكم، وعلَّمكم، وتفانى في نصحكم وتربيتكم.

وكانت الوالدةُ عاقلةً حكيمة، إضافةً إلى حنانِها الذي يغمرُ البيتَ كلَّه، مع تدبيرِ شؤونهِ، وتنصحُ أولادها بلطفٍ وإشفاقٍ، بل وتنصحُ الوالدَ كثيرًا، ولعلها ورثتْ ذلكَ عن والديها، فقد كانَ والدُها وجيهَ القريةِ وقاضي حاجاتِ أهلها، مع ثراءٍ وكرمٍ، ووالدتُها ابنةُ أحدِ البكوات.

وكان اهتمامها بكَ وحبُّها لكَ أكثرَ من كلِّ أولادها، وتشبِّهكَ بشقيقها حُسين، الذي كانت تحبُّهُ أكثرَ من كلِّ إخوتها.

ولولا مواقفُها الحكيمةُ لكنتَ هربتَ من الأسرةِ مبكرًا، وقد حاولتَ ذلك أكثرَ من مرَّة؛ لأمورٍ دعتْ إليها قسوةُ الوالد، فكانت تنصحُكَ وتتشبَّثُ بكَ وتقولُ: خذْ شهادةً ثم اذهبْ أينما تريدُ يا ولدي، وإلا فإنكَ ستندمُ وتضيعُ منا. ويُرى كلُّ أولادِها وبناتها في طرفها إذا حدثَ نزاعٌ بينها وبين الوالد!

وكانت مريضةً بالشقيقةِ رحمها الله، مع أمراضٍ أخرى تعتريها، والحزنُ والألمُ يقطِّعُ قلبَ أولادها عندما يرونها تتألمُ وتتوجَّع، وقد لاقتْ تعبًا وإرهاقًا مع الوالدِ داخلَ المنزلِ وخارجَه، مع الماشيةِ خاصةً، ثم البستان، ولا تذكرُ أنها كانتْ تستريح، فعملها مستمرٌّ من الفجرِ أو قبلَهُ حتَّى تضعَ رأسَها وتنام. رحمها الله تعالى وجزاها عنكم جميعًا خيرَ الجزاء، لِما حملتكم وأرضعتكم، وأطعمتكم ونظَّفتكم، وربَّتكم صغارًا، ورحمتكم حتَّى بلغتم سنَّ الرجالِ، ونصحتكم حتَّى وقتِ الوفاة. وكنتَ في الغربةِ عندما ماتتْ ودُفنتْ في مقبرةِ حرستا بدمشق.

وقد وهبكَ اللهُ رزقًا في غربتكَ، فاشتريتَ شقَّةً في دمشقَ ومحلًّا، ليسكنَ فيها الوالدانِ ويتخلصا من العناءِ في تلكَ البلدة، فتركاها فعلًا وبقيا في دمشقَ نحو عقدٍ من الزمنِ، حتَّى توفيتِ الوالدةُ رحمها الله (قبل الوالدِ بثماني سنوات)، ثم صارَ الوالدُ يتنقَّلُ بين أولاده، في دمشقَ والسعوديَّة، ولم تبقَ لكم علاقةٌ بالقحطانيةِ إلَّا مع دائرةِ النفوس، حيث بيعتِ الدارُ أيضًا نحو سنةِ ١٤٢٠هـ.

* * *

بين المراهقة والسياسة والعلم

كانت المرحلةُ الثانويةُ جميلةً وقاسية، رائعةً ونكدة!

تميَّزتْ بانغماسِكَ في العملِ القوميِّ مع الأكراد، وكان معظمُ ما يقولونهُ من الظُّلمِ الواقعِ عليهم صحيحًا، فهم مهشَّمون مهمَّشون في موطنهم، ولا يساوونَ بالعرب، وكثيرٌ منهم لا تُعطى لهم الهويَّة، ولا يوظَّفونَ، وسُحبتْ منهم أراضيهم الزراعيَّة، مع ضرائبَ مستمرَّة... ومعظمُ البترولِ في سوريةَ من أرضهم لا يُعطى لهم من عائِدِها إلَّا النَّزرُ اليسير... إلى آخرِ هذه المنظومةِ من المظالمِ والمآسي.

وتميَّزتَ بينَ زملائكَ بحسنِ الخطابة، حيث كنتَ عريفًا لحفلاتِ النوروزِ ثلاثَ سنوات، تُلقي فيها أشعارًا من نظمك، وأناشيدَ يردِّدونها من كلماتِكَ وألحانك؟ وكنتَ تُقيمُ شعائرَ الدينِ بما تقدرُ عليه، ولا تشعرُ بتناقضٍ بين الدينِ والعملِ القومي، فما كان هناك تعمُّدٌ للتهجُّمِ على الدِّين، لكن أنصارَ القوميَّةِ ما كانوا ملتزمين، ولا يؤدُّونَ شعائره، وكانت ثقافتكم الإسلاميَّةُ قليلةً جدًّا آنذاك، فإنَّ مجرَّدَ الموازنةِ بين المقوِّماتِ السياسيَّةِ لأهدافِ الحزبِ والسياسةِ الشرعيَّةِ من النظامِ السياسيِّ في الإسلامِ كافٍ لبيانِ التناقضِ بينهما.

وكان بينكم تيّارٌ متديِّن، وهو ما شجَّعكَ أحدُ زملائكَ المتديِّنينَ على البقاءِ في منصبكَ حتَّى لا ينفردَ به بعضُ المنحلِّينَ أخلاقيًّا ودينيًّا.

وكنتَ صريحًا في خطِّكَ الإسلاميّ، وتقولُ أكثرَ من مرةٍ في خطاباتِكَ لهم: نحن مسلمونَ قبلَ أن نكونَ أكرادًا. وتعني به الأولويَّةَ والالتزام.

لكنَّ حادثةً أُسريَّةً وقعتْ لكَ كادتْ أن تقتلعكَ منها، وتدخَّلَ فيها القوميُّونَ لحلِّها، على أن تسمعَ منهم، فالذي يأتي قياديٌّ كبير، وانتهى الحلُّ لصالحِ الشيطان، حيثُ تبيَّنَ أنهُ لا علاقةَ لهم بالدينِ وأهله، والصلحُ الذي قاموا بهِ مخالفٌ ومناقضٌ للإسلامِ وشعائره، فتركتَهمْ عندما تأكَّدَ لكَ ذلك، وكان اللقاءَ الأخيرَ بينكَ وبينهم.

ولم تمتدَّ صحبتُكَ معهم أكثرَ من سنتين، وكان كثيرٌ من لقاءاتهم جدلًا عقيمًا، وأفكارًا مكرَّرةً، وخصومةً ومِراء، وضغائنَ ومكائد، وخاصَّةً الجدل، فأينما ظعنتَ أو حللتَ وجدتهم يتجادلون! وتذكرتَ بذلك قولَ الرسولِ الكريم عليه الصلاةُ والسلام: «**ما ضلَّ قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلَّا أوتوا الجدل**» ثم تلا رسولُ الله ﷺ قولَهُ سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وتبيَّنَ أنهُ كان بينهم غيرُ مخلصين، يتاجرونَ بالمبادئِ ويُبدونَ الإخلاصَ وهم من ذلك براء، وبينهم فقراءُ مُدقعونَ تُجمَعُ لهم فرنكاتٌ لإيجاراتِ بيوتهم، وكانت بين (٧ ـ ١٤) ليرة للغرفةِ شهريًّا، ثمَّ تعيَّنوا في مناصبَ جيدةٍ بعد تخرُّجهم، فكانَ العجبُ لا ينقضي من ذلك، حتَّى عُرِفَ السرّ!

وكنتَ في سنِّ المراهقةِ آنذاك، معجبًا بطلعتكَ الجميلة، محبوبًا بين زملائك، لا حياةَ لكَ بدونهم، تجالسهم وتتجاذبُ معهم أطرافَ الحديث، وتمازحهم، وتستضيفُ من تشاءُ منهم، وكانَ معظمهم غرباءَ من القرى.

وكانت العادةُ في بدايةِ الدراسةِ أن يسألَ المدرِّسُ كلَّ طالبٍ عن اسمهِ ومن أينَ هو، وبينكم طالبٌ من قريةٍ اسمها «جِيْلَكْ» وتعني «البقرة» فعندما يصلُ الدورُ إليهِ يتحرَّج من الإجابةِ جدًّا، فإذا قال «أنا من جيلك» انفجرَ الطلابُ من الضحك! فكانَ كثيرًا ما يسكتُ ولا يجيبُ، ولا يعرفُ المدرِّسُ سببَ سكوتهِ، فيلحُّ عليه، فإما أن يجيبَ فيضحكَ الطلابُ، أو يبقى ساكتًا فيطوونَ كشحهم على ضحكٍ يكادُ أن ينفجرَ بالصفِّ كالبارودِ، وقد يتبرَّعُ طالبٌ في المقدِّمةِ فيذكرُ للمدرِّسِ أنه من قريةِ كذا، لكنْ يأتي دورُ المعلمِ فيسألُ عن سببِ عدمِ إجابته، فيقالُ له: إن «جيلك» كلمةٌ كرديَّةٌ معناها «البقرة»؛ فيضحكُ المدرِّس أيضًا. ثم اخترعَ الطالبُ حيلةً جيدةً عندما كانَ يجيبُ بقولهِ «من قريةِ جيلك»، لكنَّ الطلبةَ ما كانوا يدَعونه، فصاروا ينادونهُ باسمهِ واسمِ قريتهِ فقط «فلان جيلك». وصارتْ عندهُ حساسيَّةٌ مفرطةٌ تجاهَ هذا الأمر، فبدلَ أن يلينَ للأمرِ ويضحكَ مع زملائهِ حتَّى يدَعوه، كانَ يقولُ إنه سيتركُ المدرسةَ لأجلِ ذلك! والذي تذكرهُ أنه لم يكملْ دراستَهُ معكم، ولا تعرفُ السببَ في ذلك.

وكنتَ مجتهدًا في الأدبِ واللغةِ العربيَّة، حتَّى سمّاكَ أستاذُ المادةِ «بطلَ العَروض»، ونظمتَ قصائدَ كثيرةً وأنتَ في أولِ السَّنةِ الثانويَّةِ عندما عرفتَ بحورَ الشعر.

وقد بدأتَ بجمعِ المجلاتِ ربَّما منذ المرحلةِ الإعدادية، وتجمَّعَ لديكَ أكثرُ من (٦٠) عددًا من الأعدادِ الأولى من مجلةِ «العربي» حصَّلتها من («سيِّد» نوري سليمان) الشابِّ الهادئ المتديِّن، كان بيتهُ في منتصفِ السوق، وأمُّهُ (فاطمة سيِّد) أرملةٌ صالحةٌ قانتةٌ متحجِّبة، يشعُّ النورُ من وجهها، تُنسَبُ إلى السادة. رحمها الله. وكان ابنُها المذكورُ خطّاطًا أيضًا، وذا مواهبَ وهوايات، متواضعًا، باشًّا، وزرتَهُ كثيرًا وأنتَ في تلكَ السنّ.

وكان إقبالُكَ شديدًا على المطالعةِ في الثانويةِ خاصَّة، تلتهمُ المجلداتِ في أسابيع، ولا ترتوي، وكانت همَّتُكَ في الأدب، قرأتَ للجاحظِ وغيره، وكنتَ متمتِّعًا بذاكرةٍ قويَّة، لا تنسى شيئًا قرأتهُ أو سمعتهُ، على عكسِ ما أنتَ عليهِ الآن.

وكنتَ تقولُ لزملائكَ الطلاب: اذكروا أيَّ شيءٍ وسأعطي لكم عليهِ مثَلًا أو قصَّةً أو خبرًا. وقد امتحنوكَ في هذا، فرأوا في الجوابِ أكثرَ من خبرٍ وقصَّة!

وكنتَ ذا خيالٍ خصب، تدَّعي أنكَ تقدرُ أن تكتبَ في كلِّ أسبوعٍ قصَّةً أو أقصوصة!

مع هواياتٍ شبابية؛ كجمعِ الطوابع، والعملاتِ المتنوِّعة، والأحجارِ الملوَّنة، وبطاقاتِ المناسبات، والصور، . . . وكانت لكَ فراسةٌ لا تخطئ في تقديرِ الأعمار!

وكتبتَ موضوعًا إنشائيًّا عن مطربِ البلدة (لَطُو)، وطلبَ منك مدرِّسُ اللغةِ العربيَّةِ أن تقرأهُ ليسمعَهُ الطلبة، فكانت حصَّةً لا تُنسى،

ضحكَ الجميع، وكنتَ تحبُّ استعمالَ الكلماتِ العويصة، فكانَ المدرِّسُ يوقفُكَ ويسألُكَ عن معنى كلماتٍ عديدةٍ فيه، حتَّى عنوانُ الموضوعِ كان عويصًا، وهو «الأمير لطو ورزداقه». وأظنُّ القارئَ نفسَهُ يسألُ عن معنى الكلمةِ الأخيرة، التي تعني «أصحابه».

وكنتَ تحفظُ أبياتًا دارجة، وحِكمًا، وأقوالًا مأثورة، وأخبارًا قصيرةً هادفة، ونوادرَ وطرائفَ وعجائب، من كتبِ التراثِ خاصَّة، وتُلقيها على مسامعِ زملائك، فيطرَبونَ لها ويتعجَّبون!

وكان زميلُكَ «عبد الرحمن أحمد» يُدركُ همَّتكَ العلمية، فيطلبُ منكَ تدوينَ ذكرياتك، وقد كتبتَها يوميًّا لنحوِ سنتين، وفيها رموزٌ لا تكادُ تفهم، بل رجعتَ إليها بعدَ أن عادتْ إليكَ وأنت في بلادِ الغربةِ فلم تستطعْ فكَّها، وقد كانت هناك ورقةٌ تبيِّنها فضاعت، وذكرَ شقيقُكَ إدريس أنه رآها وقرأها فأعجبته، ولمَّا رأيتَها تبيَّنَ أنها ذكرياتُ العامين ١٣٩٢ و١٣٩٣هـ (١٩٧٢ و١٩٧٣م)، وكنتَ أثناءها طالبًا في الأولِ الثانوي والذي يليه، وقد طُمستْ صفحاتٌ كثيرةٌ منها وليسَ بالإمكانِ قراءتها، بل لم يكن لديكَ وقتٌ لقراءةِ صفحةٍ منها!

أما ديوانُ شعرِكَ المهلهل، فمعظمهُ شعرٌ قوميٌّ وعاطفيٌّ ضعيفٌ مُنكر، وقد طلبتَهُ لتحرقهُ، فكنتَ تظنُّ أنهُ أُخفيَ عنك، فكتبتَ في وصيَّتكَ تبرُّؤكَ منهُ، وعدمَ نشره. كما تتبرَّأ من كلِّ عملٍ حزبيٍّ عنصريٍّ يفرِّقُ بين عربيٍّ وكردي، وكلِّ عملٍ لا يوافقُ شريعةَ الإسلام.

ثم وصلَ إليكَ الديوان مع أوراقكَ الأخرى، فمزَّقتَهُ كلَّهُ وأنتَ في الخامسةِ والخمسين، وكان يحتوي على (٢٥) قصيدة، فيها أكثر من

(٢٠٠) بيت، واحتفظتَ بقصيدتينِ أو ثلاثٍ من بينها، وكلُّها في الحبِّ، والقوميَّة، والأصدقاء. ولم تكنْ كلُّها سليمةَ الوزن، فقد بدأتَ النظمَ قبلَ أن تتعلَّمَ العَروض، ونظمتَ أولَ قصيدةٍ وأنت في الثاني الإعدادي (الفصلِ الأولِ منه) سنةَ ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)، وسنُّكَ (١٤) عامًا، أي قبلَ سنتينِ من دراسةِ العروض. وامتدَّ معكَ النظمُ حتَّى السنواتِ الأولى من الجامعة.

وكان أولَ ما نظمتهُ بعدَ تعلُّمِكَ العروضَ بيتٌ من البحرِ الطويلِ على هيئةِ الشعرِ الجاهليّ، وكان أثيرًا لديك، ولم تعرفْ مصيره.

وقد وقفتَ على قصائدَ من خارجِ الديوان، منها قصيدةٌ هزليَّةٌ تجمعُ بين اللغتينِ العربيَّةِ والكرديَّة، مزَّقتَها كذلك. وبيتانِ عن نهرِ الخابورِ الذي يمرُّ من وسطِ مدينةِ القامشلي، أولهما:

أيها الخابورُ أخبرْ صادقًا هل سعيدٌ أنتَ في شطآنك؟

وكانت معظمُ كتاباتكَ تتسمُ بالحزنِ والألم... وذكرتَ فهرسًا مصغَّرًا بكتاباتكَ في هذه المدَّةِ في أواخرِ هذه الذكريات.

وكانَ هناكَ صديقٌ يتردَّدُ إليكَ ويُثني على خطاباتِكَ ويرجوكَ أن تكتبَ لهُ موضوعاتٍ إسلاميَّةً حيويَّةً متكاملةً ليقرأها بتأنّ، فكنتَ تكتبُ وتنقلُ ما يُفيدهُ في صفحات، وتعطيه، فيأخذها إلى القريةِ، وأنتَ تذكِّرهُ في كلِّ مرةٍ أن يعيدَها إليك، وعندما ألححتَ في طلبها حيثُ تعبتَ معها، ذكرَ أنهُ أحرقها كلها؛ خوفًا! فغضبتَ، ولم تعدْ تكتبُ لهُ شيئًا.

وكانَ ذلكَ الشابُّ من قريةٍ صغيرةٍ، أحبَّ فتاةً من البلدةِ حتَّى كادَ يجنُّ بها، وكانتْ من بيتٍ ثريٍّ وأسرةٍ راقية، وهو لا يكادُ يُعرَف،

وفي حالٍ متواضعةٍ، لا تثبتُ رجلاهُ على الأرضِ لفرطِ حبِّهِ لها، ويخافُ أن يطلبها، لأنه يعرفُ أنه لا يستجابُ لهُ ولا يُنظَرُ إليهِ! ولا يتركُكَ في هذا، ويضيِّعُ وقتك، وأنتَ تشفقُ عليهِ وتخفِّفُ عنه ما قدرت، وكانَ مع صغرِ عمرهِ طوّالًا، ضخمَ الجثَّة، تقولُ إنه انحنى لطولهِ، عارفًا بالكلام، يستخدمُ ألفاظَ الكبارِ وأصحابَ المجالسِ والسمَر، يجذبُ جليسَهُ إليهِ من أولِ لقاء، وكان يصفُ حبيبتَهُ بصفاتٍ وتشبيهاتٍ بلاغيَّةٍ عالية، لو دُوِّنتْ لكانت نثرًا كرديًّا معجبًا به.

وكنتَ تعرفُ صعوبةَ موقفهِ ولهيبَ عاطفتهِ والبركانَ الذي في قلبه، فقد مرَّ بكَ شيءٌ من هذا، فحفظكَ الله ونجَّاكَ منه وبصَّركَ بهدايته.

ومثلُ هذا يحتاجُ إلى عطفٍ ورحمةٍ ومداراة.

وسبحانَ الله! لا تدري كيفَ أحبَّ ذلك الشابُّ تلكَ الفتاة، فلم تكنْ جميلةً قط، لكنَّ الجمالَ شيءٌ نسبي، والناسُ طبائعُ وأصناف، فما يراهُ بعضُهم جميلًا لا يراهُ الآخرونَ كذلك. وذكَّركَ هذا بالخليفةِ الذي قال لبثينة: لا أدري ما الذي رغَّبَ جميلًا فيكِ... ولكنها كانتْ قد كبرَت، وماتَ جميل.

ثم إن ذلك الشابَّ كانَ يتوارى منكَ بعد أن كانَ لا يستغني عنكَ، عندما ساءتِ الأحوال الأمنيةُ في البلدِ، لئلا يتلبَّسَ بتهمةِ معرفتك!

وباختصار، فإنَّ معظمَ وقتِكَ في سنِّ المراهقةِ كان في السياسةِ والكتابةِ والمطالعة، لكنهُ لم يخلُ من العبث، وخاصَّةً صحبةَ الطلبةِ والسهرَ معهم والحديثَ في كلِّ شيء!

كما كنتَ عضوًا في فريقِ كرةِ الطائرةِ بالمدرسة، وكنتَ ماهرًا فيها، وقد غلبتم فريقَ المحافظةِ (الحسَكة) عندما ذهبَ فريقكم إلى هناك، لكن غلبكم فريقٌ من ناحيةٍ أخرى، فكانت الكآبةُ ظاهرةً على وجوهكم، حيثُ إن المؤمَّلَ في فريقٍ يغلبُ فريقَ المحافظةِ أن يغلبَ ما هو دونهُ، فكانَ أستاذُ الرياضةِ يخفِّفُ عنكم ويقولُ: لا بأس، دائمًا يوجدُ غالبٌ ويوجدُ مغلوب!

وكنتَ من مؤسِّسي «فريق التضامن» لكرةِ القدمِ ونائبَ القائدِ (الكابتن) فيه بالبلدة، ولم يدمْ أكثرَ من سنتين، وكانت الخلافاتُ بين أعضائهِ كالخلافِ بين الحكوماتِ العربيَّةِ اليوم. وكنتم تعجبونَ من وجودِ شابٍّ نصراني بينكم (سفَر)، ثم ذَكرَ ـ بعد انحلالِ الفريق ـ أن وجودَهُ كان بإيعازٍ من آخرين، ولم يكنْ للعب! فعرفتَ بعد ذلك سببَ هدوئهِ ووداعته!

وكنتَ حريصًا على أداءِ التمارينِ الرياضيَّةِ كلَّ يوم، في المرحلةِ الثانويَّةِ وشيءٍ من الجامعيَّة، وتمارسُ أصعبها، مثلَ تمرينِ الضغط، الذي أوصلتَهُ إلى نحو (٤٥) مرةً أو تزيد. ولمَّا جرَّبتَ ذلك وأنتَ كهل، وقعتَ على بطنِكَ من أوَّلِ تجربةٍ أو ثانيها!

وكنتَ تجدُ صعوبةً في دراسةِ الموادِ العلميَّةِ ماعدا الكيمياءَ والعلومَ الطبيعية، ولم يكنْ في بلدتِكَ سوى القسم العلمي، فاضطررتَ لدراسةِ الثاني الثانوي العلمي فيها، لكن ميولكَ الأدبيةَ طغتْ على نفسك، فكان لا بدَّ من الانتقالِ إلى مدينةِ القامشلي لدراسةِ سنةِ «البكالوريا الأدبية» في ثانويةِ عربستانَ سنة ٩٣ ـ ١٣٩٤هـ (٧٣ ـ ١٩٧٤م)، فكان كذلك.

ولا مناصَ من ذكرِ قصَّةٍ فيها عبرة وتفصيلٌ لما سبق! فقد حاولتَ الانتقالَ إلى الثانويةِ الأدبيَّةِ المذكورةِ بعد أن نجحتَ إلى الثاني الثانوي فلم يوافقْ مديرُ التربيةِ على ذلك، ولم تكنْ لديكَ واسطة، فعمدتَ إلى كتابةِ طلبٍ بأسلوبٍ أدبيٍّ متمكنٍ وبلاغةٍ قويَّة، وقدَّمتَهُ إلى رئيسِ الديوان، فطارَ به فرحًا، وتذكرُ وقوفَهُ إكبارًا وإعجابًا بما كتبت، واستفهمَ منكَ ليتأكَّدَ من أنكَ أنتَ الذي كتبتَه، وكرَّرَ ذلك، ثم أخذَ الطلبَ وقرأهُ لمديرِ التربية، قائلًا له ما قال، لكنهُ عادَ بخفَّي حُنين، فلم يأبهِ المديرُ بذلك، أو أنه استبعدَ أن تكونَ كاتبَ الطلب، وكلُّ الذي وقَّعَ به رئيسُ الديوانِ تحت الطلب ـ كما وجَّهَهُ إليه المدير ـ هو: «يُقبلُ في حدودِ الشاغر». فذهبتَ إلى ثانويَّةِ عربستان، وقدَّمتَ إليهم ما كُتبَ لهم، فقالوا: لا شواغرَ عندنا! ولم تكنْ لكَ واسطةٌ هناكَ أيضًا. فعدتَ إلى بلدتِكَ تُكملُ السَّنةَ الثانية من القسمَ العلمي، ونجحتَ والحمدُ لله.

لكنْ كان لا بدَّ من بذلِ الجهدِ من جديد، وصارَ الموقفُ أصعب، حيث إن دراسةَ الثاني الثانوي العلمي يتطلَّبُ دراسةَ «البكالوريا» العلميَّة، ولا يسمحُ النظامُ بدراسةِ الأدبيَّة، ومع ذلك حاولتَ داعيًا الله التيسير، فيسَّرَهُ سبحانَهُ عن طريقِ معرفةٍ نسويَّةٍ بزوجةِ مديرِ التربية، ووافقَ على نقلِكَ إلى ثانويَّةِ عربستانَ الأدبيَّة. وقدَّمتَ الطلبَ إلى أمينِ السرِّ بالثانويَّة، فبُهت، لكنهُ لم يستطعْ ردَّ الطلب...!

وفي القامشلي انفتحتْ عينُكَ على مدينةٍ أكبر، ومكتبات، ومجلاتٍ وجرائد، كما حفظكَ اللهُ من شرورِها ومفاسدِها، ولو أوكلكَ إلى نفسِكَ لضللت، ولكنَّ رحمتَهُ أدركتك. ألم تقلْ في مقدمةِ

«هكذا قلتُ»: «اللهم إني كنتُ ضالًّا فهديتني»؟ لقد هداكَ الله من ضلالِ الأحزابِ وضيقِ القوميَّةِ إلى نورِ الإسلامِ ورحابهِ العالميَّة، ومن مضلَّاتِ الفتنِ وشرورِ المدنيَّةِ الحديثةِ إلى دراسةِ أحكامِ الإسلامِ ونظامهِ العادل والدعوةِ إليه، والاهتداءِ بهديِ رسولهِ والاقتداءِ بصحابتهِ العظماءِ وأبطالِ الإسلامِ الفاتحين، فالشكرُ لهُ سبحانهُ ملءَ السماواتِ وملءَ الأرضِ وملءَ ما شاءَ من شيءٍ بعد.

وفي القامشلي كنتَ تسكنُ في بيتِ خالتكَ، قريبًا من الحدودِ التركية، ليس بينكَ وبينها أكثرُ من كيلومترين، وكنتَ تسمعُ طلقاتِ الرصاصِ في اشتباكاتٍ بين حرّاسِ الحدودِ والمتسلّلين إلى تركيا ومنها إلى سوريا.

وفيها اشتدَّت مجادلتُكَ مع الشيوعيين، وخاصةً مع جارٍ في البيتِ الذي تسكنه، وكانَ (مُلَّا) ثم ألحدَ وكفرَ فتمركس، وكانَ كبيرًا في السنِّ، تجاوزَ الستين، أو قربَ من السبعين، وعندهُ امرأةٌ عابدةٌ صالحة، من بيتِ شرف، زُوِّجَها لمكانتهِ العلميَّةِ وشرفِ طلبِ العلم.

وقريبٌ لك شيوعيٌّ أيضًا من قريةٍ بعيدةٍ يتردَّدُ على بيتِ الخالة، وكانَ زوجًا لابنةٍ لها، تتجادلونَ صباحَ مساء، وقد قلتَ له مرةً: إذا كان لا يهمُّكَ أمرُ الدين، ولا تعترفُ بالوحي، فلماذا تصلي؟ ولماذا تسمّي أولادكَ بأسماءِ المسلمين! فحلف وعاهدَ أن يسمّيَ ابنًا له جورج! (ولم يفعل).

فقلت: ولماذا تتعبُ نفسكَ وتقومُ الفجرَ وتصلي، والنومُ لذيذ، والماءُ بارد!

فهدأ قليلًا وقالَ: والله جرَّبتُ أن لا أصلي الفجرَ فلم أقدر، تعتريني حكَّةٌ ويصيبني القلقُ والأرقُ، فلا أرتاحُ ولا تزولُ عني الهمومُ إلَّا إذا صليتُ! فمن ثمَّ أهدأ وأنامُ!

وأثناءَ دراستِكَ في بيتِ الخالة، هرَّبَ ابنُها فتاةً بِكرًا من بيوتِ الجيرانِ إلى عامودا، على عادةٍ للأكرادِ قديمة، وأجبرتكَ الخالةُ أن تكونَ وسيطًا بين الفريقينِ المتخاصمين، وأنتَ غِرٌّ لم تُخبرِ الأمور. وانتهى الأمرُ بسلامٍ بعدَ أسابيع.

وحدثَ في الاختباراتِ الأخيرةِ للثانوية، من مادة الأدب العربي، أن حاولتْ مجموعةٌ من الزملاءِ الطلبة أن ينقلوا منكَ في القاعة، ولم يكتفوا بالنظرِ والاختلاس، بل رفعوا أصواتهم وتحركوا، قبلَ انتهاءِ الوقت. . . ، وفي أواخرِ الدوامِ جمعَ المراقبُ أوراقهم، بينها أوراقك، وسلَّمها للإدارة. وكان بين هؤلاءِ طالبٌ معروفٌ في المدرسةِ والمدينة، اسمه وليد، ووالدهُ شرطيٌّ معروفٌ يُكنى به، وكان الولدُ نكتيًّا حركيًّا، يقلدُ الناسَ وبعضَ المسؤولينَ في حركاتهم المميَّزة وأحوالهم المضحكة، أمامَ الطلبةِ والأساتذة، حتَّى إنه كان يمثِّلُ لقطاتٍ قصيرةً عن والده، منها كيفيةُ قبضهِ الرشوةَ من الناس، وخاصةً الدجاج، الذي كان مرغوبًا جدًّا في ذلك الوقت. ويبدو أن والده كان على علمٍ أو موعدٍ من الأمر، فلم تمضِ مدةٌ حتَّى كان موجودًا في إدارةِ المدرسة، وأنهى الأمرَ بسلام، وأعيدتِ الأوراقُ إلى أماكنها.

* * *

أساتذة وزملاء

ومن أساتذتِكَ في الثانويةِ «شكري إبراهيم حسن» مدرِّسُ التربيةِ الإسلاميَّة، من قريةِ «حُلوة»، وقد درَّسكَ أيضًا في أواخرِ المرحلةِ الإعدادية. وهو ذو كلامٍ سلسٍ مشوِّق، صبيحُ الوجهِ، ليِّنُ العريكة، كرديٌّ قوميّ، يفسِّرُ أشياءَ كثيرةً لصالحِ القوميَّة، حتَّى كلماتٍ عربيَّةٍ يقولُ إن أصلها كردي، فكنتم تتندَّرون بذلك! لكنه لا يخلو من بحثٍ وحدسٍ وفراسةٍ في هذا الجانب، فهو الذي أشاعَ خبر قوميَّةِ نفرتيتي الكرديَّة، وعندهُ قائمةٌ طويلةٌ بأسماءِ أعلامٍ مشهورينَ في القديمِ والحديثِ من الأكراد، لا يعرفهم القارئُ العاديُّ أنهم كذلك. ومن طريفِ ما سمعتَهُ منه، أنه قال لمدرِّسٍ مصريٍّ من الصعيد: إن ظهرك، أو شكلكَ من الخلفِ يُشبهُ الأكراد. فضحكَ المدرِّس، الذي لم يعرف سوى أنه مصريٌّ وكفى، وعندما ذهبَ في إجازةٍ إلى بلده، خطرَ له أن يسألَ كبيرَ معارفهِ عن أصله، وكان شيخًا كبيرًا في السنّ، فأجابهُ الشيخُ بأنهم حقًّا من الأكراد! فدُهشَ المدرِّس، الذي لم يكنْ يعرفُ أصله، ولم يتوقَّعُ ذلك!

واهتمامهُ بالشأنِ القوميِّ يعلو على الشأنِ الإسلامي، بل كادَ أن ينحصرَ فيه، على الرغمِ من هيئتهِ الإسلاميَّة، وكونهِ مدرِّسًا عريقًا

للتربيةِ الإسلاميَّة، وتكادُ الغايةُ عندَهُ أن تبرِّرَ الوسيلةَ إذا كانت لصالحِ الأكراد، وقد تجاوزتْ اهتماماتهُ القوميَّةُ خارجَ نطاقَ بلده، واشتُهرَ بذلك.

وقد عشتَ معهُ زمنًا، داخلَ المدرسةِ وخارجها، وتأدَّبتَ بكلامهِ عندما كنتَ فتىً مراهقًا، ووافقتهُ في الوجهةِ القوميَّةِ عندما كنتَ في تلكَ السنّ، ثم خالفته. وقد تركَ بلدَهُ إلى السعوديَّة، لعلهُ هروبًا من مشكلاتٍ سياسيَّة ضيَّقتْ صدره، وصار مسؤولًا عن الجاليةِ الكرديَّة فيها (بالرياض).

وذكرتَ له مشروعًا أهمَّكَ أمرهُ في مجلسِ عزاء، وهو عن جمعِ تراجمِ العلماءِ الأكرادِ في الجزيرة، فأشارَ برأسهِ مستبعدًا أو منكرًا هذا العمل، ربَّما لأنهُ لا يصبُّ في مشروعِ (القوميَّةِ) أولًا، أو أنه (خلطٌ) بين القوميَّةِ والدين، الذي لا يرضاه.

* ومنهم «مرعي العامر» من عرطوز قربَ دمشق، مدرِّسُ التربيةِ الإسلاميَّةِ، وقد أحدثَ حركةً ووعيًا في البلدةِ لم يُحدثها أحدٌ مثله، فقد كان جريئًا لا يهابُ أحدًا ولا يتنازلُ عن حقٍّ له، ورُفعتْ فيهِ تقاريرُ لم تؤذهِ بفضلِ الله، وكانَ ينبِّهُ الرجالَ والشبابَ إلى المخاطرِ التي تواجههم، ويخطبُ في الجامعِ كثيرًا.

وعندما انتهتْ مدَّتهُ في التدريسِ ارتبطَ بالزراعةِ هناك، لكنهُ لم يوفَّق فيها، فقد اشترى جرَّارًا زراعيًّا وتعاقدَ مع طالبٍ لهُ (عبد الصمد) للعملِ عليه، وكان غِرًّا، فوقعَ الجرارُ في وادٍ وانكسرَ ظهر السائقِ وشُلَّ، فأنفقَ عليه الكثير، ولعلهُ تركَ الزراعةَ من بعد.

وكان متواضعًا جدًّا، يضحكُ أمام طلابهِ حتَّى يهتزَّ جسمهُ كلُّه، وكان به سِمَن، ويبادلهُ محبُّوهُ الاحترامَ والتقدير، وسقطتِ التكلفةُ بينهم حتَّى كانوا يدخِّنونَ أمامَهُ وهو لا يمنعهم، والتدخينُ منتشرٌ بين كلِّ الناس. واستفدتَ منه درسًا لا يُشترى بمال، عندما كنتَ في زيارةٍ إليه مع أترابٍ لك، ولكَ قدّاحةٌ (ولّاعة) جميلةٌ جدًّا، مصنوعةٌ من معدنٍ لطيف، على هيئةِ قلم، أهداها إليكَ ابنُ خالتِكَ (نذير) من بيروت، وكنتَ تدخِّن، ولا تدري كيف جاءَ الحديثُ عنها، فقلت: إنها أحبُّ شيءٍ إليك؛ فقالَ بصوتٍ هادئٍ وهو ينظرُ إليك: يجبُ أن يكونَ اللهُ ورسولهُ أحبَّ إلى المسلم من كلِّ شيء. ولعله ساقَ حديثَ رسولِ الله ﷺ الصحيح: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه من والدهِ وولدهِ والناسِ أجمعين**». وفي صحيحِ البخاريِّ أيضًا: «**لا يجدُ أحدٌ حلاوةَ الإيمان حتى... وحتى يكونَ اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه ممّا سواهما**». فصمَتَّ صمتًا كادَ أن يقضيَ على نفَسك... ولُمتَ نفسكَ كثيرًا من بعد، والذي تذكرهُ أنكَ كرهتَ تلك القدّاحةَ من بعد، ولا تدري مصيرها.

* ومنهم أستاذُ اللغةِ العربيَّةِ «أديب النجار» من حمص، في شارعِ أحمد بن فارس، وكانَ كبيرًا في العمرِ ولم يتزوَّج، اجتماعيًّا، يجمعُ بينَ اللهوِ والصرامة، يشدِّدُ على الطلابِ فيهابونهُ كثيرًا، ويخرجُ معهم إلى المتنزَّهاتِ والمجالسِ والسهرات، وكان يحبُّكَ لاهتمامكَ باللغةِ العربيَّة، وقد راسلتَهُ كثيرًا من بعد، وأرسلَ إليكَ أنهُ أُصيبَ في حربِ تشرينَ وقُطعتْ رجله.

* ومدرِّسٌ لم تتلقَّ عليه العلم، ونسيتَ اسمه، ولعلَّهُ (علي

أبو ذراع) أو غير هذا الاسم. كان ينظِّمُ شعرًا قويًّا من بحورٍ صعبة، ويُلقيها بفصاحةٍ عجيبةٍ في المناسبات، وربما كان من الحسكة، أو من حوالي الرقَّة، وكأنه تزوَّجَ من البلدة؟ ولم تعرفْ أخبارهُ من بعد، وكان في حدودِ سنةِ ١٣٨٩هـ.

* ومنهم «عبد الرحمن نوري عبدو» من قريةِ «تل حَسَنات» القريبةِ من البلدة، درَّسَ مادتي الإنجليزي والعلومِ فصلًا واحدًا وأنتَ في الأولِ الثانوي، وكانَ يدرُسُ الطبَّ في حلب، فتركَ الجامعة ليدرِّسَ ويتموَّلَ حتَّى يقدرَ على متابعةِ دراستهِ، وقد تخصَّص في الأمراض الباطنية، وصارَ طبيبًا مرموقًا في دمشقَ والقامشلي، ثم الطائف، وأخيرًا استشاريَّ أمراضِ القلبِ الداخليةِ في مستشفى عبيد التخصصي بالرياض. وله حكاياتٌ مؤلمةٌ مع المرضى، وذكرَ أنهُ تركَ القامشلي للعلاقةِ الصعبةِ بين الطبيبِ والمريضِ، حيث لا يمتلكُ مصاريفَ العلاجِ فيتألمُ هو... وربما ضُيِّقَ عليه من طرفِ حزبٍ قوميٍّ فتركَ عملَهُ هناك.

وهو ذكيّ، هادئ، متواضع، لديهِ ذكرياتٌ مُرَّةٌ عن الواقع، لم يستسلمْ لها، تجدهُ ذا إرادةٍ قويَّة، مبتسمًا، يعيشُ عالمَ مرضاهُ بتفانٍ ما عرفهم محتاجين إليه، فإذا جزعوا دونَ داع، أو تدلَّلوا، تركهم.

وهو سلسٌ في كلامه، لا تعوِّقه كلمةٌ عن الإفصاحِ والتعبيرِ والحوار، بالعربيَّةِ والكرديَّة، ولعلهُ بالإنجليزيةِ أيضًا.

وكان من التلاميذِ الذين جلسوا على الصفائح، وذكرَ أنه لم يكنْ هناك لوحٌ يشرحُ عليه المعلِّمُ، فجيءَ بلوحٍ خشبيٍّ من جنوبِ الردِّ

لم يكنْ له لزومٌ هناك!! وأنهم كانوا نحوَ (١٥) تلميذًا، لم يكملْ دراستَهُ منهم سواه.

* و«خضر كريدي» مدرِّسُ رياضياتٍ ناجحٌ، من إحدى القرى القريبةِ من البلدةِ، تركَ التدريسَ ليكملَ دراساتِهِ العليا في حلب، ربَّما بترشيحٍ من حزبِ البعث، فقد كان منتميًا إليه. وكانَ حدثًا علميًّا له قيمتهُ آنذاكَ، فكانَ أولَ «عربي» يتجاوزُ المرحلةَ الجامعيةَ في الدراسةِ من حولكم، وأثناءَ تدريسهِ كان مستأجرًا بيتًا قريبًا من داركم... وقد التقطتَ منه حكمة في إحدى ساعاتِ تدريسه، عندما عاتبتهُ طالبةٌ في الصف، فاعتذرَ لها، فعادت إلى معاتبته، فقال لها معتذرًا مرة أخرى مع شيء من التأنيب: الاعترافُ بالخطأ فضيلة.

* لكنْ تذكرُ أن أقدمَ معلِّمٍ عربيٍّ للمرحلة الابتدائية من القرى التي حولكم اسمهُ «حمزة هجُّو الرافع»، مؤدَّبٌ متواضع، كثيرًا ما يكلَّفُ بأعمالٍ إحصائيَّةٍ في القرى، ولعلَّهُ استقرَّ بالبلدةِ من بعد؟ وكانتْ بينكما معرفةٌ جيِّدة، وكذا بين والدِكَ ووالده.

* أما أقدمهم من بين الأكرادِ فهو «عثمان سكفان»، وكانَ أكبرَ بكثيرٍ من السابق، لم يدرِّسك، ولعلهُ كان يدرِّسُ في القرى، ثم استقرَّ بالبلدةِ ودرَّسَ فيها المرحلةَ الابتدائيةَ أيضًا، ثم درَّستما معًا مادةَ التربيةِ الإسلاميَّةِ في إعداديةِ فايز منصور، وكانَ متواضعًا، ذا أدبٍ وخُلق، يُقبِلُ على جليسهِ ويبتسمُ له، يجدُ صعوبةً في متابعةِ الكلام، ربَّما لعيبٍ خَلْقيٍّ في لسانه، وكان والدهُ قد أتى مع آل حاجو من تركيا، وله مكانةٌ عندهم، والأستاذُ عثمانُ كان ذا وجاهةٍ في البلدة، لتاريخهِ

التربويّ، ولمكانتهِ عند الأسرةِ المذكورة، ولأمورٍ قوميَّة، وكانتْ صلتهُ بالشبابِ أكثرَ من صلتهِ بأقرانه. ماتَ سنةَ ١٤١٤هـ. ذُكرَ أنهُ قالَ لمن حولَهُ وهو في دمشق: أعطوني قلمًا لأكتبَ وصيَّتي، فقد جاءَ الأجل؛ فكتبَ وصيَّتَهُ ومات. وكان ينتظرُ وصولَ الطبيب، فسلَّمَ الروحَ لبارئها قبلَ وصوله.

ولعلَّ من طبقةِ الأستاذِ عثمانَ في البلدة، أو بعدَهُ بسنوات، المدرِّسون: كيمور جميل حاجو، ومحمد صالح درويش، وبعدهما عبد الرحمن عزيز ظاظا، وكان الأخيرُ جارًا لكم، يدرِّسُ في القرى كذلك.

ولا تعرفُ أحدًا من زملاءِ الدراسةِ في بلدتكَ نبغَ أو تركَ أثرًا علميًّا لتذكره، عدا الآتي منهم، لعله لبعدِكَ عنهمْ، فقد كان بينهمْ أذكياءُ وأوائلُ، ولم تكنْ أنتَ من بينهم.

* وكانَ من أذكى الطلبةِ «حسين قاسم» من قريةِ «مِزْكَفْت» القريبةِ من البلدةِ، وتعني «المسجد»، لم تشفعْ له درجاتهُ العاليةُ وقدرتهُ على حلِّ مسائلِ الرياضياتِ العويصةِ من الغمزِ واللمزِ من قبلِ زملائه، لا لشيءٍ سوى لأنه لم يكنْ منضويًا تحتَ مظلةِ حزبٍ كردي!

وقد سمعتَ من بعدُ أنه تخصَّصَ في دراسةِ النفط، وتعيَّنَ في «رميلان»، فضيَّقوا عليه، حتَّى تركهم وذهبَ إلى هولندا، فلما رأوا أوراقَهُ وخبرتَهُ منحوهُ الجنسيَّةَ الهولندية مباشرةً، وجعلوهُ خبيرَ نفطٍ عالميًّا!

وكانَ يسبقكَ بسنةٍ.

* وأخوهُ «فرماز» ما كانَ يقلُّ عنه ذكاء، يدرسُ معكَ، أشقرُ أزرقُ العينين، خلوقٌ هادئ، سريعُ المشي، كثيرُ الابتسام، يضحكُ لأدنى نكتة، أو حتى لم تكنْ نكتة! ذُكرَ أنه صارَ طبيبًا جراحًا ماهرًا في القامشلي، ولا تدري كيف اختارَ هذا التخصُّصَ وهو رقيقُ المشاعر، ما رأيتَهُ يجرحُ شعورَ أحد، ثم صارَ يجرحُ أجسادَ الناس!

* ومحمد علي شيخموس شرُّو، كان صديقًا في الدراسة، مخلصًا، مؤدَّبًا، محترمًا، لا يجرحُ أحدًا، ذُكرَ أنه أفضلُ مدرِّسِ رياضياتٍ في المنطقةِ أو المحافظةِ كلِّها، وأنه عبقريٌّ في هذه المادَّة، وأنه يقتصرُ في التدريسِ على الدوراتِ دون النظاميِّ منه، وقد تزاورتما كثيرًا، وليتَهُ أكملَ دراستَه.

* وكانت الأذكى بين الطالبات هي «بديعة جميل حاجو» التي لم تكنْ مجتهدة في دروسها فقط، بل كانت رسّامة ماهرة، وكانت المدرسةُ تحتفظُ بلوحاتها وتزيِّن جدرانَ غرفٍ بها. وشقيقها «برزان» كان عكسها!

* وكانَ أبرزَ أصدقائكَ عبدُالرحمن محيي الدِّين أحمد من قريةِ ليلان، وقد تعرَّفتما بواسطةِ الرجلِ الصالحِ حسين سعيد، الذي ماتَ ولم يُنجب، مذ كنتَ في الخامسِ أو السادسِ الابتدائي، وكان هو في الأولِ الإعدادي. تآخيتما إلى درجةٍ كبيرة، فما كان أحدكما ينقطعُ عن الآخر، وفي الصيفِ تتزاورانِ كلَ أسبوعٍ تقريبًا، وكان ديِّنًا منذ صغره، لا تفوتهُ صلاة، ووالدتهُ أمَةٌ صالحةٌ تعتني به، وهم من السادة، وكان حليمًا، متواضعًا جدًّا، عارفًا بالأصولِ والأعرافِ

والآداب، سخيًّا كريمًا مع قلَّةِ ذاتِ اليد، دائمَ النصح، لا يؤذي أحدًا، وإذا أوذيَ هو تجرَّعَ الصدمةَ وكظمَ الغيظَ ولم يؤذِ. وله فضلٌ عليكَ بعد الله في إرشادِكَ وتبصيرِكَ بالأمور.

وكان مثقفًا مطَّلعًا على أحوالِ المجتمعِ وظروفهِ السياسيَّة، ذا نظرةٍ وتوجيهٍ وتحليلٍ في محيطهِ القومي، ولذلك كان محترمًا ومقدَّرًا عند الآخرين، يُهرَعون إليه في حلِّ خلافاتهم، يثقونَ به ثقةً مطلقةً ولا يكادونَ يرضونَ به بديلًا؛ لإخلاصهِ وحكمته. وهو الذي حبَّبَ إليكَ العملَ القومي، والتفاعلَ الأدبيَّ معه، وقد تباينتْ مواقفكما السياسيَّةُ من بعدُ دون أن تؤثِّرَ على صداقتكما، فما عرفتَ منه سوى الوفاءِ والمحبَّةِ في المنشطِ والمَكره، وما زالَ على عهده. وقد استوطنَ دمشقَ منذ أن أكملَ دراستَهُ الثانوية، في قصَّةٍ طويلةٍ مع العمل المرهقِ والغربةِ الطويلة، كما تركَ العملَ السياسيّ.

ومن لطيفِ ما اتفقتَ عليهِ مع أخيكَ عبد الرحمن: أن يبدأ أحدكما باللبنِ إذا وُجِدَ على المائدةِ، وأن لا ينتمي أيٌّ منكما إلى منظمةٍ سياسيَّةٍ إلَّا بعدَ مشاورةِ الآخرِ، وأن يسمِّيَ كلٌّ منكما ولدَهُ باسمِ الآخرِ إنْ تزوَّجَ ووُلِدَ له. وقد نفَّذَ صديقُكَ الاتفاقَ الأخيرَ ولم تنفِّذه. ولمزيدٍ من الخصوصيةِ في صداقتكما كانت لكما طريقةٌ مميَّزةٌ عند اللقاء، وهو أن يمدَّ كلٌ أصبعَ الشهادةِ على ساعدِ الآخرِ إذا صافحه!

ثم تآخيتما مع شخصٍ آخرَ من قريةِ «كري بري» التي ولدتَ بها، وقد عاشَ بينَ الأسرةِ سنواتٍ كأنه واحدٌ منكم، وكان محبوبًا،

ووضعتم شروطًا لهذه الأخوَّة، ولكنهُ لم يلتزمْ بها، حيث صارَ شيوعيًّا بعد نحوِ سنتين، فتركتماهُ إلى غيرِ رجعة، وقد عاشَ حياتَهُ في فقرٍ وشقاءٍ وتعاسةٍ ومرضٍ ومشكلاتٍ أسريَّةٍ معقَّدة، حتَّى هويَّتهُ سُحبتْ منه فصارَ أجنبيًّا! وذُكرَ لكَ بعدُ أنه ترك الحزبَ الشيوعي، وصارَ يصلي ويقرأ القرآن، يعني وهو يخطو إلى الستين. وقد توفي في ٢٩ رجب ١٤٣٤هـ، ٨ حزيران ٢٠١٣م، فكان أول أقرانكَ وفاة.

* ولا بدَّ من العروجِ على «الخال» حسين سعيد رحمهُ الله، الذي صادقَ بينكَ وبين عبد الرحمن، فقد كان لطيفًا محبوبًا عند الشباب، على الرغمِ من كبرِ سنِّه، يُحادثهم على مستوى عقولهم، ويتبسَّمُ لهم، ويسردُ عليهم ذكرياته، ويحثُّهم على طاعةِ اللهِ وذكره، ويدلُّهم على الأصدقاءِ الطيِّبين.

وكان لكَ نصيبٌ كبيرٌ من اهتمامهِ من بعد، يشجِّعكَ على المضيِّ في طريقِ الدعوة، ويخفِّفُ عنكَ ما تلاقيهِ من إعراضِ الناسِ واستهزاءِ مثقَّفيهم، ويُسمعُكَ قصصًا وطُرَفًا في ساحةِ المسجدِ قبل إقامةِ الصلاةِ خاصَّة، وهو لا يفتُرُ عن التسبيحِ والذكرِ بالسُّبحة، ففواصلُ كلامهِ كلُّها ذكر، حتَّى لو كانتْ أقلَّ من نَفَس!

وكان ينصحُ من يشكو من شدَّةِ العطشِ في شهرِ رمضان أن يُكثرَ من قراءةِ القرآن، فكانوا يقرؤونهُ فيقلُّ عطشهم كثيرًا!

وقد أُجريتْ له أكثرُ من عمليَّة، وكان يذكرُ للشبابِ مشجِّعًا أنه أُجريتْ له عمليَّةٌ في البطن بدون تخدير، وأنه لم يتأوَّهْ من ذلك.

ومن طرائفهِ العديدةِ التي لا تنساها، ما ذكرهُ عن أحدِ معارفه، من أنه كان يستعملُ في كلامهِ كثيرًا لفظَ (مع الأسف)، فسألَهُ أحدهم قائلًا: إنكَ تستعملُ هذه الكلمةَ كثيرًا، فما معناها؟ ففوجئَ بذلك، وبقيَ مشدوهًا مدَّة، ثم قال في تلعثمٍ وبعد لأي: هو شيءٌ دائريٌّ يُشبهُ التفّاحة! ولم يكنْ يُتقنُ العربيَّة.

وزوجتهُ الخالة «فريدة» كانتْ دايةَ البلدةِ كلِّها، وكانتْ قابلةَ الأولادِ الثلاثةِ الأُوَل: الزبير وأنس وصهيب، لا ينسى فضلَها أهلُ البلدة، ولم تدمْ بعد زوجها طويلًا.

وكنتَ مسالمًا في حياتِكَ كلِّها، ومازلت، مع أصدقائكَ وغيرهم.

ولم تتعرَّفْ بلدَكَ بشكلٍ جيِّد، لقلَّةِ ذاتِ اليد، ولقصرِ المدَّةِ التي بقيتَ فيها، فما تجوَّلتَ سوى في دمشقَ وحلبَ وديرِ الزورِ والقامشلي وعامودا والدرباسية، وبعضِ القرى من حولك، ومررتَ بمدنٍ أخرى.

وكان إذا تجمَّعَ لديكَ شيءٌ من المالِ فضَّلتَ شراءَ الكتب، وهذا أيضًا إذا زادَ عن حاجةِ الأسرة.

وطوالَ بقائكَ في سوريةَ أيضًا لم تتمكنْ من السفرِ إلى خارجها؛ لعدمِ إعطائكَ جوازَ سفر، ماعدا لبنان، حيث تكفَّلَ شخصٌ بأن يوصلكَ إلى بيروتَ بـ «إخراج قيد» أجنبي، أو «شهادة تعريف»، فتمَّ ذلك، وعملتَ مدَّةَ أسبوعٍ في معملِ «كونسروة» هناك، وصرتَ في موقعٍ جيد، مما أثارَ حسدَ زملاءَ لكَ في العمل، فحسَّنوا لك الخروجَ على الإدارةِ إلَّا إذا زيدَ في راتبك، فلم تفعلِ الإدارةُ ذلك، فتركتَ

العمل، ثم جاءَ الذين مكروا بك إلى موقعِكَ الذي كنتَ فيه، فكان درسًا لك بأن تتنبَّهَ إلى ما يُحاكُ من مؤامرات، وتحسبَ حسابَ الحسد، ولا يغرَّنكَ اللسانُ المعسول.

وكنتَ في بيروتَ عند أولادِ عمِّ أبيكَ الذين جاؤوا من تركيا للعملِ هناك، وكانت لكَ أختٌ هناكَ وخالةٌ وأولادها، فلم يسمحوا لك بلقائهم، خوفًا من أن يصلَ الخبرُ إلى بعضِ المناوئينَ للوالدِ فيؤذونك، وكانت هناك عداواتٌ قديمةٌ بين الأسرةِ وغيرها. . . .

وفي الثانويةِ كان هناك معسكرٌ صيفيٌّ في بلدةِ «رأسِ العين» الجميلة، المعروفةِ تاريخيًّا، ويُعرفُ المنسوبُ إليها بـ «الرَّسْعَني»، فيها ينابيعُ متفجِّرة، وأنهارٌ عذبة، وحدائقُ غنّاء، ومررتم بمقهى صيفيٍّ هناك كان عبارةً عن بستانٍ يمرُّ من تحته نهرٌ صافٍ منبسط! وكانت أرضهُ من الرملِ الناعمِ والحصى، والماءُ الرقراقُ يداعبها، والأشجارُ المتفرِّقةُ منحنيةٌ عليها، وظلالها تنقشُ على المياهِ لوحاتٍ متحرِّكةً رائعةً، ولا يملكُ أحدكم سوى أن يبتسمَ ويقول: جناتٌ تجري من تحتها الأنهار!

* وقد تعرَّفتَ فيه على بعضِ الأصدقاء من الجزيرة، منهم شابٌّ تحتفظُ بصورتهِ وعليها اسمه (عبد الله محيي الدِّين عبد الله)، من قريةِ «كاسان» قربَ ديريك (المالكية)، أعطاكَ صورتَهُ وكتبَ في ظهرِها:

وإذا هزَّك شوقي يومًا لكي تراني فهذا خيالي ناطقٌ عن لساني

وكان يُضفي على قراءتهِ اللهجةَ الكرديَّةَ الكوجرية، بحيث تلفظُ الألفُ قريبًا من الواوِ الأجنبيةِ المفخَّمة، فتضحكون.

* ومنهم زميلٌ عزيزٌ راسلتَهُ سنوات، وزرتَهُ في قريتهِ قربَ الحسكة، وتبادلتما الهدايا، وخاصَّةً الكتب، اسمه «محمود إبراهيم خليل» وكان يقولُ إنه يحبُّ أن تكونَ شهرتهُ «الخليل» أو «خليلي» وقد انقطعتْ عنكَ أخباره، بعد أن درسَ هو الجامعةَ في حلبَ متخصِّصًا في الاقتصاد ـ ظنًّا ـ وأنتَ درستَ الشريعةَ في دمشق. وعندما كنتَ في السعوديَّةِ وقفتَ على مجلةٍ بين أسماءِ محرِّريها اسمهُ «محمود إبراهيم خليلي» فطلبتَ من بعضِ الأهلِ أن يتَّصلوا به هناك، فلم يصلوا إليه؛ لتغيُّرِ الرقم. وذُكرَ لكَ أن جميعَ رسائلهِ أُحرقت، وقد كادتْ أن تملأ محفظة!

ومن أجملِ ما تذكرهُ في ذلك المعسكرِ عندما كان يومَ الجمعة، أنْ تجهَّزَ ضابطٌ للذهابِ إلى صلاةِ الجمعة، وكان من دير الزور، فصحبَهُ نحوُ عشرةِ طلابٍ أو أكثر، كنتَ بينهم، وما زلتَ تذكرُ موضوعَ الخُطبةِ، الذي كان حولَ الخلافِ في رفعِ اليدِ بالدعاءِ أثناءَ الخُطبةِ خاصَّة!

وكان من بين المدرِّبينَ واحدٌ يسمَّى «المرشَّح كينجو»، ولعلَّ اسمَهُ محمود، ذكرَ لكم أنه الوحيدُ في سوريةَ الذي بقيَ بهذه الرتبةِ العسكرية، وأنه لا يرتقي إلى أعلى منها لأنه كرديّ!

ولعلَّ من المناسبِ أن تذكرَ هنا أنه لم ينبغْ أحدٌ في القحطانيةِ في علمٍ أو غيرهِ حتَّى تكتبَ عنهم، سوى المناصبِ الحزبيَّةِ غيرِ المشرِّفة، ولم يكنْ للأكرادِ فيها نصيبٌ طبعًا، بل كلُّها للنصارى والعرب؛

لكنْ ذكرتَ أمرَ جميل حاجوا وإشرافهِ على مجلةِ «السلام»، وكذلك مجيد حاجو واهتمامهِ بالثقافةِ الكرديَّة.

* ثم إنه كان شابٌّ لعلَّ اسمَهُ «إلياس عنتر» يكبرُكَ بنحوِ سنتين، من حارةِ النصارى القريبةِ منكم، سُمِّيتْ بذلك لأن كلَّ أهلها من النصارى. كان يراسلُ مجلّاتِ الأطفال، ولعلهُ يراسلُ أصدقاءَ هواةً عن طريقها، أو يكتبُ لها ـ ظنًّا ـ كلمات. وكان مزّاحًا أيضًا. تذكرُ أن مجلةَ أطفالٍ نشرتْ صورتَه، فكان يأتي بها إلى السوقِ ويُريها الناسَ ويقول: هل تعرفونَ صاحبَ هذه الصورة؟ ولعلَّ ذلك كان وهو في الثانوي. كما تذكرُ أنه ـ وأنت في الجامعة ـ كتب مسرحيةً أو أكثرَ لتمثَّلَ في قاعةِ السينما بالبلدة، بينها واحدةٌ بعنوان «جلاها حَمَد» باللهجةِ العربيَّةِ (الشاوية)، تعني الجيمَ الأولى، يعني «أكلها حَمَد»، ويبدو أن ذلك كان من نوعِ العبثِ وما إليه. ولم تعرفْ صدورَ كتابٍ له، أو كتاباتٍ رصينةً أثناءها، ولم تعرفْ أخبارَهُ من بعد.

* * *

على أبواب العلم الرفيع

أتذكرُ يومَ نجحتَ في الثانويةِ كيف اجتمعَ في قلبكَ فرحةُ النجاحِ وحزنُ الفشل؟

ذلك أن صديقكَ الودودَ عبد الرحمن، الذي كنتَ تحبُّه حبًّا جمًّا، لم يُكتبْ لهُ النجاحُ للمرَّةِ الثانية، وفوجئتَ به يحملُ إليكَ الهدايا في اليومِ التالي، ويهنِّئكَ من كلِّ قلبه، فما كنتَ تعرفُ كيف تتصرَّف.

ثم التهبتِ الأفكارُ في رأسك، فما كنتَ تدري ماذا تسجِّل، وأيَّ تخصُّص تختار؟ حتَّى قذفَ اللهُ في قلبكَ أن تسجِّلَ «الشريعة»، مع أنهُ لم يسجِّلْ أحدٌ من بلدتِكَ في هذا التخصُّص، ولا تعرفُ أحدًا فيها انتسبَ إلى هذه الكليةِ الفريدةِ بجامعةِ دمشق، وقد لا تعرفُ نتيجةَ هذا التصرُّف، ومستقبلَ هذا العلمِ غيرِ المحبوبِ لدى مجتمعٍ قليلِ المعرفةِ بقيمةِ دينه، وحكومةٍ علمانيةٍ لا تعطي قيمةً لأهله... ولكنكَ ازددتَ إصرارًا، وعزمت، فتوكلتَ على الله....

كما زادتِ الهجمةُ عليكَ بعد أن أحكمتَ العقد، وأرسيتَ القاعدة، وانتهى كلُّ شيء. وكنتَ غضًّا طريًّا، وشابًّا حييًّا، يجتمعُ في

محيَّاكَ فورةُ الدمِ بمجرَّدِ ملامسةِ شعورك، حتَّى صرتَ تتجنَّبَ الخوضَ فيهِ مع آخرين، وإذا سألكَ من غابَ عنكَ مدَّةً وعادَ إلى لقياكَ بشوق، استحييتَ أن تذكرَ لهُ دراستكَ الجامعية، حتَّى لا تتجدَّدَ أحزانك، من امتعاضِ صديقٍ حميم، ومعاتبةِ خلٍّ وفيّ، وتأفُّفِ مثقَّفٍ أو مدرِّس، حتَّى كنتَ تورِّي أحيانًا، ولا تذكرُ تخصُّصَكَ مباشرة!!

وكان هناك شخصٌ أكبرُ منكَ يحترمك، من المثقفينَ الأوائل، وأصحابِ النشاطِ القوميِّ الزائد، حتَّى فُصِلَ من المدرسةِ وهو بآخرِ السَّنةِ الثانويةِ من أجلِ ذلكَ، وعندما سألكَ عمّا سجلته، فقلت: «الشريعة»، انجفلَ واستنكر! وهو الآنَ سكرتيرٌ لحزبٍ معروف.

❊ ❊ ❊

شيء لا بد منه

وها قد اقتربَ الرحيلِ.. وجاء موعدُ التسجيل..

والدُكَ أكثرُ همًّا منكَ، على الرُّغم من الفرحةِ التي تغمُرُ قلبَهُ لنجاحك. فالسفرُ إلى العاصمةِ لا بدَّ له من زاد، وزادُكَ هذه المرَّةَ نقود... مصاريفُ التسجيل، والانتقال، والنوم، والأكل... وأينَ هي؟

أنتَ تذكرُ هذا جيّدًا، فما زالتْ الحادثةُ محفورةً في ذاكرتك، هي من أبرزِ الأمورِ في حياتك، فلو لم يوفِّرْ لكَ والدُكَ مؤنةَ تجهيزك.. لكنتَ الآن حارسًا، أو عتّالًا، أو كسّارًا.... .

ومن أينَ لوالدِكَ أن يوفِّرها لكَ ومعارفهُ من أمثالهِ في حالته؟

لقد توجَّهَ إلى نصرانيٍّ كانَ يعملُ إسكافيًّا، وطلبَ منهُ المبلغ، على أن يسدِّدَهُ قريبًا، فوافق.... .

وأنتَ لا تنسى صورةَ ذلك الإسكافِ الذي حفرَ الجُدَريُّ في أنحاءِ وجهه، وهو لا يفتأُ يقطعُ جلدًا أو يدقُّ مسمارًا، لا يكادُ يشعرُ بما حوله لانهماكهِ في عمله، ويعيشُ على الدوانقِ والملاليم... فكيف تمَّتِ الموافقة، وأنَّى جاءَ هذا التوفيق؟

بلى، إن الله إذا أرادَ شيئًا هيّأ له أسبابه.

* * *

حسب الله

اتفقتَ مع زملاءَ لكَ على السفرِ معًا للتسجيلِ في جامعةِ دمشق، وفي موقفِ الحافلاتِ تعالتْ ضحكاتكم وأنتم تسمعونَ اسمًا جديدًا لم تألفوه، إنهُ «حسب الله»، الذي يناديهِ السائقُ كلما أرادَ تنظيمَ أمرٍ أو تعديلَ إجراءٍ على الحافلة، التي ستقلُّكم من مدينةِ القامشلي إلى حلب، ومنها إلى دمشق. وركبتم وأنتم ما تزالونَ تضحكون، بل وتسخرونَ وتستهزؤونَ من صورتهِ الدائرية، ورأسهِ الصغير، وقامتهِ. . . ، وجسمهِ النحيف، وحركاتهِ السريعةِ كالعصفور!

وصلتم إلى حلب، وركبتم حافلةً جديدةً لتوصلكم إلى دمشق، وفي وسطِ الطريقِ نزلتم في استراحةٍ، ومددتَ يدكَ إلى جيبك، فإذا بكَ قد فقدتَ جميعَ نقودك!

وكان موقفًا عصيبًا لا يتصوَّرُ وقعهُ على شابٍّ في مثلِ حالك، وانهارتْ قواك، وانقلبتَ إلى قطعةِ حزنٍ، وكومةِ همّ، لا تعرفُ كيفَ تتصرَّف!

ورجَّحتَ أن تكونَ النقودُ قد سقطتْ من جيبكَ عندما علَّقتَ معطفكَ على الكرسيِّ الذي تقعدُ عليهِ في الحافلةِ التي أقلَّتكَ إلى

حلب! واتفقَ الأصدقاءُ أن تعودَ إلى حلب، وتراجعَ صاحبَ الحافلة، وهم يكملونَ طريقهم إلى دمشق.

راحوا، وبقيتَ وحيدًا في الطريقِ العامِّ في ليلٍ مدلهمّ، لا ترى سوى أنوارِ السياراتِ تضيءُ وتنطفئ.

وكانَ موقفًا لكَ واستكانةً إلى الله لا تنساه!

«اللهمَّ إنِّي اخترتُ سبيلَ دينِكَ فلا تخذلني، ولا تحرمني توفيقك، فرِّجْ كربي وأغثني يا الله».

وكانت الدموعُ تنهمرُ من عينيك، ويرتجفُ جسدُكَ كلُّه... عندما تذكرُ والدكَ الفقيرَ وكيفَ وفَّرَ لكَ هذا المبلغ، وأصدقاؤكَ أكملوا طريقهمْ وأنتَ قد عدت!

وفي حلب، ذهبتَ إلى الضّابطِ المناوب في «الكراج»، وحكيتَ له القصَّة!

وقلتَ لهُ: إنَّني لا أعرفُ اسمَ أحدٍ سوى «حسب الله زيدون»!

وخرجتَ من المكتب.. ولم تخطُ خطواتٍ حتَّى رأيتَ ذلك الشخصَ ماثلًا أمامك! إنهُ ذلك الشاب بأوصافهِ التي كنتَ تسخرُ منها، وتضحكُ مع زملائكَ عليه!

هاه! أنتَ حسب الله؟! أرجوكَ ساعدني، لقد فقدتُ محفظتي وفيها نقودي كلُّها... أرجوك... هل رأيتَها؟ هل نظَّفتَ الحافلةَ؟ أهي موجودةٌ هنا..؟..؟

قالَ لك: وكيف هي محفظتك، وكم نقودك؟

فأخبرته، بذلك، فقال: هي موجودةٌ عندي بكاملِ الوصفِ والعدّ!

قلت: لكنْ بالله عليك... كيف أتيتَ إلى هنا.. ولماذا؟

قال: والله كنتُ جالسًا في بيتي وأنا متعبٌ ومرهقٌ من السَّفر، أردتُ أن أستريحَ وأنام، ولكن كأن ألفَ شخصٍ كان يدفعني من سريري لآتي إلى هذا المكان، ولا أعرفُ أي سببٍ لذلك!!

وأحضرَ النقودَ كلها ووضعها بين يديكَ وهو يبتسم، ولم يقبلْ منكَ درهمًا واحدًا مكافأةً له على ذلك!

وكانَ ذلك درسًا قاسيًا وعبرةً خالدةً لكَ وأنتَ في أوَّلِ طريق التزامِكَ بآدابِ دينكَ الذي قبلتَ التخصُّصَ فيه: ألّا تستهزئَ بأخٍ لكَ مسلم، مهما كانَ شكله، وأيِّ اسمٍ كانَ له، فإنَّه قد يكونُ أحسنَ منك، بأمانتهِ وأخلاقهِ وإخلاصه!

* * *

أساتذة ومحاضرات

من المحزنِ أنكَ لم تحضرِ الدراسةَ الجامعيةَ في سنواتها الأربعِ كلِّها... بل عشتَ بعيدًا عنها، تقرأُ مقرَّراتها، وتستعدُّ لامتحاناتها وتقدِّمها في آخرِ كلِّ سنةٍ منها.

وأنَّى لكَ الحضورُ وأنتَ لا تكادُ تقدرُ على جمعِ مصروفِ شهرٍ في العاصمة؟ لكنكَ ذكرتَ حضورَكَ نحو (٤) محاضرات، وتقولُ عن مجتمعِ طلبةِ الشريعةِ إنهم إذا رأوا الأستاذَ «**محمد أديب الصالح**» قالوا: جاءَ الزعيمُ؛ لخطاباتهِ الحماسية، التي تجمعُ بين الدينِ والسياسة، وجرأتهِ وشجاعتهِ في بيانِ الأمورِ الخفيةِ في الدولة... والمؤامراتِ التي تحاكُ ضدَّ المسلمينَ في الداخلِ والخارج... وكان رئيسَ تحريرِ مجلةِ «حضارة الإسلام» التي مُنعت، وكانتِ المجلَّةَ الإسلاميَّةَ الوحيدةَ في سورية، على ما تذكر! ثم رأيتَهُ في الرياضِ أكثرَ من مرَّة، وقد درَّسكَ الحديثَ في مرحلةِ الماجستير، ثم كان أستاذًا في جامعةِ الملكِ سعود، ولعله تفرَّغَ من بعدُ للبحثِ والتأليفِ وجمعِ نتاجهِ السابق. وبينه وبين البوطي جفوة.

ومحمد سعيد رمضان البوطي ومحاضراتهُ الشرعية... .

وفوزي فيضُ الله ودروسهُ الفقهيَّةُ المفصَّلة، حضرتَ له محاضرة، في قاعةٍ صغيرة، كانوا هم الذي يحضرونَ فقط، لا يتجاوزُ عددهم الثلاثين، وكان الطلابُ في طرف، والطالباتُ في الطرفِ الآخر!

ومن أساتذةِ الكليةِ آنذاك: **محمد عجّاج الخطيب** أستاذُ الحديث، كان الثناءُ عليه كثيرًا، من قبلِ الطلابِ وغيرهم، ويتحدَّثونَ عن اهتمامهِ بآل الخطيبِ وتوجيههم. وما زالَ الثناءُ عليه وهو عميدُ كليَّةِ الشريعةِ بالشارقة.

وعدنان محمد زرزور، أستاذُ العقيدة، عُرفَ بتفوُّقهِ الدراسيِّ وحدَّةِ ذكائه، وكان شابًّا في أولِ تعيينهِ بالكلية، وأسئلتهُ صعبة. وحدثَ مرَّةً أن بقيتُ مادَّةٌ معكَ إلى الدورةِ الثانيةِ لصعوبتها، وعندما قرأتَ الأسئلةَ علمتَ أنكَ لن تنجحَ فيها هذه المرَّةَ أيضًا، فلجأتَ إلى حيلةٍ أدبية، فكتبتَ بأسلوبٍ بلاغي وإنشاءٍ أدبي جميل، مع ثقافةٍ خارجيَّةٍ من المطالعة، فنجحتَ بها حائزًا على درجةِ خمسينَ من مائة.

ونور الدِّين عتر، أستاذُ الحديثِ المحترمُ، كتاباتهُ جيِّدة، وهو من حلب. لم تلتقِ به.

وعاصم بهجة البيطار، أستاذُ اللغةِ العربيَّة، المعروفُ بقدرتهِ الفائقةِ على تدريسِ مادَّته. وقد التقيتَ به في الرياضِ من بعد، وكان يعملُ في مركزِ الملكِ فيصلِ للبحوثِ والدراساتِ الإسلاميَّة، ولأولِ مرَّةٍ سمعتَ لفظَ «لُغَيَّة» منه في نقاشٍ جرى بينكما. كما ذكَّرتَهُ باختبارٍ قدَّمتَهُ في مادَّته، وكانت بحوثُ الصرفِ صعبة، فلمّا قرأتَ الأسئلةَ

فرحتَ بأولها وأمَّنتَ بها عشرَ درجات، فآثرتَ أن تنتقلَ إلى غيرهِ وأنتَ في أولِ نشاطك، ثمَّ تعودُ إليه مادامَ سهلًا، ثمَّ خرجتَ ولم تجبْ عليه نسيًا. ونجحتَ بها والحمدُ لله، وما كان ذلك في حسابك. ويحدثُ مثلُ هذا مع كثيرٍ من الطلبة.

وكلُّهم أحياءٌ وأنت تكتبُ هذه الذكريات، ما عدا الأخير الذي توفّاهُ اللهُ عام ١٤٢٦هـ. رحمه الله.

وكانت الدرجاتُ لا تُعطى في الكليةِ إلَّا بالقطّارةِ كما يقال، وما كان ينجحُ من الطلابِ في الدورةِ الأولى أكثرُ من الربعِ والثلث، وتذكرُ أنكَ كنتَ الأولَ في العقيدةِ في السَّنةِ الثانيةِ أو الثالثة، وكانت درجتُكَ (٧٥) من (١٠٠) أو أقل!

وكان هناك امتحانٌ شفويٌّ لبعضِ المواد، ربَّما عمدًا، وذُكرَ لكَ أنه كان هناك طالبٌ شيوعي لا ينجِّحهُ الأستاذُ محمد أديب الصالح في الاختبارِ الشفوي، وحقُّهُ أن يتخرَّجَ منذ أربعِ سنوات!

ثم تغيَّرتِ الأمورُ من بعد، فصارَ في الإدارةِ أشخاصٌ من طوائفَ أخرى، وطلابٌ حزبيونَ دخلوا الكليةَ بتوجيهاتٍ من الحزب.. والله المستعان.

ولم تسلمْ من تعليقٍ للأستاذِ أديب في اختبارٍ شفوي، وقد سألكَ ما الذي حفظت، فعددتَ له السورَ التي حفظتَها، وكانتْ أقلَّ من نصفِ ما هو مطلوب، فعلَّقَ بشيءٍ من التهكمِ، وحكى قصةً، لعلها رمزية، لزميلهِ عدنان زرزور مما يناسبُ المقام، فخرجتَ مجروحَ الشعورِ كسيرَ الخاطرِ على هذا التعليق... ومع ذلك نجحتَ بحمدِ الله.

وكانَ أصعبَ شيءٍ عندكَ هو الحفظُ، وقد أمضيتَ من الوقتِ في حفظِ القرآنِ الكريمِ ربَّما أكثرَ من دراسةِ أيةِ مادةٍ أخرى، ومع ذلك لم تحفظْ ثلثي المطلوب. وما كانتْ هناكَ مادةٌ في علومِ القرآنِ تدرَّس بالجامعة، سوى مقدمةٍ في التفسيرِ للزرزور، أو أنها التي حققها لابن تيمية، ولذلك لو درستَهُ لانشغلتَ به ربَّما أكثرَ من الحديثِ الذي درستَهُ كثيرًا، فكان انشغالُكَ به أكثر، ثم وفَّقكَ الله لوضعِ تفسيرٍ للقرآنِ الكريم، ولهُ المنَّةُ والفضل.

* * *

حبُّ الكتاب والإيجار!

كنتَ حريصًا على اصطحابِ كتبٍ معكَ أثناءَ عودتِكَ من الاختباراتِ في دمشق، فما قصَّتها باعتبارِ حالك؟

نعم، لقد تذكرت، قلتَ إنكَ كنتَ «تضغط» على مصروفِكَ كثيرًا لأجلِ ذلك، ولا يُنسى حديثُكَ عن الغرفةِ التي استأجرتها مع زميلكَ (أحمد عباس) في أحدِ أفقرِ أحياءِ دمشق، رأسُكَ يلمسُ صفحةَ الجدار، وقدمُكَ ترسو على أسفلِ الباب، حيثُ لا جدار! وبينكَ وبين زميلِكَ نحو شبرين، وفراشُكَ أوراقُ جريدة، ومخدتُكَ نعالك، ولا لحافَ لك. . . .

وأجملُ ذكرياتكَ في ذلكَ عندما انصرفتَ من المعسكرِ مرةً وقد أعطوا لكلِّ طالبٍ مبلغًا من المالِ، فهرعتَ به إلى مكتبةٍ واشتريتَ منها «في ظلال القرآن»، لكنكَ قلتَ من بعدُ إنكَ لم تنعمْ بقراءته، على الرغمِ من أن أستاذَ التفسيرِ جعلهُ مرجعًا لكلِّ الطلاب. . . فإنَّ أحداثَ حماةَ دفعتكَ إلى أن تجعلهُ في باطنِ الأرض، ولم ترَهُ عينكَ حتَّى الآن، حيثُ غادرتَ بلدكَ منذُ (٣٣) عامًا!

والكتبُ المشتراةُ كانتْ كلُّها ثقافيةً إسلاميَّة، وكتبٌ أخرى للأطفالِ والناشئة، قصصيةٌ وتربوية، تزوِّدُ بها مكتبةَ جامعِ البلدة.

وعلى ذكرِ تلكَ الغرفةِ الصغيرةِ الضيِّقة، فقد استأجرتم في سنةٍ غرفةً أحسنَ منها، فزاركم صديقٌ مرَّتينِ أو ثلاثًا، وكان بها سريرٌ قديمٌ، عليهِ أعمدةٌ من خشب، فجلسَ عليه، وكان سمينًا، فإذا ضحكَ طقطقَ الخشبُ على موسيقى ضحكه، فتضحكُ وزميلكَ أيضًا، فيزدادُ هو ضحكًا، فتزدادُ الطقطقةُ... ولا يزالُ الأمرُ هكذا حتَّى يحملَ نفسَهُ وينزلَ من السرير!

ومن أجلِ هذه الزياراتِ نُميَ إلى صاحبةِ البيتِ (وكانت أرملة) بأن هناكَ ثالثًا معكم ولستما اثنينِ فقط، وكانت تعرفُ بأنكم ستنفونَ ذلك، فاستعملتْ مكرَها النسوي، وأتتْ إليكم وذكرتْ أن الأفضلَ لكم أن تضعوا نقودكم عندها حتَّى لا تضيع، وأن اللصوصَ لا ينقطعونَ، وصارتْ تسردُ حوادثَ في هذا الشأن، فلم تأبهوا بكلامها، وكرَّرتْ ذلك في جولةٍ ثانيةٍ لها وربما ثالثة، وتذكرُ أنها أختكم الكبيرة، وأنها تقولُ ذلك حبًّا فيكم ولصالحكم، فما زالتْ بكم حتَّى وافقتم، وفي آخرِ الشهرِ خصمتْ منكم قيمةَ الإيجارِ بحسابِ ثلاثةِ أشخاص، ولسانُ حالها يقولُ: إنها لا تُخدع.

وكان الذي أنمى إليها الخبرَ جارةٌ، بينها وبينَ زوجها مشكلاتٌ لا تنتهي، تُضرَبُ وتُهانُ وتُطردُ كلما أتى زوجها من السفر، فحصَّلت الفرقَ منكم، أنتم المساكين!

وبدا أنَّ زيارةَ ذلكَ الصديقِ كانت شؤمًا عليكم، حيثُ كنتَ ستوفِّرُ ذلكَ المبلغَ المخصومَ منكم لشراءِ كتب!

وقد كان ذلكَ الصديقُ ابنَ مختارِ قرية، ذا عاطفةٍ دينية، يحافظُ على صلاته، لكنهُ كانَ مغرمًا بشعرِ «جكَر خُوِين» الشاعرِ الكرديِّ الملحد، فلا تمرُّ مناسباتٌ إلَّا ويسردُ على مسامعكم أبياتًا لهُ بالكرديَّةِ بصوتٍ متناغمٍ مؤثِّر، فكنتم تنبِّهونهُ إلى أن حبَّهُ لأشعارهِ يؤدي إلى حبِّهِ لشخصه، ومن ثمَّ لمنهجهِ ومعتقده، فينفي ذلك.

وقد رأيتَهُ بعدَ نحوِ ثلاثينَ عامًا في الرياض، فكانَ غَيورًا على قَوميَّته، مشدودًا إليها بعاطفته، ولعله كانَ متحزِّبًا مع أهلها، ويعتبرُ إهانةَ رموزِها القوميينَ إهانةً له! معَ تديُّنٍ وأدب، واطِّلاعٍ واسعٍ على أحوالِ ورجالاتِ مجتمعه.

وذلكَ الشاعرُ الكرديُّ ترجمتَ لهُ في «تتمةِ الأعلام» مع إيرادِ قصةٍ عن إلحاده، حيثُ كنتَ مع مجموعةٍ من الزملاءِ في القطارِ آيبينَ إلى الجزيرة، فسمعكم تتكلمونَ الكرديَّةَ، فجاءَ إليكم فرحًا، وصارَ يتملَّقُ بأنهُ كانَ عالمًا (ملّا) وما إلى ذلك، وأنتَ تعرفُ بأنهُ لا يعطي الصورةَ الحقيقيةَ عن فكره، فما زلتَ بهِ حتَّى كشفَ إلحاده، وقال: إذا كانَ الله موجودًا فليأتِ وليُزحْ يدي من على هذا المقعد، وجعلَ مرفقهُ على طرفِ الكرسيِّ بقوَّة. فناقشتَهُ في أمورٍ علميةٍ ودلائلَ منطقيةٍ فازدادَ لجاجةً وتماديًا في إلحاده، ولعلهُ يتذكرُ عندَ قبضِ روحهِ أنهُ لا يقدرُ على ردِّ أمرِ اللهِ عنه، وأنهُ ضعيفٌ أمامَ قضائه ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة فصِّلت: ١٥].

والحسابُ الأكبرُ يومَ الحساب، والله يُمهلُ العبادَ في الدنيا ليتفكروا ويؤوبوا، ولو أنه عاقبَ كلَّ إنسانٍ بمجرَّدِ أن يُذنبَ لما أبقى أحدًا في الدنيا، ولكنه سبحانهُ أخَّرَ المثوبةَ والعقوبةَ إلى يوم الجزاء ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٨]. فهذا الإمهالُ منه لحلمهِ ورحمتهِ بالناس، ولئلّا تكونَ لهم حجَّةٌ يومَ القيامةِ بأنهم لم يُعطَوا الوقتَ الكافي لمراجعةِ أنفسهم! على أن الحياةَ لا تخلو من عِبَرٍ في ذلك، فقد يعجِّلُ العقوبةَ لبعضهم كما هو مشاهَدٌ وكما يُقرأ في أحداثِ التاريخ، ليعتبرَ الناس، ولِحِكَمٍ يعلمها الله.

وعودةً إلى ذلكَ البيتِ الذي استأجرتَ فيهِ، فقد كان لكم جارٌ عسكريٌّ جديدٌ من الساحل، تزوَّجَ قريبًا، وأتى بزوجته، ولم تمضِ أيامٌ حتَّى ماتت! وكانت قد هيَّأتْ طعامًا آثرتْ أن تذهبَ وتناديَ بعضَ قريباتها لتأكلَ معها ومعَ زوجها، وعندما قطعتِ الطريقَ السريع، دهستها سيارةٌ فماتتْ في الحال، وبعد ساعاتٍ سمعتمُ الصياحَ والعويل، وكادَ زوجها أن يَقتلَ نفسهُ لكثرةِ حزنهِ وبكائهِ وتأثُّره!

وكنتَ تضطرُّ إلى المبيتِ في الفندقِ بدمشق أحيانًا، فما كان أحدٌ من أصحابِ الفنادقِ يسمحُ لكَ بالمبيتِ إلَّا بحيلةٍ أو كفالة، لأنه لا هويَّةَ لكَ ولا جوازَ سفر، وكان هناكَ فندقٌ قديمٌ (الحمراء) كثيرَ البعوض، يشرفُ عليه كرديٌّ من الجزيرة، فيسمحُ لكَ بالنومِ فيه، ويحلفُ لكَ أنه يتحمَّلُ مسؤوليةً من أجلِ هذا؛ لأن المخابراتِ تأتي وتكشفُ على السجلّات، فإذا رأتْ أيَّةَ معلومةٍ ناقصةً حاسبتْ بها المسؤول عن ذلك، وتطلبُ منه الوثائقَ والإثباتات. . . .

وكان ذلك الكرديُّ جريئًا في أمورٍ أخرى لم تكنْ مألوفةً في الجزيرة، فكان أحدَ تلامذةِ شيخِكَ علوان، ويقرأ العلمَ الشرعيَّ على طريقةِ الأكراد (الملالي)، فتركَ ذلك ومضى إلى دمشقَ يعمل، وهناكَ التحقَ بدوراتٍ رياضيةٍ كالكاراتيه والجودو وما إليهما، وكان ذا لحيةٍ طويلةٍ فلم يحلقها، ويأتي إلى الشيخِ علوانَ زائرًا، فيصارحهُ الشيخُ بذلك، فيجيبه: وهل ما أقومُ به حرام؟ إن الجوَّ والظروفَ في دمشقَ تختلفُ عن محافظتنا، فلا بدَّ أن يأخذَ الإنسانُ حذرَهُ ويتعلمَ فنونَ الدفاعِ عن النفس، سواء كان فقيهًا أو لا، وافرَ اللحية أو حليقها . . . .

وفي أكثرَ من محطةٍ بدمشقَ كنتَ تنام بين العمالِ في منشأةٍ كبيرةٍ بتلِّ منين، عند صديقِكَ عبد الرحمن، وكان مشرفًا عليهم، فتبيتُ في قفصٍ من التوتياءِ أو الخشبِ وما إليه، ويسهِّلُ لكَ صديقُكَ الأمورَ في المبيتِ والطعامِ، وتقطعُ مسافاتٍ مشيًا على الأقدامِ لتصلَ إلى هناكَ.

* * *

عبد الرحمن خليفاوي

تظنُّ أن هذا هو اسمه!

كانَ رئيسَ الوزراء، وكانَ حديثُكَ إليهِ في نحوِ عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)!

وكانتْ زيارتُهُ إلى جامعةِ دمشق أيامَ الاختبارات، يتفقَّدُ فيها طلابَ الجامعة.

نعم! وأنتَ كنتَ طالبًا جامعيًّا، فلماذا لا تصارحه، لماذا لا تقذفُ في وجههِ مظلمتكَ وهو ثاني أكبرِ مسؤولٍ في عهدِ حافظ الأسد؟!

واخترقتَ صفوفَ الطلبة، وتوجَّهتَ إليه مكبَّلًا بهمومك، وكلُّكَ إصرارٌ وعزيمة، أمامَ مُرافقيهِ وصحفييهِ، وقلت:

أنا طالبٌ في هذه الجامعة، ولدتُ في سورية، وبها نشأتُ ودرستُ، ولكن لا هويَّةَ لي، ولا تُعطى لي قطعةُ أرضٍ أعيشُ منها، ولا يُسمحُ لي بالعملِ في دائرةٍ حكوميةٍ، ولا يُسمحُ لي بالسفرِ إلى خارجِ سورية لأعملَ وأعيلَ نفسي وأسرتي، فكيفَ أعيش؟

وبُهتَ الذي رأَسَ ووَزر!! تعجَّبَ واستغرب! هل يوجدُ سوريونَ

في هذا الدرْكِ من المجتمع؟! بل لا درجةَ له أصلًا حتَّى يُقالَ إنهُ في الدرجةِ الخامسةِ والسادسة!

فهو إن كانَ حيًّا فلا حقَّ لهُ في الحياة، ووجودهُ وعدمهُ سواء، فلا يُسألُ عنهُ، ولا يُعتَبرُ بهِ!

سكتَ فجأةً، وفغرَ فاهُ، وقالَ بصوتٍ هادئ، في سؤالٍ جامعٍ بين الاستفهامِ والاستنكار: ولكن لماذا؟ ومن أنت؟

أنا طالبٌ سوريٌّ كما قلتُ، لكنني كرديٌّ، من الجزيرة.

عندَ ذلك زالَ الاستغرابُ الذي بدا عليه، وحرَّكَ رأسَهُ بالإيجاب، وتذكرَ كلَّ شيءٍ، فهو يعرفُ هذا تمامًا، لكنهُ ليس من أولوياته، فقالَ بنبرةِ الصوتِ السابقة: مشكلتكم ستُحلّ!

وكان جوابًا كالهواءِ، في الهواء، يعرفهُ أناسٌ عاشوا في ذلكَ العصر، ولعلَّ بعضَهم مازالوا.

* * *

المعسكر الجامعي

وكانَ المطلوبُ من الطلابِ حضورَ معسكرٍ لمدةِ أسبوعينِ أو أكثرَ في كلِّ عامٍ مرتين: صيفًا وشتاءً، وتُخصمُ أيامهُ من الجنديةِ، بحيثُ يخدمُ الطالبُ سنتينِ بدلَ اثنتينِ ونصف، فتقدمتَ بخطابٍ إلى المسؤولينَ تُبيِّنُ فيهِ أنكَ لا تخدمُ في الجيشِ لأنهُ لا هويةَ لك، ولهذا لا يكونُ مطلوبًا منكَ حضورُ المعسكر. فما كانوا يعرفونَ كيفَ يتصرَّفون، فكنتَ تحضر، لأنَّ عليها درجاتٍ ونجاحًا ورسوبًا!

وفوجئتم مرةً بفقدانِ الماءِ وأنتم في البرِّ في موقعٍ عسكريّ، لعله كان ساحةَ تدريب، وبعد شكاوى وعطشٍ غلبَ على الطلاب، أخبرهم الضبَّاطُ أن هناكَ صهريجًا مليئًا بالماءِ آتٍ من المدينةِ، وبعدَ طولِ انتظارٍ وصلَ الصهريج، وكانَ الماءُ الذي فيهِ مخلوطًا بالمازوت، ورائحتهُ وطعمهُ ظاهرٌ فيه، ومعَ ذلكَ أقبلَ عليهِ الطلابُ المرفَّهونَ المدلَّلون، وقد شحبتْ منهم الوجوهُ النضِرة، وجفَّتْ شفاههم الندِيَّة، وحبِكَتْ شعورهم المرجَّلة، وفتحوا أفواههم للنسيمِ عسى أن يخفِّفَ من عطشهم. وكانَ أمرًا مدبَّرًا مقصودًا.

وكان ضابطٌ يعلمكم كيفيةَ رمي القنابلِ اليدوية، ويؤكدُ على أن يختبئَ الرامي في الخندقِ أو الحفرةِ التي يرمي منها أو ينبطحَ حتَّى لا تصيبَهُ شظاياها، وحُفرتْ حفرةٌ لأجلِ ذلك، وجرَّبوهُ ميدانيًّا، ثم طلبوا من طالبٍ أن يرميَ قنبلةً أيضًا، ونبَّهَهُ الضابطُ مرَّةً أخرى على الجلوسِ في الحفرةِ بعد الرمي مباشرةً وألَّا يظهرَ من جسمهِ شيءٌ فوقها، وابتعدَ الطلبةُ الآخرونَ مع المدرِّب، ورمى الطالبُ القنبلة، وبقيتْ عيناهُ تتابعانها لينظرَ أين تسقطُ وهل ستنفجر، فصاحَ الضابطُ والطلبةُ به في هَيْعةٍ واحدةٍ لينحني، فتذكرَ وجلسَ بسرعةٍ قبلَ أن تسقطَ القنبلةُ ربَّما بثانية، وسلَّمَ الله.

وكان هناكَ ضابطٌ يركزُ على طلبةِ الشريعةِ ويؤذيهم، فعرفَ أحدُ الطلبةِ من دمشقَ أنهُ نصرانيّ، فذهبَ إليهِ وسلَّمَ عليهِ بأدب، وذكرَ لهُ بعضَ مميزاتِ النصرانيةِ وسألهُ عنها وعن أدلتها فلم يعرفْ شيئًا، فنقضها وبيَّنَ لهُ ميزةَ الإسلامِ في ذلكَ ومحاسنَهُ وقواعدهُ الثابتة، وتردَّدَ عليهِ ذلكَ الشابُّ أكثرَ من مرةٍ حتَّى كانَ من أحبِّ الناسِ إلى ذلك الضابطِ، ولم يعدْ يؤذِ أحدًا من طلبةِ الشريعة، بل صارَ رفيقًا بهم ومنتظرًا للجديدِ من المعلوماتِ عما يدينونَ بهِ. وغابَ ذلكَ الطالبُ، واسمهُ (زهير حمو)، وتشاورَ الطُّلابُ في تكملةِ ما بدأَ بهِ مع ذلكَ الضابطِ وكأنهم طمعوا في إسلامه، فكنتَ ممن يرى انتظارَ (زهير) ليكملَ ما بدأَ بهِ ولئلا يتغيَّرَ الأسلوبُ على المدعوّ، وكانَ الأوَّلَ على الطلبةِ، قويَّ الحجة، فصيحًا، طوّالًا، مبتسمًا، حنبليًّا، ويطلبُ من الآخرينَ أن (يتحنبلوا). ولا تذكرُ عودتهُ، وبقيَ الأمرُ معلقًا حتَّى انتهى المعسكر.

وكثيرونَ كانوا مثلَ ذلكَ الضابطِ لا يعرفونَ عن الإسلامِ شيئًا ولو أنهم يعيشونَ بين أهله، بل يكتفونَ بما يُلقى في آذانهم.

* وقد انتهى معسكرٌ مرَّة، فكانت خيامٌ تحتفلُ بالمنكراتِ، وفي خيمتكم اجتمعتم على ألا تسمحوا بمنكرٍ فيه، وكانَ أحدهم قد نزلَ إلى المدينةِ واشترى البيرةَ ليشربها و«يسعدَ» بها الطلبة، فمنعه الملتزمون، واستغربَ الأمر، وقالَ بكلِّ صراحةٍ: أنا مسيحيٌّ، وما كنتُ أعرفُ أن البيرةَ حرامٌ عندكم. وكانَ من «آل حريقص»، لكن آزرَهُ طالبٌ درزيٌّ وتحدَّى أن يمنعهما أحدٌ، وكادتْ أن تصيرَ فتنة!

* * *

البحث عن شيعي

وكان التآلفُ والمحبةُ بين طلبةِ الشريعةِ ظاهرًا وعميقًا جدًّا، وخاصَّةً عندما يجتمعونَ تحتَ خيمةٍ واحدة، حيثُ يجمعهم أيضًا الهمُّ المشترك، والأملُ الواحد.

وكانت تدورُ أحاديثُ شتَّى تحتَ الخيمة، كلٌّ يعطي مما عندهُ، وكانت منطقتكَ منسيَّةً، لا يعرفها أحدٌ من طلابِ الداخل. . . .

وجاءَ الحديثُ مرَّةً عن الشيعة، وكأنهم كانوا يتحدثونَ عن بعضهم في دمشق، فعجبتَ من ذلك، وما كنتَ رأيتَ حتَّى ذلك الوقتِ شيعيًّا واحدًا؛ لقلَّتهم وندرتهم، فقلتَ لبعضهم: هل يوجدُ منهم أحدٌ في دمشق؟ فوصفَ لكَ محلًّا للقماشِ قربَ الجامعِ الأمويِّ صاحبهُ شيعي، وقد ذهبتَ إلى هناكَ ورأيته، على ما تذكر!

ذكرتَ هذا للمقارنة، وكيفَ أنهُ صارَ لهم شأنٌ الآنَ بدعمٍ من الدولة. . . لطفَ الله بالعبادِ والبلاد.

* * *

معسكر شتوي

وقد اشتكى بعضُ الطلبةِ أنهم لا يجدونَ مكانًا يأوونَ فيه، فخيَّروهم في المبيتِ بحجرةٍ واسعةٍ كانتْ مهجورةٍ في ساحةِ كليةِ الآدابِ، وكانتْ تُبنى من جديد، فنامَ فيها نحوُ ثلاثينَ طالبًا، وكانتْ باردةً جدًّا، لا يتدفأُ فيها المرءُ وهو يتغطَّى بعدةِ بطانيات، وتنظرونَ إلى زرقةِ الدمِ منْ تحتِ أظفاركم، وكانَ لديكَ أخٌ محبٌّ من الحسكةِ، فأجنبَ ليلةً، والأرضُ رطبة، فما كانَ هناكَ ترابٌ ليتيمَّمَ، ولا ماءٌ ليغتسلَ، فتحيَّرتم، وخافَ أن تفوتَهُ صلاةُ الفجرِ، وكانتْ هناكَ حفرةٌ قد تجمعَ فيها شيءٌ من الماءِ قريبةٌ من المبنى، فنزعَ ثيابَهُ، وسترتَه، وصارَ يغترفُ من الماءِ بكفيه، وهو يشهقُ ويرتعدُ كالعصفورِ لبرودتِهِ، حتَّى أكملَ غُسلَه.

وابتليتمْ بشابٍّ درزيّ، كانَ كلما مرَّ بطالبٍ من طلابِ كليةِ الشريعةِ نظرَ إليهِ وقالَ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، ثمَّ يضحكَ مستهزئًا، وكانَ على فقرهِ أزعرَ وشبهَ أهبلٍ، فكانَ جاهزًا للمناوشةِ والمصارعةِ مع أيٍّ كانَ، حتَّى تدَخَّلَ طالبٌ درزيٌّ آخرُ وأسكتهُ، فلمْ يعدْ إلى عادته.

ومما تذكرهُ من أحوالِ المعسكرِ فسادُ العقائد، وتباينُ الأفكار، والانحلالُ الخلقيُّ بينَ معظمِ الطلابِ، ولا يبدو التوافقُ بينهم، وكأنهم من بلدانٍ مختلفةٍ لا علاقةَ لبعضهم ببعض.

نعم، كان الإسلامُ سابقًا يقرِّبُ بين الجميع، ليسَ في البلدِ الواحدِ فقطِ، بل بين قومياتٍ كثيرةٍ في أصقاعِ الدنيا، والآنَ لم يعُدِ الدينُ سيِّدَ الموقف، فكلٌّ ينهلُ مما يحبُّ ويهوى، فحلَّ التفرُّقُ والتشرذمُ محلَّ الوئام، ودخلتِ الإحَنُ مكانَ الأخوَّةِ والعروةِ الجامعة. أعادَ اللهُ للإسلامِ عزَّه، وللمسلمينَ مجدهمْ، وخذلَ صعاليكَ الثقافة، ونجومَ الانحطاط، وخدَّامَ الأعداء، وأقزامَ المناصب، ورؤوسَ الشرِّ والفتن، وعبّادَ المالِ، والمدافعينَ عن الأهواءِ والشهوات.

* * *

إخوة في الله

ومن الإخوة الذين عرفتهم في المعسكرِ ونبغوا:

خلدون الأحدب، كان يسبقك بسنةٍ أو سنتين، ولم تتعرَّفْ إليه، خطبَ فيكم الجمعةَ بالمعسكرِ أكثرَ من مرَّة، ثم أقامَ بالسعوديَّةِ، وكانَ أستاذًا للحديثِ في جامعةِ الملك عبد العزيزِ بجدَّة، وله مؤلفات.

وعبد الرحمن محمد الحامد، من حماة؛ كان من أحبِّهم إليك، لأدبهِ الجمّ، وكلامهِ المحبَّب، وحنانه، ومفاكهتهِ مع الخلان، ولمكانةِ والدهِ رحمَهُ الله. وقد حصلَ على الدكتوراه من جامعةِ أمِّ القرى، ولم ترَهُ منذ الدراسةِ الجامعيةِ بدمشق. كما رأيتَ أخاه **سالمًا** أيضًا في المعسكر، وكان يصغرُكَ بسنوات.

وأخٌ كريمٌ لا تنسى صحبتَهُ وحسنَ أدبهِ وتواضعَهُ، اسمهُ **محمد ميلص**، من حماةَ أيضًا، انقطعتْ أخبارهُ عنكَ تمامًا.

ومحمد صالح المهيدي المعيدي، من دير الزور؛ خطبَ فيكم أيضًا، وفي مدينته، وتركَ بلدَهُ بعد الأحداث، واستقرَّ بالسعوديَّةِ أيضًا، لعلهُ عملَ في التفتيشِ التربوي، ورأيتَهُ في الرياضِ مرَّةً أو مرَّتين، وذكرَ بأن له مشروعَ كتابٍ في طرقِ تدريسِ التربيةِ الإسلاميَّةِ

أو العلومِ الشرعية. وذُكرَ لكَ أنهُ كان خطيبًا مصقعًا في دير الزور، يرتجُّ المسجدُ لكلماتهِ وقوَّةِ بيانهِ ونبراته، ويتفاعلُ معهُ المصلُّونَ كثيرًا.

وصديقٌ آخرُ اسمهُ «**داود أومري**»؛ كانت تُطرحُ قضايا ومسائلُ فقهيَّةٌ فيعقِّب ويخالفُ غالبًا، فسمّاهُ الأخ «عبد الرحمن الحامد»: داود الظاهري، لمخالفتهِ الأئمةَ الأربعة، فكان كلَّما تكلمَ قيل له ذلك، فيضحكُ وتضحكون، ولم تقفْ على خبرٍ له بعدها.

ومنهم «**علي شبارة**»؛ كان الغالبَ عليه السكوتُ، أو الكلامُ القليل، دائمَ الهمِّ والغمِّ في أحوالِ المسلمين، ينظرُ إلى بعيدٍ وكأنه ليس بينكم، وحدثَ أن ركبتمْ مركبةً عسكرية، فكنتَ تمسكُ بيده، ولمستَ عضلاتهِ فكانتْ كالحديد، مع عظمِ صدرهِ في صورةِ الأبطالِ الأشدّاء، وكنتَ تعلمُ أنه يحبُّ الجهادَ ويتشوَّقُ إلى الشهادة، وكانَ محترمًا عند الجميع، ولم تقفْ على خبرهِ بعد الجامعة.

و**عبد الله كحيلان**؛ أستاذُ التفسيرِ في جامعةِ الملكِ سعود بالرياض... كان هادئًا، مجدًّا، مؤدَّبًا، مبتسمًا، مُقبلًا على إخوانه، عارفًا بتخصُّصه، لا تعرفُ له كتابًا مطبوعًا.

* * *

ذكريات من مدارس القرى

لم تكنْ أيامُ تدريسِكَ سهلةً ورتيبة، وسيأتي حديثُكَ عن بعضِ المآسي التي لاقيتها، وهذا حديثٌ عن طرفٍ آخرَ منه..

أولُ مدرسةٍ درَّستَ بها في قريةٍ تسمى «أم عُشبة» قريبةٌ من «رأس العين».

وهذا اسمُ القريةِ القديمة، وقد بُني بجانبها قريةُ «برقة» لأهلِ الغمر، وفيها المدرسة.

وكانتْ قد وُضعتْ لَبِناتٌ بعضها فوق بعضٍ في غرفةٍ على هيئةِ دكَّةٍ أو سرير، وفي طرفها لَبِناتٌ صغيراتٌ كالوسادة، ففرشتَ عليها ونمت، ومرَّ يومانِ أو أكثر، وأحببتَ التأكدَ من أنه لا يوجدُ تحتَ رأسِكَ حشرات، فرفعتَ أول لَبِنةٍ فإذا عقربانِ صغيرانِ ينظرانِ إليكَ، وكأنهما منزعجانِ لفضولِكَ في معرفةِ محميتهما.

وقدَ تعرَّفتَ من بين أهلِ القريةِ على شابٍّ مؤدَّبٍ كانَ يزورُكَ كأخٍ لك، ويحكي لكَ قصةَ حبِّهِ، وتلعبونَ بالكرةِ الطائرة، وفي حديثٍ معهُ عرفَ أنكَ كرديّ، فانتفضَ ونظرَ إليكَ نظرةً عدوانيةً شزرةً، وغادركَ من غيرِ رجعةٍ وهوَ يقولُ: كنتُ أظنُّكَ حتَّى الآن من الشام؛ ولسانُ حالهِ يقولُ: أمَا وإنكَ كرديٌّ فلا لقاء.

وفي مرةٍ أرسلَ مختارُ القريةِ القديمةِ إليكَ وإلى زميلِكَ أن احضرا إلى «المضافة»، فإنَّ هناكَ شاعرًا من البدوِ قد جاءَ ليمدحني. فحضرتما، وكانَ قد اجتمعَ شملُ أصحابهِ من حوله، فبدأَ الشاعرُ يعزفُ على الربابةِ ويمطِّطُ في شعرهِ الغنائيّ، ومما حفظتَهُ من ذلكَ قولهُ مادحًا المختار، وكانت كنيتهُ أبا راكان، «يا بو راكان يا ملبِّسِ العريان» فما كانَ منهُ إلَّا أن خلعَ معطفَهُ الذي كانَ عليهِ ودفعَهُ إليه، ومدَّ أحدُ الحاضرينَ يدهُ إلى مسدَّسهِ وأطلقَ عدةَ رصاصاتٍ في سقفِ الغرفةِ كادَ أن يُصِمَّ بها الآذان، وظننتم أن السقفَ سيخرُّ عليكم لشدَّتها. وكانَ هذا كلُّ ما قدَّمهُ المختارُ للشاعر، فأبى أن يأخذَ المعطف، وقال إنه قليلٌ في مقابلِ ما مدحهُ، فقالَ المختارُ: هذا الموجودُ، ولا يوجدُ عندي غيرهُ. وانفضَّ المجلس!

ولم يكن أبو راكان كبيرًا في السنّ، وكان يعرفُ القراءةَ بشكلٍ جيِّد، ويطالعُ في الكتبِ الثقافيةِ والطبِّية، وهو ما كانَ نادرًا في تلكَ القرى، وقالَ لكَ مرةً: كيفَ تصبرُ بدونِ زواج؟ إنني أحبُّ الزواجَ كثيرًا. وكانَ متزوِّجًا باثنتين، ولعلَّهُ كانَ ينوي على ثالثة.

وفي منتصفِ العامِ فوجئتَ بمعلمٍ يحلُّ محلَّ آخر، من السويداء، وصارَ يضايقُكَ بأنواعِ الكلام، ويتكبَّرُ عليك، وكان هناكَ بيتٌ مشهورٌ متداولٌ بين المعلمين آنذاك، وهو:

إذا حلَّ بمدرسةٍ أصيلُ فما على الوكيلِ إلَّا الرحيلُ

وكان هو الأصيلَ وأنتَ الوكيل. ولم ترضْ أن يشتعلَ الشرّ، فاستأذنتَ منه أن تكونَ في غرفةٍ وحدك! وأخذتَ أغراضكَ إلى الغرفةِ

الصغيرة (السابقة)، وبقيَ هو في الكبيرة. وكنتَ قد أحضرتَ من البيتِ لوازمَ الطبخِ وما إليه، فبقي هو دون شيء! وكان موقفًا مؤلمًا عندما رأيتَهُ حزينًا، لا يجدُ ما يستعينُ به على العيش، بل لا يجدُ ما يأكلُ أحيانًا! فأشفقتَ عليه، وأعدتَ كلَّ شيءٍ كما كان واجتمعتما، ولم يعدْ إلى عاداتهِ تلك!

وكان مجيءُ هذا المعلمِ «الأصيلِ» بدلَ معلمٍ آخر، تركَ التدريسَ ليتسلَّمَ مهمَّةَ صرفِ رواتبِ المدرسينَ في بلدةِ رأسِ العين، وكان وحيدَ والديه، من القريةِ القريبةِ جدًّا من التي تدرِّسونَ فيها، لا تبعدُ عنها أكثرَ من كيلومترين، ومع ذلك كان أكثرَ ما يبيتُ في المدرسةِ ويأكلُ فيها. وكانتِ الصداقةُ بينكما طيبةً جدًّا.

وفوجئتَ بأنه أمسكَ راتبكَ عن الصرفِ دون كلِّ المدرسين، وظننتَ أنه قد حدثَ خطأ، أو أنه فعلَ ذلك مزحًا، أو قصدًا لكي تنزلَ البلدةَ ويراك، وذهبتَ إليه، وسألتَ عن سببِ عدمِ صرفِ الراتب، فأخَّركَ إلى نهايةِ الدوامِ تقريبًا، وقال: لماذا قلتَ لبعضِ الناسِ إنني كنتُ أفضِّلُ الأكلَ في المدرسةِ على الأكلِ في بيتي بالقرية...؟

وكان الذي أنمى إليه الخبرَ سيِّئَ النيةِ حتَّى سوَّدَ قلبه، فالذي تذكرهُ في الردِّ عليه ما قالهُ هو نفسهُ لك، من أن والديهِ كانا يلحّان عليه في المبيتِ بالقريةِ وأكلِ الطعامِ الطيبِ معهما، لكنه كان يتركهما ويفضِّلُ القريةَ التي يدرِّسُ فيها.. وانتهى الأمرُ على خير، وخسئَ النمّام.

وكانَ لكَ صديقٌ من بلدتِكَ يدرِّسُ في قريةٍ قريبةٍ منكَ، تبعدُ نحوَ (٨) كم، اسمهُ (محمد شاكر) تلتقيانِ كلَّ أسبوعٍ أو أسبوعينِ في منتصفِ الطريقِ بينكما.

وكانَ يلتقي بأستاذٍ من قريةٍ بينكَ وبينه، وذكرَ أنهما كانا في الطريقِ مرَّة، فسلمَ عليهما شخصٌ وهو راكبٌ على الحمارِ، فعتبَ عليهِ المدرِّسُ عتبًا شديدًا ووبَّخَهُ، مذكرًا إياهُ بأن العادةَ عند العربِ، أنهم إذا سلموا ينزلونَ من على الحمار!

وكانَ زميلُكَ يسكنُ في بيتِ أحدِ أهلِ القريةِ القريبِ من المدرسة، ويقولُ إنه جرتِ العادةُ أن يستضيفَ هذا البيتُ المعلمَ الذي يأتي إليهم طوالَ العام، وكانَ يعتبرُ متمدِّنًا بالنسبةِ إلى غيرهِ من البيوت، ولهم قصةٌ يتندَّرُ بها أهلُها في المجالس، ويحكونها على أنها حدثٌ نادر، فقد كانَ أحدُ المعلمينَ الذين نزلَ عندهم من دمشق، وطلبَ منهم أن يزوروهُ هناكَ في الصيف، فوافقتِ الأمُّ وولدها على ذلك، على أن يبقى الأبُ في البيتِ لمتابعةِ شؤونِ البيتِ والماشية. وذهبا إلى هناكَ، وعادوا ليصفوا المدينةَ وما فيها، من أسواقٍ وحدائقَ وحمَّاماتٍ وسيارات، وكانَ أمرًا لافتًا للنظرِ آنذاك!

وفي هذه المدرسةِ اشتدَّ ولعكَ بالمطالعة، وإقبالُكَ على قراءةِ المقرَّراتِ الجامعيةِ، فقد انطلقتَ إلى عالمٍ أرحبَ من الثقافةِ والعلمِ بالدِّين، في موضوعاتٍ مفصَّلةٍ ومحكمة. وكنتَ بينَ كلِّ حصةٍ وأخرى تذهبُ إلى غرفتكَ وتقرأُ ورقتينِ أو ثلاثًا، لا تضيِّعُ من وقتِكَ شيئًا.

ولا تنسى ذلكَ التلميذَ الشارد، الذي اشتكتْ إليكَ والدتهُ من أنهُ يسبُّها ويضربها، فجعلتهُ عبرةً لجميعِ التلاميذ، وضربتَهُ أمامهم ضربًا مبرِّحًا. لكن النتيجةَ أنهُ لم يعدْ يأتي إلى المدرسة، ومضى على ذلكَ نحوُ أسبوع، والذي تذكرهُ أنكَ بعثتَ إليهِ متلطِّفًا على ألَّا يؤذي أمَّهُ، وعادَ إلى دراسته.

❋ ❋ ❋

في صحبة الملاَّ

وقريةٌ أخرى درَّستَ فيها تسمَّى «الكديميات» التابعة لناحيةِ «تل حميس»، كانَ انكبابكَ فيها على العلمِ دائمًا، وكانتْ محطَّ معرفتِكَ بتدريسِ العلومِ الدينيةِ على الأسلوبِ القديم، حيثُ أبدى «الملا صالح الحرباوي» استعدادَهُ للحضورِ عندكَ لتدريسِكَ «مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ معاني المنهاج» للشربيني الخطيب، لعلهُ يوميًّا.

وكانت للملَّا مهارةٌ في حلِّ ألفاظِ «متن المنهاج» للإمامِ النوويِّ، لخبرةٍ سابقةٍ له في ذلك، وذكرَ لكَ أنَّ آل الخزنوي ـ شيوخَهُ ـ قد أجازوهُ حتَّى في تدريسِ الفقهِ الحنفيّ.

كنتَ تقرأُ المتنَ، وهوَ يشرح، ويقولُ لك: اقرأ شرحَ الشربينيّ الذي هوَ بأسفلِ المتن، ففيه فوائدُ جمَّة. فكنتَ تقرأهُ أحيانًا، وترى فيهِ العجب! وأنهى معكَ المجلداتِ الأربعةَ للكتابِ بنهايةِ العام، ماعدا باب الفرائضِ والمواريثِ، الذي طلبتَ منهُ تخطِّيه، حيثُ لا مهارةَ لكَ في الحسابِ والرياضيات.

ولا تنسَى رحلةً علميةً ندبكَ إليها أستاذُكَ المُلَّا، فزرتما صديقًا له (ملَّا أيضًا) في قريةٍ بعيدةٍ مشيًا على الأقدام، وحدَّثكَ عن أخٍ أعمى

لذلك الملَّا وأنه عجبٌ في ذكائهِ وشهوته! فكان يذهبُ إلى قرىً وحده، وبه زَعَر مع شهوةٍ عارمة، لا يُكتبُ كلُّ ما قيلَ فيه! منها أنه كان يضعُ صفيحةً مليئةً بالقمحِ على عضوهِ ليبيِّنَ قوَّته!! وقد عوقبَ بعلَّةٍ من جنسِ ما كان يجهرُ به في ذلك، فأصيبَ بشللٍ فيه، فكان عنِّينًا ولم يقدرْ على الزواج.

ووصلتما إلى القرية، وعندما أخرجَ المضيفُ بعضَ ما عنده من كتبٍ نادرة، وقعَتْ عينُكَ على كتابِ «حياة الحيوان الكبرى» للدَّميري، فما غادرَ يمينَك، وما استطعتَ الدخولَ معهم في الحديث، فقد أخرجتَ أوراقكَ ونقلتَ منه ما يعجبُكَ حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل. ووصلَ الأعمى، فعرَّفهُ بك، وكانت للمعلِّم قيمةٌ آنذاك، فرحَّبَ هو الآخرُ بك، وأرادَ أستاذُكَ الملَّا أن يُبرزَ قوَّتَهُ لكَ عمليًّا، بأن يسلِّمَ عليكَ بقوَّة، وكنتَ جالسًا القرفصاء، فأخذَ بيدِكَ وشدَّ عليها ثم سحبها، فكدتَ أن تقعَ على وجهك! ثم ندمَ على ذلك واعتذر، فهو لا يناسبُ الضيافةَ وأهلَ العلم، والمُلَّيانِ يضحكان، وأنت مازلتَ تفكرُ بكتاب «حياة الحيوان» الذي ستفقدهُ بعد حين، وكأنه مفارقةٌ لروحك، أو فقدٌ لحبيبٍ أثيرٍ على قلبك.

إن مجالسَ العلم، والمحبةَ بين طلبةِ العلم والعلماء، شيءٌ جليلٌ لا يعرفُ طعمَهُ الآخرون، إنه أخوَّةٌ صافيةٌ نابعةٌ من معينِ العلمِ والمعرفة، ليس فيها مصالحُ وأموال، ولذلك فإنَّ مجالسهم تحضرها الملائكة، ومراسلاتهم تفيضُ بالأدبِ والعلم، فيحرصُ الناسُ على جمعِ هذه وسماعِ تيك. ولهم نكاتٌ طريفةٌ تملأ النفسَ بهجةً والقلبَ سرورًا.. إنهم خيرُ أصنافِ البشر، وأفضلُ فئاتِ المجتمع، يعلِّمونَ

الناسَ خيرَ الدنيا، ويبصِّرونهم بأمرِ مستقبلهم الحقيقي، ويدلُّونهم على الطريقِ الصحيح. فكانوا علماءَ حقًّا، ليس لهم مقصدٌ في الحياةِ سوى طلبِ العلمِ ونشره، ولكن المجتمعَ الجاهلَ لم يَقْدُرْهم قدرهم، ولم يقدِّمْ لهم سوى النزرِ اليسيرِ مما يتقوَّتونَ به، على الرغمِ من كلِّ ما كانوا يقدِّمونهُ لهم، وأوَّلهُ تبصيرهم بأعزِّ وأغلى ما في هذه الحياة، وهو العقيدة، فاضطرَّ كثيرٌ منهم إلى تركِ مهنتهِ الجليلةِ للعمل، بل كان معظمهم يجمعُ بين العلمِ والعمل، ويخدمُ المسلمينَ في شؤونهم الدينية حسبةً لله، وهكذا تقلَّصَ دورهم شيئًا فشيئًا، وابتُليَ الناسُ بالأفكارِ التي لا علاقةَ لها بالدين، بل كانت حربًا عليه، وقد جاءَ وقتُ كُتّابِ «الظلام»، ومن لا «بركةَ» فيه ولا في اسمه، وصارتِ الكلمةُ لهم، فعَمُوا وصمُّوا، وحاولوا طمسَ نورِ العلمِ وتاريخه، وضياءِ العقيدةِ ومصدرها، وهي في القلبِ والضمير، وهي دينُ اللهِ قبل كلِّ شيء، فلا تَطفأ ولا تَغيب. جزَى الله علماءنا عن الأمَّةِ خيرَ الجزاء.

ومن عجبٍ أنْ علمتَ بعدُ أنَّ إمامَ قريةِ الكديمياتِ أجنبي، لا هويةَ له! وهو عربي! ولأولِ مرَّةٍ عرفتَ أن هناك عربًا أيضًا أجانب، وتشوَّفتَ إلى معرفةِ السبب، فسألتَهُ عن سببِ عدمِ إخراجِ هويته، فكان الجوابُ أغربَ من واقِع أمره، فقال بصوتٍ هادئ، وكان رجلًا مسكينًا صالحًا خاشعًا، قال: لقد ذهبتُ واستشرتُ الشيخَ عز الدِّين الخزنوي في هذا الأمر، فقال لي: يا هذا دعكَ من الهوية، فما هي إلَّا بضعُ سنواتٍ [وحدَّدها، ربَّما ستًا أو تسعًا] حتَّى يقومَ الإمامُ المهدي!!

ولا تدري ما حالهُ وما عقيدتهُ في ذلك بعد مرورِ ثلاثينَ عامًا منه!

وفوجئتَ مرَّةً بشابٍّ طويلٍ طلقِ المحيّا سريعِ الحركة، يلبسُ عمامةً خضراء (لعلها كذلك) وفي يدهِ عصا، وهو يمدُّ يدَهُ إليكَ ويقول: أعطني! فقلتَ له: ولماذا تسألُ وأنتَ شابٌّ قويٌّ معافىً وتستطيعُ أن تعمل؟ قال: أنا من السادة! فقلتَ له: وهل هو شرفٌ للسادةِ ـ آلِ الرسولِ ﷺ ـ إذا كنتَ حقًّا منهم، أن يُذلُّوا أنفسَهم للآخرينَ حتَّى يُعطوهم قروشًا؟ إن السادةَ ينبغي أن يكونوا قدوةً لغيرهم بطاعتهم لوالدهم رسولِ الله عليه الصلاةُ والسلام، ولا يحلُّ لكَ أن تسأل.

وقد فوجئَ بمحاضرتِكَ التي لم تُعجبْهُ، وذُكرَ لكَ من بعدُ أن هؤلاءِ بيتٌ من السادةِ معروفون، وأن هذه مهنتهم. وكأنهم قالوا: ولا يُرَدُّون.

ولمّا يئسَ من أن ينالَ من يدِكَ شيئًا وأنتَ تُمطرهُ بكلماتٍ جادَّة، مدَّ يدَهُ إلى القلمِ الذي في جيبِك، فأخذَهُ ومضى!

* * *

في قرية أخرى

القريةُ الثالثة هي «الحصيوية الكبيرة» القريبةُ من «تل معروف» مركزِ آل الخزنوي، من شيوخِ الطريقة النقشبندية، استعملتَ بعض مهاراتِكَ الدعويةِ فيها، واعتنيتَ بمسجدها الوحيد، الذي كان مهملًا تمامًا، وسألتَ عن السببِ فقيل: الإمامُ لا يحضر، فيمضي الأسبوع ولا يأتي. وكان عاشقًا للتجوالِ والسفر، فذهبتَ إليه مرةً وقلت: إما أن تدَعَ الإمامةَ أو تؤمَّ أهلَ القريةِ باستمرار؛ وبيَّنتَ له ما آلَ إليه أمرُ الجامعِ وتركُ الجماعةِ فيه، فعاهدَ على ذلك، ولعلهُ وفَّى.

وكان ذلك الإمامُ في أولِ عهدهِ شاعرًا ومطربًا، ثم تاب، ودرسَ بعضَ العلومِ عند آل الشيخ، وعيَّنوهُ إمامًا. وكان عنده خمسةُ أو ستةُ أولاد، كلُّهم مجانين، ماعدا أكبرهم. وكانت أمُّهم تحبُّهم حبًّا جمًّا، وتنظِّفهم وتعتني بهم، ولا تقبلُ أيَّ كلامٍ عليهم، وكان بينهم ولدٌ أقلَّ جنونًا منهم، فقال مديرُ المدرسةِ لهم: أخرجوهُ من بين العائلةِ لئلا يطلعَ مثلهم مجنونًا! ولم يقتنعْ بقولك: إن الجنونَ لا يُعدي!

ومن ذكرياتِكَ مع هذا المديرِ أنه طلبَ منكَ إخبارَهُ بعيوبهِ السلوكية، حيث كنتَ تشيعُ بينهم الآدابَ الإسلاميَّة، لكنكَ كنتَ حذرًا، لأن البيئةَ الفاسدةَ التي ينشأ فيها المرء، والأخلاقَ التي

اكتسبها فيها، تجعلهُ يتصرَّفَ على غيرِ ما هُدى، والتربيةُ تحتاجُ إلى وقت، وأمثالهُ يلزمهم مداراةٌ وأساليبُ ملائمةٌ لحالهم.

وعلى مائدةِ الأكلِ أصرَّ على ذلك، وأنت تتهرَّب، ولم يدعك، حتَّى أبنتَ له ما يُعابُ عليه، فكان ما توقَّعت، وثارَ ثورةً منكرة، وأمطركَ بوابلٍ من الكلماتِ القبيحة، صبرتَ عليها، وقلتَ له بهدوء: «أنت طلبتَ ذلك وأصررت، وبيَّنتُ لك الحقّ، فما هو خطئي»؟

ولا تذكرُ كيف تصرَّفتَ معه ـ وهو بهذا الخُلق ـ عندما أمر جميعَ التلاميذِ قُبيلَ انتهاءِ السَّنةِ الدراسيةِ بأن يجلبوا له اللبنَ حتَّى يصنعَ منه «الأَقِط» (شورتان)، ويأخذَهُ إلى البيت، وكان مرغوبًا في محيطهم كثيرًا، مع أنه كان من قرية، ولديهم ماشية، وحالتهم جيِّدة، وكان وحيدَ والديه، ربَّما من الذكور. وقد حوَّلَ أكبرَ غرفةٍ في المدرسةِ إلى مصنعٍ للأقط، على مدى أيامٍ أو نحوِ أسبوعين، وما كان التلاميذُ المساكينُ قادرينَ على مخالفته، وهو المدير، وقد اقتربتِ الاختبارات. . . .

وكان من منطقةٍ بعيدة، زرتَ فيها أهلَهُ في سفرةٍ لك إلى العاصمة، طمأنتهم فيها عليه.

وكان معظمُ أهلِ الحصيويةِ من مريدي آل الخزنوي، و«الجذبُ» بينهم منتشر، حتَّى الشبابَ منهم. وكان بينهم أحدُ الأثرياءِ يتردَّدُ عليكَ خاصَّةً لتعلِّمَهُ الكتابةَ والقراءة، حيث كان قد صدرَ قرارٌ بعدمِ إعطاءِ شهادةِ قيادةٍ لمن لا يُحسنُ الكتابة، وكانتْ لديهِ سيارة. ثم تطوَّرَ الأمرُ

وأصرَّ على أن تصحبَهُ إلى الشيخِ عز الدِّين الخزنوي، وأنت رافض، ولم يدعْكَ حتَّى صحبته، وهو لا يألو يذكرُ كراماتهِ وفضائله. وصليتمْ هناك في المسجدِ أحدَ الفرائض، وفي طريقِ أوبتهِ من الإمامةِ رآكمْ الشيخُ واقفين، فسلَّم، فقال صاحبك: إن الشيخَ نظرَ إليك! يعني أنه عدَّها له فراسة، أو...؟

* * *

بينك وبين الجن

وما لا تنساهُ في هذه القريةِ حكايتُكَ مع الجنّ! وما كان لكَ معهم شأنٌ قبل ذلك، وكان أولَ يومٍ لكَ تضعُ رحالَكَ في القرية. وأردتَ أن تخطَّ لنفسِكَ خطًا يعذرُكَ فيه زملاؤكَ المدرِّسونَ والضيوف. . . .

وعندما بدأتِ السهرةُ اعتذرتَ من الجميعِ بأن دراستكَ هذه السَّنةَ صعبة، والموادَّ كثيرة، ولا بدَّ من التفرُّغِ والقراءةِ الجادَّة. وكانت هناكَ غرفةٌ بجانبِ غرفةِ المدرِّسين على طرفِ المدرسةِ، فأخذتَ فراشكَ وكتبكَ إليها، وفانوسًا كانَ هناك، وأقبلتَ على القراءةِ حتَّى نعست! ثم نوَّستَ الضوءَ لتنام، ولكنكَ فوجئتَ بأنينٍ متتابعٍ كأنه أنّاتُ حاملٍ على وَشْكِ الولادة! رفعتَ رأسكَ فلم تجدْ شيئًا، استعنتَ بالفانوسِ من جديد، ولكن لا شيء!

رجعتَ إلى النوم، فرجعَ إليكَ الصوتُ نفسه، قمتَ من جديد، وفتحتَ البابَ بسرعة، ظنًّا منك أنه مزحةٌ من زملائكَ! لكنكَ رأيتَ بابهم مغلقًا وهم في حديثِ السهرة!

عدتَ إلى الغرفةِ وقرأتَ آيات، وتمدَّدتَ لتنام. . . فعادَ إليكَ

الصوت! قمتَ هذه المرَّةَ منزعجًا وأنتَ لا تدري ماذا تفعل! لأنكَ لا تعرفُ مصدرَ الصوت! ثم رجَّحتَ أن يكونَ هناكَ حيوانٌ شاردٌ قد جُرحَ والتجأ إلى المدرسة، وكانت في طرفِ القرية، فأخذتَ الفانوس، ودرتَ حولَ الغرفةِ من جوانبها، وعند النافذة.. ولكن لا شيء؟!

عدتَ صامتًا مفكرًا.. وكأنكَ أدركتَ ما حولك.. فتناولتَ فراشِكَ وفتحتَ البابَ على زملائك... وأحضرتَ كتبك، وقلتَ لهم ما حدث، فقالَ بعضُ الحضور: إنهم الجنّ، وهم موجودونَ في هذهِ القرية، معروفٌ أمرهم.. ووصلَ الخبرُ إلى إمامِ القرية، فذكرَ لكَ أنهم الجنّ، وأنهم من قبيلةِ كذا، وأنهم يبتعدونَ عنكَ بقراءةِ سورةِ الزلزلة. ولم تعدْ إلى تلكَ الغرفة، كما أنكَ لم تتركْ قراءةَ سورةِ الزلزلةِ منذ ذلك اليومِ وحتى يومِكَ هذا!

❊ ❊ ❊

حيلة فقير

وقبل نهايةِ العامِ بشهرٍ أو أكثرَ طلبَ منكَ أحدُ زملائكَ من «القحطانيةِ» أن يصحبكَ إلى القريةِ ليسكنَ معكَ هناك ويتفرَّغَ للدراسة، استعدادًا لتقديمِ اختباراتِ الثانويةِ العامَّة، فوافقتَ على ذلك، وشرحتَ لزميليكَ المدرِّسَين أمرَه، فأشفقوا عليه ووافقوا. ثم رأيتَ أنه لا يراجعُ دروسه، ويكثرُ من اللَّعبِ بالكرةِ الطائرةِ وما إلى ذلك، فنبَّهته إلى ذلك، وأن الامتحاناتِ اقتربتْ؛ فبيَّن أمرَهُ وقال: الحقيقةُ أنني لم آتِ إلى هنا لأدرس، بل لأنه لم يبقَ عندنا في البيتِ شيءٌ نأكله، ولا يوجدُ عندنا أيُّ مصروفٍ ننفقهُ على أنفسنا، فتحيَّرنا ماذا نفعل وكيفَ نعيش، فطلبتُ من الزوجةِ أن تذهبَ إلى أهلها في القريةِ وتعيشَ عندهم، وأنا آتي معك، ولا أعرفُ مثلكَ يقدِّرُ ظروفي!

* * *

الخوف من الشرطة

ومن عجائبِ هذهِ القريةِ أحدُ عجائزها الكبار، وله أولادٌ كبار، وكانَ محترمًا، لكنهُ ابتُليَ بالخوفِ من الشرطة، وكانَ يقولُ لهم «الدرك» ـ من المصطلحِ الفرنسيِّ آنذاك ـ وأنهُ عندما يسمعُ بقدومهم إلى القريةِ يرتعدُ ويختبئُ حتَّى يُخبَرَ بالأمان، لا الأمانِ منهم، ولكن بالأمانِ من خروجهم من القريةِ وأن لا أثرَ قريبٌ لهم فيها!

وأحببتَ أن ترى ذلكَ الرجل، فجلستَ إليهِ، وكان هادئًا عاديًّا، وقالَ لكَ بتؤدةٍ وكأنهُ عرفَ سببَ نظرِكَ إليه: يا أستاذ، أريدُ أن أعرفَ تاريخَ هذا الدرك، فما بدايتهُ، ومن الذي كانَ صاحبَ هذهِ الفكرة، وكيفَ تطوَّرت...؟

* * *

ما لم يُذكر..

وفي قريةٍ ـ لم تعدْ تذكرها ـ ألحَّ عليكَ رفقةٌ أن تذهبَ معهم في سيارةٍ إلى صيدِ العصافيرِ ليلًا، حيث تجتمعُ في قريةٍ فيُصادُ منها الكثير، وخاصةً أن في قريةٍ مجاورةٍ لها عروسًا ابنَ ثريٍّ سيكونُ معكم. ووصلتم إليها، فكان شابًّا غِرًّا عصبيًّا جدًّا، إذا غضبَ كفرَ وسبَّ الله سبًّا قبيحًا، مع رفعِ صوته وكأنه جملٌ هادرٌ، لا يعرفُ في سبِّه وصياحهِ سوَى الكفرِ، والكلُّ ساكت، وأبوهُ ساكتٌ أيضًا، ولا تدري كيف تصرَّفتَ في ذلكَ الوقت، لكنَّكَ كنتَ منفعلًا جدًّا، وأنت ضيفٌ، حتَّى صاحَ به والدهُ مرةً غاضبًا: كفى يا فلانُ كفى كفى. والذي تذكرهُ أن السائق، وكان شابًّا نصرانيًّا مؤدَّبًا، اعتذرَ إليك أشدَّ الاعتذار، وذكرَ أنه لم يكنْ يتصوَّرُ هذا الخُلُقَ المنتنَ منه!

ولا تذكرُ أنكم صدتمْ شيئًا من العصافيرِ، فيبدو أن الأمرَ انتهى إلى فرقةٍ وخلاف، بسببِ تلك الكفريَّاتِ التي فاهَ بها العروسُ المشؤوم، وكان وحيدَ والديه، فدلَّلوهُ وأرادوا تزويجَهُ وهو صغير، فقادَهُ هذا الدلالُ إلى قلَّةِ الأدب وعدمِ الاحترام، فما كان يعرفُ صغيرًا من كبير، ولا عالمًا من جاهل، المهمُّ أن يصيحَ ويقولَ ما شاءَ دونَ أن يقفَ أمامَ عواطفهِ وأهوائهِ شيء!

وتذكرُ هنا أمرين، وهو كثرةُ ما كان يتلفظُ به الشبابُ وغيرهم من كلماتٍ كفريَّةٍ عند الغضب، وقد أشارَ بعضُ العلماءِ إلى هذا، وأن سوريا هي أكثرُ البلدانِ الإسلاميَّةِ التي يرِدُ فيها مثله، وأظنُّ الأمرَ تغيرَ بعضَ الشيءِ الآن.

وعلى المسلمِ أن يتنبَّهَ إلى أن الكافرَ لا يتقبَّلُ منه عملٌ مادامَ على كفره، فهو أكبرُ إثمٍ وأعظمُ من الزنا والربا وعقوقِ الوالدينِ وما إليها. قال سبحانهُ في الآيةِ الخامسةِ من سورةِ المائدة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الأمرُ الآخر: هو كراهةُ صيدِ الطيورِ ونحوها في أوكارها ليلًا، كما ذهبَ إليه بعضُ العلماء، وأباحَهُ آخرونَ ولم يروا به بأسًا.

كما تذكرُ أنك في قرية، لا تذكرُ اسمها عمدًا، كان يطلُّ على المدرسةِ فيها بيتُ المختارِ الثري، وأولادهُ أثرياء، وبعد أسابيعَ أو شهورٍ نوديتَ مرةً أنْ أقبلْ إلى بيتِ المختارِ حتَّى تشاركهم الغداء. وذهبتَ متثاقلًا وأنت تجرُّ رجليك، وعندما جلستَ ما كنت تدري ما الذي ستأكل، فلا يوجدُ سوى صحنٍ فيهِ بعضُ المرقةِ وبينها كومةُ عظامٍ عليها مِزَقٌ من اللحمِ لا يمكنُ الحصولُ عليها منها عضًّا ولا بيد! وحواليكَ رجال، والمختار فَرِحٌ على الآخِر!! وعرفتَ أنه فرحُ البخيلِ بالشيءِ اليسير! فغطستَ بقطَعٍ من الخبزِ في بحرِ هذه المرقة، وخرجتَ منها سالمًا جائعًا!

وبعد سنوات، كنتَ في مسجد، فإذا بذلك المختارِ يهرعُ إليك، وأنت جالس، ليقبِّلَ وجهكَ ويديكَ وهو يبكي، مع جزعٍ شديد،

فمنعتَهُ بقوَّةٍ وأبعدتَه، وهو لا يكفُّ عن البكاءِ والصياح، يقول: ادعُ لي يا شيخ، ادعُ لي، فإنني مريض. . . ، ويبكي، وعرفتَ أن سببَ جزعهِ هو تعلقهُ بالدنيا، وحبهُ للمال، فكان يتلذَّذُ بجمعهِ وكنزه، حيث كان سميرَهُ وأنيسَه. . والله يحفظ عبادَهُ المخلصين.

وكان له ابنٌ عُيِّنَ مديرًا لإحدى المدارسِ، وأولَ ما تعيَّنتَ في تلك القريةِ زارها مرةً فرآكَ، فعرَّفكَ به أحدُ أهالي القرية، فكان بدلَ أن يرحِّبَ بك ويخفِّفَ عنكَ آثارَ الغربة، ويذكرَ أنك بين أهلك، قال مخاطبًا ذاكَ الذي عرَّفكَ به: أولُ ما يأتي المعلمُ إلى القريةِ يرفعُ من هيأتهِ وكأنه مديرُ ناحية، وكأنه ليس هناك أرفعُ منه، أو أعلمُ منه. أوكلامًا من هذا القبيل!

وقد انكسرَ خاطركَ آنذاك، وتألمتَ كثيرًا من قوله.

* * *

من مآسي التدريس

ذكرياتُكَ مع التدريسِ تسميها مأساةً... أليسَ كذلك؟

بل إنها مآسٍ... تذكرُ أولَ مرةٍ تعيَّنتَ فيها برتبةِ «وكيل معلم» في قريةٍ بعيدةٍ جدًّا، لم تكن تذهبُ إليها السياراتُ، بعد مدينةِ الحسكة، فوصلتها بدراجةٍ نارية، لكنَّ نقودكَ نَفِدَتْ بمجردِ إعطاءِ أجرةِ السائقِ له، وعندما وصلتَ إلى هناكَ قيلَ لكَ: إنَّ معلِّمًا آخرَ قد تعيَّنَ في المدرسةِ بدلًا منك؛ فتجمَّعتْ عليكَ مأساتان، وقدَّر اللهُ ما لم يخطرْ لكَ على بالٍ في قريةٍ تعيشُ في وسطِ شبهِ صحراء، حيثُ كانت مقرَّ تجمُّعٍ لثريٍّ من مدينةِ عامودا يفلحُ الأراضيَ هناك، فعرفته، وكان من أقرباءِ زوجِ عمَّتك، فقدَّم لكَ ما يوصلكَ إلى البيتِ (١٠ ليرات).

وتوالتْ سنواتُ العذاب... فكنتَ في سنواتٍ تدرِّسُ أسابيعَ وتُطرَدُ... لأسبابٍ معروفةٍ وغيرِ معروفة، لكن كانَ يكفي منها سببانِ كبيران سبَّبا لكَ معظمَ البلاء: كونكَ إسلاميًّا، وكونكَ كرديًّا.

أما الكرديَّةُ فليستْ كلَّ شيء، فكانَ الكثيرُ من أهلها يدرِّسون،

لكنكَ كنتَ من بينِ من لا هويةَ لهُ (أجنبيّ)، فيُحكَمُ عليكَ بالطرد، ويُشهرُ في وجهكَ أنكَ بدونِ هوية.

فإذا رُبطت القوميَّةُ بالأمورِ الإسلاميَّةِ كانَ جرمُكَ مشهودًا!

* ومن ذلكَ: التدريسُ في إعداديةِ البلدة، حيثُ كانَ يزعجكَ أحدُ أعضاءِ الإدارةِ ويتقصَّدُ إيذاءَك، فما كنتَ تسكت... لكن كانَ لهُ أصحابٌ ذوو سلطةٍ حزبية، فاجتمعوا على طردك، فطُردت.

وراجعتَ «التربيةَ» في محافظةِ « الحسكة» لمعرفةِ الأسباب، فقيل: هذا ليسَ من جهتنا، اذهب إلى الفرع (الحزب).

وذهبتَ إلى هناك، وراجعتَ كبيرهم (دَنحو)، وتحدَّيتَهُ في إثباتِ أيةِ شبهةٍ أو مخالفةٍ أو تقصيرٍ منك، فلم يجدْ ما يقوله، سوى أن رأى في يدِكَ مجلةَ «الفيصل»، فقالَ للحاضرينَ من أصحابهِ: انظروا إلى هذا، يقولُ لماذا طردتموني من التدريسِ وهو من الإخوانِ المسلمين، انظروا إلى المجلةِ التي يحملها في يده!

إي والله، لم يجدْ سوى هذا الإثباتِ دليلًا على إدانتي!!

وهي إدانةٌ لا تطابقُ شيئًا من اسمِ المجلةِ ولا محتواها!

وعندما قلتَ لهُ: إنها ثقافيةٌ، وتسمحُ الدولةُ بتوزيعها، وأنكَ حصَّلتها من مكتباتِ هذهِ المدينة... ؛ ركبَ رأسَهُ، واكتفى بالتهكمِ والاستهزاء، وعدمِ الالتفاتِ إليك، بل أقبلَ على أصحابه مبتسمًا وهو يقول: ماذا تشربون؟! وعدَّد أصنافًا من الأشربةِ لم تسمعْ بها من قبل!

وكانت المجلةُ آنذاكَ يرأسُ تحريرها علوي طه الصافي، أحدُ كتَّابِ الجيلِ الثاني من الحداثيينَ في السعوديَّة، وما كنتَ تجدُ فيها رائحةَ الدِّين، ولا موضوعًا إسلاميًّا واحدًا، بل كلُّها موضوعاتٌ حداثيةٌ وآدابٌ أجنبيةٌ وتراجمُ غربيةٌ ومطالعاتٌ ثقافيةٌ جافَّةٌ بعيدةٌ عن ثقافةِ أمةٍ أصيلة، لكنها كانت من «أحسنِ الموجودِ» في البلدِ؛ لأنهُ لا تحريضَ فيها ظاهرٌ على الكفرِ والإلحادِ والحزبيةِ المقيتة، والشعاراتِ الجوفاءِ التي ملَّتْ منها الأسماعُ وضجرتْ منها القلوبُ ولفظتها النفوس.

وكان لذلك الإداريِّ (عبود) الذي آذاكَ تصرفاتٌ مشينةٌ في المدرسة، ففي السَّنةِ نفسها رُفِعَ خبرهُ إلى المفتِّشِ التربويّ، لكونهِ نجَّحَ أكثر من (٧٠) طالبًا بالرشوة.

وعندما كُلِّفَ المفتِّشُ بالمهمةِ للتحرِّي، كانَ قد وصلَهُ الخبر، فمضى إلى دولةٍ عربيَّة، ومنها إلى السويد، ولم يعدْ منذ ذلك الوقت! وجاءَ المفتِّشُ التربويُّ وكشفَ جميعَ الأوراق، وأعادَ كلَّ الذينَ دفعوا الرشاوى إلى صفوفهم السابقة!

* ودرَّستَ شهورًا في ناحيةِ الدرباسيَّة بثانويتها، وإعداديةِ «شجرةِ الدرّ» للبنات ـ لعلَّ هذا اسمُها ـ، وذكرَ لكَ بعضُ الطلبةِ أنه لم يكنْ قبلكَ في هذا العامِ مدرِّسٌ لمادَّةِ التربيةِ الإسلاميَّة، بل كان يدرِّسُها معلِّمٌ شيوعي، ولعلَّهُ كان مدرِّسًا للرياضةِ أو الموسيقى. ولم تتأكدْ من هذا القولِ أو لم تتابعْه، لكنكَ نقلتَ الكلامَ إلى المفتشِ التربويِّ عندما زارَكَ في الثانويَّة.

ورأيتَ في المدرسةِ أو خارجها بضعةَ طلبةٍ سلفيين، لأنه كان في السنواتِ السابقةِ مدرِّسٌ سلفيٌّ للمادَّة، وكانوا منعزلينَ من المجتمعِ لا يتعاملُ معهم أحد، فوجَّهتهم أن يسايروا المجتمعَ في الأمورِ الخلافيَّةِ حتَّى يثقوا بهم، وأن يغيِّروا المنكراتِ والبدعَ باللينِ والتدرُّج، وما إلى ذلك.

وقد رحَّبَ بكَ إمامُ الجامعِ الكبيرِ كثيرًا هناك، وخاصَّةً عندما ذكرتَ له أنكَ من تلاميذِ الشيخِ علوان حقِّي، وربما لتعريضهِ بالمدرِّسِ السَّلفيّ، وأنه لو لم يكنْ أهلُكَ معكَ لسكنتَ في إحدى غرفِ الجامع.

وفرغتَ من صلاةِ الجماعةِ مرَّة، فرأيتَ رجلًا يدرِّسُ القرآنَ الكريمَ في وسطِ الجامع، وليسَ معه سوَى واحدٍ أو اثنين، وكان أمرًا غيرَ مألوف، فسلَّمتَ عليه، وأحببتَ التعرُّفَ عليه لتشجيعه، فقالَ إنه (إبراهيم العالي)، ويعملُ في تجارةِ الأخشاب. ثم تبيَّنَ أنه داعيةٌ قديم، وقد ماتَ في مكةَ المكرَّمةِ مغتربًا عام ١٤٢٤هـ، وترجمتَ له في «التتمة».

وبينما كانتِ السَّنةُ الميلاديَّةُ الجديدةُ تقترب، نبَّهتَ الطلبةَ إلى حرمةِ الاحتفالِ بها... وفي المساءِ طلبَ منكَ أحدُ أبناءِ أقرباءِ والدِكَ القدامَى أن تسهرَ معهم، فعرفتَ أنه بسببِ ليلةِ الميلاد، فأنكرتَ فعلَهُ وشددتَ عليه، ولكنهُ حلفَ وأصرَّ على حضورك، وكان قد أكرمكَ وأنتَ مغتربٌ هناك، فطلبتَ منه أن يغيِّرَ نيَّته، وأن ما يقدِّمهُ ليسَ بسببِ هذه المناسبة، فأقرَّ بذلك وحلف... وإذا بأحدِ طلبتكَ يحضرُ السهرةَ أيضًا، وكان جارًا لهم، ففهَّمتَهُ الأمر، وأقرَّ هو أيضًا أن حضورَهُ ليسَ للمناسبة.

* وفكَّرتَ في التدريسِ خارجَ منطقتكَ، فقد يبدو ذلكَ ممكنًا حيثُ لا تظهرُ حساسيات، وخاصَّةً في دمشق، فكانَ ما أمَّلت، تعيَّنتَ مدرِّسَ ساعاتٍ خارجَ الملاكِ في إعداديةٍ بالمزَّةِ، أو أنها كانت ثانوية، مع ساعاتٍ في إعداديةِ عمر بنِ عبد العزيز؟ ربَّما شهرًا أو أقلّ، وكانت الأجواءُ مستعرةً جدًّا من أحداثِ حماة، في كلِّ يومٍ أوكلِّ ساعةٍ تسمعُ الأخبارَ القاتلة. . . وحدثَ في الوقوفِ الصباحيِّ مرةً أن لم تلتزمْ بالوقوفِ تحيةً للعلَم، فما مرَّتْ ساعاتٌ حتَّى حضرَ مسؤولٌ كبيرٌ في الحزبِ يطلبُ الاجتماعَ بك، فبدأَ بدبلوماسيةٍ مبيِّنًا عواقبَ عدمِ احترامِ تحيةِ العلَم، وكانَ هدفُ رجالِ الدولةِ عدمَ توسيعِ رقعةِ الحربِ الداخلية، ويركزونَ على الهدوءِ في العاصمة.

وما كنتَ تعرفُ أحدًا هناك، لكنكَ أدركتَ أو نُصحتَ من مدرِّسينَ في المدرسةِ أنكَ ستكونُ نقطةَ تركيزٍ وتجسُّسٍ من قبلِ المخابراتِ في المدرسةِ بعدَ هذهِ الحادثة، وأنَّ الأفضلَ لكَ تركها. وكانت مظاهرُ الحربِ تتحدثُ عن قتيلٍ وسجينٍ ومستبعدٍ من المتديِّنين، بينهم من لا علاقةَ لهم بالحوادثِ والأحزاب. . . فاخترتَ السلامة.

ومن المدرِّسينَ الذين كانوا معك في هذه المدرسةِ «**أحمد عايش اللطيف**» من البوكمال، الذي حصلَ على الدكتوراه في الحديثِ من جامعةِ أمِّ القرى، وصارَ أستاذًا في جامعةِ الإمامِ بالقصيم، وأصدرَ عدَّةَ مؤلفات، التقيتَ به في الرياض، وذكَّرك بذلك، وما عرفتَهُ أنت، ولا تذكَّرته.

* * *

ذكرى مؤلمة

لقد حدَّثتَ أكثرَ من مرَّةٍ بهذهِ الحادثةِ المؤلمةِ، وذكرتَ أنكَ لا تنساها مدى عمرك، لأنها تمَسُّ عرضَ المسلمينَ وشرفهم، وتبيِّنُ خللًا فظيعًا في المجتمع، من تحكُّمِ أشخاصٍ متعصِّبينَ يتصرَّفونَ بهوى في حقدٍ أعمى وعنصريةٍ مقيتةٍ تورثُ كراهيةً شديدةً وبذورَ شقاق وتصرفاتٍ لا يُتنبَّأُ بها إن عاجلًا أو آجلًا . . .

فقد كانت طالبةٌ مسلمةٌ تدرُسُ الإعدادية، وما كانت هناكَ إعداديةٌ خاصَّةٌ بالطالبات، فكنَّ يدرسنَ في إعداديةِ البنين، يجتمعنَ في قاعةٍ واحدة، لكنهنَّ في الاجتماعِ الصباحيِّ يكنَّ مع الطلاب، والكلُّ يلبسُ لباسَ الفتوَّة، وهي الوحيدةُ بينَ الطالباتِ التي كانت تلبسُ الحجابَ على رأسِها. فلما رآها مدرِّبُ الفتوةِ (شمعون)، نزلَ وقد امتلأَ حقدًا وضغينةً على شعارٍ إسلاميٍّ يتجلَّى في المدرسة. . . وهُرِعَ إليها، ومدَّ يدهُ الآثمةَ إلى الحجاب، ونزعَهُ بكلِّ فظاظةٍ وعنجهيةٍ، ورماهُ في «برميلِ» الزبالةِ الذي كانَ هناك!

فعلَ هذا بكلِّ وقاحةٍ ونذالة، بينَ أكثرِ من (٥٠٠) طالب، ورآهُ مدرِّسون، فلم ينطقْ منهم أحد، أو ما كانوا يجرؤونَ على ذلكَ،

فيكفي أنهُ حزبيٌّ، ويستمدُّ قوتهُ من شيطانٍ حزبيٍّ مثله، ومناصبُ توزيعِ القوى والسيطرةِ بيدهِ وبيدِ أمثاله.

وكان سمينًا، مكفهرَّ الوجهِ بغيضَه، عُرِفَ بسهراتهِ الخمريةِ المتنقلة.

وانتكستِ الحمامة، وكادتْ أن تموتَ خوفًا وحياء، وصُدمت، وما كانت تقدرُ على عملِ شيءٍ رغمَ إيمانها الكبير.

ولا تدري كيفَ وصلكَ الخبرُ ومتى، وكأنَّ سيفًا شُهِرَ في وجهك، أو خنجرًا غُرِسَ في قلبك... وكنتَ مطَّلعًا على مثلِ هذه الأمورِ التي تحدثُ مع الدعاة، وتحتاطُ فيها إذا حدثت، لتُعطيَ الأمرَ للتفكيرِ المتَّزن، مع التخطيط السليمِ والصبر، وعدمِ استعجالِ النتائج، وتركِ العاطفةِ جانبًا، والاشتغالِ بالمهمِّ...

لكنَّ المسلمَ يتألَّمُ لعرضهِ كثيرًا ولا يكادُ يصبر، فالانتقامُ هو أولُ ما يفكرُ به، وليكونَ ذلكَ درسًا وعبرةً لآخرينَ تسوِّلُ لهم أنفسهم انتهاكَ أعراضِ المسلمات...

لكنكَ عرفتَ أنَّ من يفعلُ ذلكَ يتعرَّضُ لمصيرٍ مجهولٍ لا يُعرفُ أولهُ وآخرهُ، وهذا ما يريدهُ الأعداءُ المتربِّصونَ، بأن يزاحَ العاملونَ الملتزمونَ من الطريقِ بأدنى مخالفةٍ يرتكبونها، ليكبِّروها هم، وتلصقَ بهم تُهم، يصدِّقهم الناسُ فيها.

ولم يكنْ هناكَ أمرٌ حكوميٌّ بإلزامِ الفتاةِ بنزعِ حجابها في المدرسةِ أو حصَّةِ الفتوة، ولكنه التسلطُ والقوَّةُ مع الحقدِ والكراهيةِ من طرف، والخوفُ والذلُّ واللامبالاةُ من الطرفِ الآخر.

فكان أن مضيتَ إلى وجهاءِ البلد، ليبدوَ ردُّ الفعلِ شعبيًّا واجتماعيًّا، لا فرديًّا... وحكيتَ لكلِّ واحدٍ قصةَ تصرُّفِ حقودٍ غيرِ مسؤولٍ يؤذي أعراضَ المسلمين، وأنَّ توجُّهَ جماعةٍ محترمةٍ إلى مديرِ الناحيةِ ليكفَّ عن المسلمينَ شرَّ ذلكَ المجرمِ العنيد، هوَ أفضلُ الطرق.

لكنَّ المفاجأةَ أنَّ واحدًا منهم لم يستجب! معَ كلِّ المحاولاتِ الحماسيَّة، وبيانِ نتائجِ السكوت، وغيرِ ذلك... فلا حياةَ لمن تنادي.

وتذكرُ أنكَ أحييتَ مثلًا كرديًّا كانَ مدفونًا في قبورِ تلكَ البلدة، فكنتَ تقولُ لهم، ولآخرينَ، ولا تعني بهِ هذهِ الحادثةَ فقط، بل أكبرَ منها: دعسَ أحدهم على بطنِ آخر، فقالَ: آخ ظهري؛ فقيلَ لهُ: إنهُ يدعسُ على بطنكَ وأنتَ تشكو من ظهرك؟ فقال: لو كانَ لي ظهرٌ لما قدرَ أحدٌ أن يدعسَ على بطني!

وانتهى الأمرُ إلى تثبيتِ ما كانَ، من عدمِ إجبارِ الفتاةِ على خلعِ حجابها، ولكن لم يكن ذلكَ في تلكَ السَّنة.

وكانتْ حوادثُ مثلُ هذهِ تشهدها مدنٌ أخرى، بقصدِ التحقيرِ والإذلال... ونتائجها، من غيرِ تحديد، عميقةً وعنيفة، في صورٍ شتَّى من الاستنكار، سرًّا وعلنًا، وكان ذلك سببًا لانشقاقاتٍ في المجتمعِ لا تُنسى ولا تلتئم.

وقد تركتْ تلكَ الفتاةُ المدرسةَ لأجلِ هذهِ المضايقات، وكان هذا ما يطلبهُ الخصماء، لتبقى المتبرِّجةُ تتسنَّمُ المناصبَ التربويةَ وغيرها، وتبقى الملتزمةُ بعيدةً عن منافذِ القرار. وغابَ عنهم أنها صانعةُ الرجال، وأنها غيرُ غائبةٍ عن المجتمع، وأن دستورَها القرآن، ومعلِّمَها الرسولُ ﷺ بسيرتهِ وسنَّتهِ ومدرستهِ التربويةِ المتكاملة.

❊ ❊ ❊

وقفات

وفي هذه المرحلةِ والمرحلةِ التاليةِ كنتَ تتمرَّنُ على التصبُّرِ والاخشيشان، فتتعمَّدُ أن تبيتَ على الأرضِ الرطبة، وتتخذَ من نعالكَ مخدَّة، وتنامَ دون غطاء، وتغيِّرَ من عاداتِكَ في الأكلِ والشرب، وأنتَ تعلمُ أن الذي يدعو إلى الإصلاحِ لا بدَّ أن يواجِهَ المتاعب، ولئلا يؤثِّرَ ذلك على مواقفِكَ وسلوكِكَ إذا ما قُدِّرَ لكَ أن تُرمى في السجن، أو تعنَّفَ وتؤذَى، وقد جزعَ رجالٌ وبكى آخرون في ذلك.

وكان لكَ وردٌ، بل أورادٌ من الأدعيةِ والأذكار، وتذهبُ إلى الفلواتِ والسبحةُ بيدِكَ أحيانًا، لتتابعَ ذكرَ كلماتٍ هي أحبُّ ما تكونُ إلى الله، وقد أفادكَ ذلك كثيرًا، فإنَّ ذكرَ الله يُرضي الربّ، ويطمئنُ القلب، ويغسلُ النفسَ من عيوبها وكدوراتها، ويُبعدُ عنها الأحقادَ والضغائنَ والأطماعَ والحسدَ والغيبة، وما إليها من شرورِ النفسِ وسيِّئ الآدابِ والأخلاق، وإنها إن لم تستأصلها فإنَّها تخفِّفُ منها كثيرًا.

وكانت حياتُكَ في البلدةِ أثناءَ الدراسةِ الجامعيةِ كلِّها دعوةً إلى الحقِّ وصراعًا مع الباطلِ وأهله.

وقد ساندكَ والدُكَ في دعوتِكَ ومواقفك، وتكفَّلَ بمعيشتِكَ وعيالِكَ عندما أغلقَ الأشرارُ أبوابُ العملِ في وجهك. كما لقيتَ عنتًا من بعضِ أهلِكَ لأنكَ لستَ مثلَ الشبابِ الآخرينَ في سلوكهم وأحاديثهم.

وكان الوالدُ ـ رحمهُ الله ـ محبًّا للعلم والاطِّلاع، يدخلُ عليكَ وأنتَ مكبٌّ على البحثِ والمطالعة، فيسألكَ ما شاءَ اللهُ أن يسأل، ثم تراهُ أغمضَ عينيهِ وقد هجمَ عليه النوم، من أثرِ العملِ المضني، فتنظرُ إليه وقد تشقَّقتْ كفَّتا يديهِ وباطنُ رجليه، فتبكي بكاءً مُرًّا وتقول: حتَّى متى تكدُّ وتكدحُ يا أبي، ومتى أعملُ أنا لتستريحَ أنت؟!

* * *

طاسة اللَّبن

ومما تذكرهُ عدا ما سبق: موظَّفٌ كانت رتبتهُ الوظيفيةُ «قلمَ الناحية»، طلبتَ منهُ ورقةً رسميَّةً لتكملةِ أوراقِ زواجك، فردَّ بكلِّ صلافةٍ ولا مبالاةٍ: طاسة لبن! فراجعتَهُ في ذلكَ فأبى إلَّا أن تأتيَ له بطاسةِ لبن! وكانت الرشوةُ قد ذرَّ قرنُها، فتركتَهُ ومضيتَ إلى مديرِ الناحيةِ وشكوتَهُ إليهِ، ومضيتَ إلى البيتِ. ولم تمضِ ساعةٌ حتَّى جاءَ ذلكَ الموظَّفُ إلى بيتكم، وكانَ عسكريًّا، ينادي أباكَ: إن ابنكَ اشتكى عليَّ وإن مديرَ الناحيةِ سيخرِّبُ بيتي إذا لم يسحبْ شكواهُ. وكان أمرًا غيرَ مألوفٍ أن يشتكيَ أحدٌ على موظف، بل لم يسمعْ أهلُ البلدةِ بذلكَ في بلدتهم، على ما تذكرُ، لخوفهم منهم، وخشيةَ تعويقِ مصالحهم. كما لم يحدثْ أن التجأَ موظَّفٌ أو عسكريٌّ إلى بيتِ كرديٍّ يترجَّاهُ للعفوِ عنه! وكنتَ آنذاكَ عروسًا، ووالدُكَ يعملُ في تجهيزِ البيت، فوعدَهُ الوالدُ خيرًا، ثم طلبَ منكَ أن تعفوَ عنهُ فأبيت، وكانَ صديقٌ لكَ جاءَ من قريةٍ يهنِّئكَ بالزواجِ، فسمعَ ما يدورُ بينكم، فقالَ: واللهِ إنهُ قبلَ أيامٍ طلبَ مني أيضًا علبةَ سجائر (LM) وسوفَ أشتكي عليه أيضًا. فذهبتم إلى مديرِ الناحية، وذكرَ ذلكَ الصديقُ مظلمتَهُ له، فزادَ الطينَ بلَّةً، وعادَ إلى بيتكم مرَّةً أخرى يترجَّى والدكَ

أن تعفوَ عنهُ، وأنَّ أولادَهُ صغارٌ وما إلى ذلكَ، فرقَّ لهُ الوالد، وأمركَ بسحبِ شكواك، فمضيتَ إلى مديرِ الناحيةِ وسحبتَ الشكوى، وكانَ عنده قياديٌّ حزبيّ (جورج إسكندر)، فتعجَّبَ، وكانَ ساكتًا مبهوتًا، ولسانُ حالهِ يقول: هل سيكونُ هناكَ جيلٌ في هذهِ البلدةِ يكونُ فيهِ مثلُ هذا؟

إنهُ جانبٌ من صورِ الخوفِ والهلعِ والظلمِ الممارَسِ على الناسِ آنذاكَ بدونِ رقابةٍ ولا خوفٍ ولا حساب.

* * *

نفاق

وربطًا بهذهِ الحادثةِ تذكرُ أن الذي كانَ معجبًا بمبادرتِكَ «الشجاعةِ» آنذاك، رجلٌ كانتْ لهُ شبْهُ وَجَاهَةٍ في البلد، وقد ذكرَ هذا الإعجابَ بكلِّ حرارةٍ لوالدك، فكانَ الوالدُ يستشهدُ بأقوالهِ في مجالسِ الرجال. وقدَّرَ اللهُ أن يوضعَ في منصبٍ حكوميٍّ مرموقٍ بدمشق، وعندما كنتَ تدرسُ الجامعةِ هناك، طلبَ منكَ جارٌ لكَ يعرفه، أن تذهبَ إليهِ وتطرحَ عليهِ مشكلتك، من عدمِ حصولِكَ على الهويَّة، فلعلهُ يتوسَّطُ لكَ وتُمنَحَها، فهو يعرفُ شخصياتٍ كبيرةً ومهمَّةً، وأكَّدَ لكَ أنهُ سيعملُ شيئًا ما.

وتثاقلتَ جدًّا لهذا الطلب، بل رفضت، وقلتَ: إنهُ صارَ الآنَ مثلَ غيرهِ من رجالِ الحكومة، يفضِّلُ مصلحتَهُ وينفِّذُ الأوامر؛ فلم يدعْكَ زميلُكَ حبًّا لكَ وشفقةً عليك، فوافقتَ على مضض، وقمتَ مُكرهًا حتَّى لا تجرحَ شعوره، وعندَ الوصولِ إليهِ في الفندقِ لم يزدْ على ردِّ السلامِ ببرود، ولمَّا رآكَ كأنهُ انجفلَ منكَ ورُوِّعَ بكَ، ولا تدري كيفَ أوصلَ زميلُكَ سببَ المجيءِ إليه، وهوَ يتحاشَى حتَّى النظرَ إليكَ، وسلَّمَ اللهُ أنْ لم يطردك، فلم يدرِ ماذا يفعل، ثم استفزَّ قائمًا وهُرِعَ إلى الهاتفِ، وتكلَّمَ معَ مأمورِ الهاتفِ بالقحطانيةِ

(مَلْكي)، فأجملَ لهُ الكلامَ وتذلَّلَ إلى أبعدِ حدّ، وهو يكرِّرُ في كلِّ مرَّةٍ إنهُ مستعدٌّ لتنفيذِ ما يطلبونَ منهُ وأنهُ رهنُ إشارتهم، وقالَ كلماتٍ أخرى من ذُلٍّ وخنوعٍ لم تذكرها بحرفها فلم تكتبها حتَّى لا تظلمهُ. ويبدو أن سببَ موالاتهِ لهم هو عدمُ ممانعتهم من وصولهِ إلى ذلك المنصب، أو أنهم كانوا من ضمنِ من رشَّحوهُ لذلك، وكانت هذهِ المكالمةُ إشارةً بليغةً ودرسًا كافيًا لكَ ولزميلِكَ لتنسحبوا من مجلسه، بشرفٍ أو بغيرِ شرف، وأنتم تجرُّونَ أذيالَ الخزيِ والعارِ من موقفِ رجلٍ مسلمٍ مثله!

وعندما خرجتما نظرتَ إلى زميلك، فإذا بهِ نكسةُ خجلٍ، أو قطعةُ فحمٍ، أو جَذْرٌ هالكٌ منقَعِر؛ لشدَّةِ التأثرِ والندم! وهو يهمهمُ ولا يكادُ يُبِين، خجلًا من نفسهِ وحياءً منكَ أن ورَّطكَ في مثلِ هذا الموقف. وكان صمتُكَ الرهيبُ درسًا آخرَ في الموقف، لا يتعلَّقُ بذلك الشخصِ وحده. . . .

* * *

حزب السلامة!

وفي يومٍ فوجئتَ برجلٍ يأتي إليكَ في وضحِ النهار، ولعلكَ كنتَ في السَّنةِ الجامعيةِ الأولى أو الثانية، ويقولُ إنهُ من المخابرات، أو أنهُ متعاونٌ معهم، وكانَ كرديًّا، فقالَ لك: أنتَ متَّهمٌ بانتمائكَ إلى حزبِ السلامة!

وكانَ الخبرُ كصاعقةٍ وقعتْ عليك، فأنتَ لا تعرفُ شيئًا عن هذا الحزبِ ألبتة، وظننتَ أنهُ موجودٌ في سورية، ثم تبيَّنَ أنهُ يقصدُ حزبَ نجم الدينِ أربكان في تركيا، حيثُ كانَ اسمَ حزبهِ في الأول! ولا تعرفُ أنَّ هناكَ أفرادًا من دولٍ أخرى ينتمونَ إلى هذا الحزب!

ولا تدري هل كانت هذه المرَّةَ أو أخرى غيرَها، عندما ذكَّركَ أحدُ إخوتِكَ أنه سمعكَ وأنت ترفعُ صوتكَ وتقولُ للزائر غيرِ المرغوب: إن هذا الأمرَ الذي تطلبهُ مستحيل. قلتَ له ذلك وهو يطلبُ منكَ أن تتعاونَ معهم.

* * *

الزواج وما إليه

على عادةِ القبائلِ والمعمولِ به في القرى، كانتْ ابنةُ عمِّكَ (أحمد) الكبرى من نصيبك، ولم يحدثْ خلافٌ على هذا حتَّى أيامِ الخِطبة، حيث فوجئتَ يومَها بخلافٍ بين أبيكَ وعمِّكَ أدَّى إلى «توقيف» الزفاف، الذي خُطِّطَ له أن يكونَ قريبًا جدًّا. وعلمتَ من خُلقِ الوالدِ أنه لا يتنازلُ عن رأيهِ ولو أدَّى ذلك إلى فسخِ الخِطبة!

وفكَّرتَ في الأمر، وقستَ عليه ما جرى وما يجري في مثلِ هذه الأمور، وعلمتَ أنك إذا لم تتدخَّلْ تعقَّدتِ الأمورُ أكثر، فاستأذنتَ والدكَ لتذهبَ إلى عمِّك في القريةِ وتحلَّ معه الإشكال، فأذِنَ لك، وصاحبَكَ حتَّى مشارفِ البلدةِ وهو ينصحُكَ أن لا تُذلَّ نفسك، فوافقت، وجلستَ إلى عمِّك، وتمَّ التفاهم، كما تمَّ الزفافُ بعد أيام.

وكانَ حفلُ زواجِكَ (سنة ١٣٩٥هـ) خاليًا من العزفِ والغناء، وكانَ المشتهرَ آنذاكَ الطبلُ والمزمار، بينما كانت الحفلاتُ الفارهةُ بالعودِ والجمبشِ وغناءِ مطربينَ مشهورين، أبرزهم اثنان: محمد شيخو، ومحمود عزيز. وكنتَ ذا إرادةٍ قويَّةٍ آنذاكَ بحمدِ الله، فأبيتَ

أن يصاحِبَ حفلكَ ما حرَّمَ الله، وكان ذلك حديثَ المجالسِ في البلدة، فلم يسبقْ فيها حفلٌ بدونِ عزف إلَّا لأرملٍ كبيرٍ أو تقديرًا لمناسباتِ عزاءٍ وما إليها، وكان يدومُ من أربعةِ أيامٍ إلى أسبوعٍ كامل.

بل تذكرُ أن العروسَ كادتْ أن تصلَ ولم تحلقْ لحيتكَ بعد، وكنتَ حليقًا آنذاك، حيثُ اندمجتَ في مجلسِ الأصدقاءِ الذين حضروا حفلك، بينهم جارٌ شيوعيٌّ دخلَ بينهم، فكانوا كلُّهم ضدَّه، وانتشلتَ جسمكَ من بينهم فحلقتَ لحيتك، ومضيتَ إلى السطحِ جالسًا على كرسيّ، ولم تمرَّ دقائقٌ حتَّى وصلتِ العروسُ، وهم ينثرونَ أمامها السكر، ويوزِّعونَ النقودَ على الأطفالِ.

ولم تمضِ دقائقُ أخرى أو ساعاتٌ حتَّى وصلَ مطربُ البلدة، وكانَ جارًا لكم، ويسمَّى «لَطُّو» تحريفًا من اسمهِ الجميلِ «عبد اللطيف» وطلبَ حقَّهُ، على الرغمِ من أنهُ لم يشاركْ فيهِ بجهودهِ الغنائية، ولا طبلهِ ولا مزماره، وإنما اكتفى بالشاباش، وهو مدحٌ للعروسِ وأهلهِ وضيوفهِ مع رفعِ الصوتِ بنغمةٍ معيَّنة.

وكانَ مطربًا مشهورًا في المنطقةِ كلها، صاحبَ نكتٍ عجيبة، مع عصبيةٍ لا يُظهرها، ومن نكاتهِ العمليةِ أنه كان يتناولُ صفحةَ جريدةٍ بالمقلوب، ويتمتمُ على أنه يقرؤها، وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فيقالُ له: يا لطو إنكَ تناولتَ الجريدةَ بالمقلوب. فيقولُ: إن كلَّ شخصٍ يستطيعُ أن يقرأها بالوضعيَّةِ العاديَّة، ولكنَّ الحاذقَ الماهرَ هو وحدَهُ القادرُ على القراءةِ بالمقلوب!

وكان عنده زوجُ حجلٍ جميلانِ في قفصينِ رائعين، يخرجهما معه إذا أحبَّ أن يجلسَ في الرَّبْعِ زمنَ الربيع، فكانا يصوِّتانِ في لحنٍ جميل، ويُقالُ لكم وأنتم صغارٌ: إنهما هكذا يقرآنِ القرآن. كما يذكرونَ أنه يُضربُ بهذا الطيرِ المثَلُ في الخيانة! لأنه يصوِّتُ لصالحِ صاحبهِ الصيّاد، فيجتمعُ إليه غيره، فيصيده!

وقد عُرِفَ المطربونَ الشعبيونَ (وربما الغَجر) بتربيةِ هذا النوعِ من الطيرِ ربَّما دون سائرِ طبقاتِ المجتمعِ الكردي!

وماتَ ذلك المطربُ فجأة، ونزعتَ جثَّتهُ من بينِ أهلهِ، وحملتَ جنازتَهُ مع آخرينَ إلى المسجدِ. وما كان يصلي، لكن كانت لهم علاقةٌ جيِّدةٌ بآلِ الشيخِ إبراهيم حقّي.

وأغاني الأكرادِ في حفلاتِ الرقصِ كثيرٌ منها فاحشٌ ومكشوفٌ ولا حياءَ فيها، ويختلطُ فيها الرجالُ بالنساء ـ ماعدا بيوتاتِ الأكابرِ من أهلِ الدِّين ـ وحتى الأبكارُ من الفتياتِ يتجمَّلنَ ويدخلنَها، وإذا كان بين الرجالِ أحدُ معارفها مضتْ إليهِ ووضعتْ يدها في يدهِ ورقصت، وإن كان أجنبيًّا عنها!

وعندهم ألحانٌ عجيبةٌ في الغناء، تُضحكُ وتُبكي، وخاصةً الوطنيَّةَ والقبليَّةَ والحربيَّة، وهناك مغنون يُطلق عليهم اسم (دَنكْ بيش)، يحفظون أغاني طويلة، مثلَ المواويلِ والأهازيجِ العربيَّة، وهؤلاءِ يكثرونَ في مجالسِ الكبراءِ والوجهاءِ والأغنياء.

وكانت هناك عاداتٌ أخرى قبيحةٌ في الزواجِ عندَ الأكراد، لم تعملْ بها، وكان ذلك مثارَ استنكارٍ وانقباضٍ من بعضِ الأهل،

وغضبِ بعضهم، حتَّى كادوا أن يقاطعوك، وأنت مصمِّمٌ لا تأبهُ بشيءٍ في سبيلِ الحقّ. وكنتَ تتلقَّى في ذلكَ كلماتٍ قاسية، على الرغمِ من أن العروسَ آنذاكَ كان يدلِّلُ ويقدِّرُ مثلَ الملِك، لكنَّ ما جابهتهم بهِ لم يفعلهُ أهلُكَ وجيرانُك من قبل، ومحاربةُ العاداتِ وتغييرُها ليس سهلًا، وكانت من أكبرِ المعوِّقاتِ حتَّى في طريقِ دعوةِ الأنبياء، عليهم صلواتُ الله وسلامه! وكنتَ تقولُ في مثلِ هذهِ الحالِ وأمثالها: العادةُ التي تخالفُ الشريعةَ أضعُها تحتَ قدمي.

وقد تمَّ تقييدُ عقدِ الزواجِ من بعدُ في مدينةِ القامشلي، وكنتَ إمامًا في جامعِ زينِ العابدين آنذاك، فكان عليكَ أن تصحبَ معكَ شاهدَين، أحدهما (عَزي) المذكورُ سابقًا، ويُعرَفُ بهذا الاسم، ويُظنُّ أنهُ تحريفٌ من (عزيز). وكان المطلوبُ في الصَّداقِ ألَّا يَزيدَ على مبلغٍ معيَّن، فإذا زادَ رُفض، فاضطررتَ أن تقولَ له إن القاضيَ إذا طلبَ منكَ ذكرَ الصداق، فقلْ هو كذا، ولا تزدْ عليه، فإنهُ سيردُّكَ ويردُّني. وكان قد حضرَ قاضٍ جديد من ديرِ الزور، وهذا أولُ دوامٍ له في المحكمة، فسألهُ عن الصَّداقِ فقالَ هو كذا، فقامَ عليه القاضي وأقذعَ في كلامهِ وأسمعَهُ ما يكرهُ وكذَّبه، ثم مالَ على كاتبِ العدلِ واستفسرَ عمَّا يكتبه، فقامَ عليه كذلك ونهرَهُ؛ ربَّما ليبيِّنَ مهارتهُ وخبرتهُ في عملهِ وأنه يعرفُ الأمورَ ولا يُخدع! مع أنه كان عارفًا بعدمِ وجودِ من يقتصرُ على الصَّداقِ الحكومي الضئيل، وأنهُ حبرٌ على ورقٍ ولا يعملُ به أحد. وكان أقلُّ الصَّداقِ المتعارَفِ عليه آنذاكَ أربعةَ آلافِ ليرة، وأكثرهُ خمسةَ آلاف، والمحدَّدُ حكوميًّا أقلُّ من نصفِ هذا أو ذاك.

ثم كان (صوفي عزي) يلومكَ ويقول: أنت السببُ فيما حصلَ لي. ويكرِّرُ ذلكَ أكثرَ من مرَّةٍ وهو غاضب. وقد قيلَ له (صوفي) لتردُّدهِ على المسجدِ ومحافظتهِ على صلاةِ الجماعة، ورأيتَهُ كلَّما انتهى من الوضوءِ قرأ سورةَ القدر! وبيتهُ قريبٌ من المسجد، وكان عريضَ الوجهِ كأنهُ صفيحة، ذا عينينِ صغيرتينِ ولكنهُ حادُّ النظر، وعصبيًّا، قويًّا.

ثم كان له ابن، ذُكرَ لكَ قُبيلَ رحيلِكَ من سوريةَ أنهُ ادَّعَى بأنهُ المهديُّ المنتظر!! وكان مُصرًّا على ذلك. ولم يكنْ في شيءٍ من العلم أو أيةِ فضيلةٍ أخرى، بل كان منعزلًا عن الناس... وربما جادلَ وأُعجبَ بنفسه، ولا تعرفُ أنهُ اتَّبعَهُ شخصٌ واحد... ولمَّا رأى تهكُّم الناس به تركَ مقولته!

* * *

الحذر

والتزمتَ بإطلاقِ اللحية، هذهِ السُّنَّةُ المباركة، ربَّما قُبيلَ تخرُّجكَ (١٣٩٧هـ) باتفاقٍ بينك وبين أخٍ التزمَ بفضلِ الله، بعد محاولاتٍ دعويَّةٍ معه.

وكان ذلك الأخُ شخصيةً قلقة، مع شهامةٍ وأخلاقٍ عالية، وقد رأيتَهُ يُفطِرُ في رمضان، ونُميَ إليكَ أنه كان ملحدًا في مرحلةٍ من حياته، ثم صارَ يتردَّدُ على رجلٍ من القامشلي جعلَ من نفسهِ داعية، وطلبَ منكَ أن تصحبَهُ إليه لترى العجبَ في ثقافتهِ وصدقِ دعوته، ومضيتَ بعد تردُّد، فاستقبلكما، وكان رجلًا ضخمًا أبيضَ مليحًا، عليه سيماءُ شيوخِ العشائرِ العربيَّةِ لا الدُّعاة، وكان يدعو إلى نوعٍ من التصوُّفِ غريب، وأنّ دعوتَهُ بعيدةٌ عن البدع، ويسمِّي أتباعَهُ (الصُّوافَة)، مع تهجُّمٍ على سائرِ الطرقِ الصوفية! ونقدِ المستشرقينَ لأنهم خلطوا بين الصوافة والصوفيَّة!

وتحدَّثَ من الصباحِ حتَّى أذانِ الظهر، في ثقافةٍ عاليةٍ وردودٍ على شبهاتٍ وما إلى ذلك، وعند خروجكما رأيتَ غرفةً صغيرةً جدًّا فيها امرأةٌ عجوز، فسألتَ عنها؟ فقيلَ لك: إنها أمُّه. ولعلها كانتْ مُقعدة، وعجبتَ كيف يقومُ بخدمتها، وكان في نحوِ الأربعينَ أو أكثرَ

ولم يتزوَّج، فقال لكَ صاحبك: ليس هو الذي يخدمها، بل هناك بنتٌ لأحدِ تلامذتهِ (مريديهِ) جعلها عنده لتقومَ عنه بذلك! وعجبتَ مرةً أخرى! كيف تبيتُ في دارٍ ليس بها سواهما وأمه؟ ما هي النتيجة؟ أليست هذه خلوةً محرَّمةً بالنصِّ الصريح؟ لكنه رفضَ أي تعليقٍ على هذا الموقفِ الذي يلامسُ جنابَ ذلك الداعيةِ الكبير!

وانتهى الأمرُ إلى شأنٍ غيرِ مرغوب، حذفتَ تفاصيله، وقد تركَ ذلك الرجلُ البلدَ وهرب!

ثم صارَ ذلك الأخُ من التلامذةِ المخلصينِ للشيخِ علوان رحمه الله، وصارَ من الدعاةِ في بلدٍ أوروبّي.

* * *

الالتزام بالحجاب

وكانت الزوجةُ والشقيقتان أولَ من لبسنَ اللباسَ الشرعيَّ الفضفاضَ المعروفَ في هذهِ البلدة، ولم تمضِ أسابيعُ حتَّى لبسَهُ غيرهنّ، بعدَ أن رأينَ فضلهُ وجمالَه. وهذا من فضلِ اللهِ على الأسرة، فلهُ الحمدُ ولهُ الشكر.

لكن يُذكرُ أنه كانت هناكَ امرأةٌ من خارجِ البلدة تلبسُ نوعًا من الحجاب، وقد تزوَّجتْ أحدَ أصدقائك (أحمد عباس)، وسكنتْ معهُ في البلدة، وكان ذلكَ قبلَ ما ذكرتَ، ربَّما بسنةٍ أو سنتين.

على أنهُ كان يوجدُ في البلدةِ الكثيراتُ من الأمَّهاتِ اللواتي يلتزمنَ بسترِ شعورهنَّ، لكن لم يكنْ يوجدُ فيها تغطيةٌ للوجه، ولباسُ الأكرادِ التقليديُّ محتشمٌ رائع، يتألفُ من عدَّةِ قطع، ولا تكادُ تجدهُ الآن.

وقد تغيَّرَ اتجاهُ معظمِ الفتيات، فصرنَ يواكبنَ «الموضة» مثلَ غيرهنَّ منَ المتبرِّجاتِ، وكان أكثرُ ما يشتهرُ بهِ الأكرادُ هو حمايةُ «العِرْضِ والشرف» ولهم في ذلكَ قصصٌ وحكاياتٌ شجاعةٌ لا مثيلَ

لها، لكن تبيَّنَ أنَّ الذي كان يساندُ هذهِ الخصلةَ العظيمةَ عندهم هو التزامهم بالدِّين، بدليلِ أنَّ من جانبَ أمرَ الدِّينِ واستسلمَ للغزوِ الفكريِّ والتعاليمِ العلمانية، لم يعدْ مثلَ قبل، وقد قلَّتِ الغَيْرةُ عند كثيرٍ منهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الشيخ علوان

الشيخُ «علوان» بن «شيخ إبراهيم حقي» «العلواني» من شيوخِ الطريقةِ النقشبنديةِ في الجزيرةِ الفراتيةِ، وكانَ يبعدُ عن بلدتِكَ (٨ كم) في قريةٍ تسمَّى «حُلوة»، وتصوُّراتُكَ عن شيوخِ التصوُّفِ كانت سيئةً ومُجحفة، لأسباب، منها صحبتُكَ القديمةُ للقوميينَ الأكرادِ عند نشأتك، فكانوا يتَّهمونهم بـ «الخيانةِ العظمى»؛ لأنهم «غيرُ قوميين»! فكنتَ تنظرُ إليهم آنذاك بأنهم «ليسوا أصحابَ قضية»! والحقُّ أنَّ الداعيةَ يقومُ بمهمَّةِ الأنبياء، فهو صاحبُ أفضلِ قضيَّة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: ٣٣]. كما تذكرُ أنَّ آلَ الشيخِ إبراهيم حقي من السادةِ الحسينيَّةِ، فهم من أَرومٍ عربيّ، وليسوا أكرادًا حقيقة.

وكان مما ينتقدهم الناسُ فيه: ترفهم وغناهم وعيشةُ أولادهم المرفَّهة، بينما يدعونَ الناسَ إلى الزهدِ والتقشُّف، وأنَّ من أصحابهم الأغنياءَ والوجهاءَ ورجالًا في الدولة، والحقُّ أنهم ليسوا كلُّهم كذلك، فإنَّ بينهم الفقيرَ المتعفِّف. . . .

ومنها: البدعُ المنتشرةُ عندهم، مما كانَ لا يقبلهُ الرسولُ ﷺ، كبناءِ الأضرحةِ على القبور، وتقبيلِ اليد. . . وما إلى ذلك.

لكنَّ أسلوبَ أحدِ تلامذةِ الشيخِ حبَّبَ إليكَ لقاءهُ، وكانَ جارًا ملاصقًا لك (حميد، أبو فيصل)، حيثُ ذكرَ أنهُ يحملُ شهادةً جامعيةً عالية، وأنه ليسَ مجرَّدَ صاحب طريقة. كما ذكرَ حبَّهُ للعلم، ومؤلَّفاتٍ لهُ، وأنهُ لا يهتمُّ بالتقبيلِ وما إليه.

وعندما سمعتَ بثقافتهِ وميولهِ العلميةِ قبلتَ السفرَ إليه، وكانَ لقاءً مباركًا ونقطةَ تحوُّلٍ كبيرةً في حياتك، وعندما سألَ صاحبَكَ عنكَ قالَ له: إنهُ من «القحطانيةِ» ويدرسُ «الشريعةَ»؛ فقال: واللهِ إنها لبشرَى خير. ثمَّ أقبلَ إليكَ بروحهِ وقلبه. . . .

وقد ترجمتَ لهُ في «تتمةِ الأعلام» بما لا يلزمُ تكرارهُ هنا، ومعَ كلِّ إقبالهِ عليكَ كنتَ على حذرٍ، وما كنتَ متجاوبًا في كلِّ ما يقول، حتَّى إنهُ أجازكَ إجازةً عامَّة، في سلسلتها الإمامُ النوويّ، وتصلُ إلى أميرِ المؤمنينَ عليِّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه، فرفضتَ قبولها، بحجَّةِ أنكَ غيرُ مستحقٍّ لها، لكنهُ بيَّنَ أنها تعني كفاءتكَ في التبليغِ وأمانتكَ فيه! وما زلتَ تحتفظُ بهذه الإجازةِ في دفترٍ صغير.

وذكرتَ أنكَ رأيتَ كراماتٍ له ولم تفصِّل، وتقول: إن منها رحلتكَ إليهِ مع أخٍ عزيزٍ لك (عبد الرحمن أحمد)، لعلهُ في صيفِ عامِ ١٣٩٥هـ، وكانَ يومَ اجتماعٍ أسبوعيٍّ مع مريديهِ، فجلستَ مع صاحبِكَ في المسجد، ومريدوهُ كلُّهم صامتونَ في صفوف، كأنَّ على رؤوسهم الطير، ينتظرونَ وصولَ الشيخ، فنظرتَ إليهم، وقلتَ بصوتٍ خافتٍ لصاحبك: انظر، سيأتي الشيخُ الآن، وكلُّهم سيقومونَ ويقبِّلونَ يدهُ، فأينَ هذا من مجالسِ رسولِ اللهِ ﷺ وكانَ لا يُعرفُ بينهم، وما كانوا

يقبِّلونَ يده؟ وصادقَ صاحبُكَ على كلامك. معَ أن تقبيلَ يدِ الكبيرِ وأهلِ العلمِ من الصلحاءِ أفتى علماءُ بجوازه.

وأطلَّ الشيخُ بطلعتهِ النورانية، وقامَ إليهِ مريدوهُ وتلامذتهُ يقبِّلونَ يدَهُ بتبجيلٍ واحترام، وهو في هيبةِ العلمِ وتواضعِ العلماء، وقرَّرتَ مع صاحبِكَ تقبيلَ يده، حتَّى لا يبدوَ الأمرُ شاذًّا منكرًا، وهُرِعتَ إلى يديهِ لتقبِّلهُ فمنعكَ من ذلك، وأصررتَ على ذلكَ وهوَ أصرَّ على المنع، حتَّى أوصلَ يدَهُ إلى ركبتهِ وهوَ يسحبُها منكَ لئلَّا تقبِّلها، وأنتَ تتابعُها لتقبِّلها، وقد أوتيَ في ذلكَ قوَّةً عظيمة، وكانَ ضعيفَ البنية، وفعلَ بصاحبكَ الشيءَ نفسهُ، فما سمحَ لأحدٍ منكما بتقبيلِ يده، كما لم يمانعْ أحدًا من مريديهِ بتقبيلها، وانتهيتما إلى مجلسيكما من جديد، وقد صارحَ أحدُكما الآخرَ بما أُلهمَ بهِ الشيخ.

وقد صرَّحَ لكَ مرةً أنهُ لا يريدُ أن يقبِّلَ يدَهُ أحد، ولكنه لو منعَ ذلكَ لفرطتِ المشيخة، ولما وثقَ الناسُ بهِ، والأمرُ فيهِ خلاف، واللهُ أعلمُ بالقلوب.

ثمَّ تتالتْ زياراتُكَ للشيخ، حتَّى عرفتَ إخلاصَهُ والتزامَه، واهتمَّ هوَ بكَ أكثر من كلِّ من حوله، وكانَ يحرصُ على أن يدنيَكَ منهُ بينَ الناس، ويشعرهم بذلكَ لأمرٍ يأتي.

ولم يكنْ يقبضُ نقودًا من الناس، بل خصَّصَ لذلكَ رجالًا هم الذينَ يدبِّرونَ بها أمرَ الضيوفِ وطعامَهم والإنفاقَ على التكيَّة بما يلزم. وكانَ ناصحًا أمينًا، ولم يكنْ خائنًا، بل كان وليًّا لله؛ لأنه كان صادقًا معه ومع أوليائه، إنما الخائنُ الكبيرُ الذي يجاهرُ بإنكارِ الحقِّ وعصيانِ

الخالقِ ومخالفةِ أوامره، ويتَّبعُ خطواتِ الشيطانِ وأصدقاءَهُ من أهلِ الفسقِ والفجورِ والكفرِ والضلال، ويتاجرُ بالمبادئِ ويأكلُ أموالَ الفقراءِ وهوَ يدَّعي أنهُ يمثِّلهم ويدافعُ عنهم، وما أكثرهم.

وكانت مكانتهُ ووجاهتهُ كبيرة، يحلُّ مشكلاتٍ لا تقدرُ عليها الدولة، حقنَ دماءً بينَ أقوامٍ وطوائفَ وجماعات، وكانَ معَ ضعفهِ يتجوَّلُ في القرى والمدن، يعظُ ويعزِّي ويهنِّئُ ويرشدُ الشبابَ ولا ينسَى النساءَ.

وعندما رأى إقبالكَ عليهِ وإنصاتكَ لهُ عرضَ عليكَ «العهدَ» الذي بين الشيخِ والمريد، فقلتَ لهُ: أيها الشيخُ الجليل، إن قصدتَ بهِ «التوبةَ» فأنا أتوبُ بيني وبينَ ربي، ولا واسطةَ تصلني بهِ، ولا أؤمنُ بطريقةِ توبةِ المريدِ بينَ يدي شيخه.

فقالَ: ليسَ هوَ كما ظننتَ يا محمد خير، بل العهدُ الذي بيني وبينكَ هوَ: «الطاعةُ تجمعنا والمعصيةُ تفرِّقنا». فقلتَ لهُ: أمَّا هذا فنعم.

ثمَّ طرحَ عليكَ مرةً أن تُصبحَ خليفةً له، كما هوَ شأنُ المشيخةِ وخلفائها، فأبيت.

وكانَ نعمَ المربِّي، يستعملُ ألطفَ الأساليبِ وأجداها، معَ رحمةٍ وعطفٍ وحنان، وتأثُّرٍ ظاهرٍ بأحوالِ المسلمين، وحبٍّ للمخلصينَ منهم، والتجاءٍ إلى اللهِ واعتصامٍ بحبلهِ وذكرهِ دائمًا، فلا تكادُ تسمعُ لهُ جملةً إلَّا وفيها ذكرُ الله، وأنَّ بيدهِ كلَّ شيءٍ، ولا يفتأُ يقولُ: لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا ولا حياةً ولا نشورًا.

وكانَ كلامهُ قليلًا، ويتعجَّبُ من هؤلاءِ الذينَ يتكلَّمونَ ساعات!

لكن كان بليغًا مفيدًا، لا يتكلمُ ولا يعلِّقُ إلَّا عندَ الحاجة... ولذلكَ تتطلعُ إليهِ الأعناقُ بمجرَّدِ أن ينطق، ولا تملُّهُ النفوسُ أبدًا، لأنَّ أصلَ المللِ من الكلامِ هو لطولهِ وعدمِ فائدته، وهوَ ما لم يلاحظْ عليه ألبتَّة.

وكان لطيفَ المعشر، مُقبلًا على جليسهِ بكلِّ حبٍّ وحنان، يؤنسهُ ويقرِّبه، ويسألُ عن أحواله، ويطيِّبُ قلبه، بل ويُتحفهُ بحكاياتٍ وأخبارٍ قصيرةٍ فيها دعابةٌ وعبرة، ويضحكُ من كلِّ قلبه... ومن دعاباتهِ التي كان يتحفُكَ بها رحمَهُ الله، أن عالمًا كرديًّا (ملَّا) كان يعطي درسًا لطالبِ علمٍ عربي، وكان الموضوعُ علمَ الصرف، فجلسَ الطالبُ مؤدَّبًا على هيئةِ الجلوسِ في التشهد، والملَّا يعلمه تصريفَ الأفعال، منها قوله «مدَّ يمدُّ مدًّا» ولما أطالَ الطالبُ في جلستهِ تلك أشفقَ عليه الملَّا، فأرادَ أن يقولَ له «مُدَّ» رجلك، فلم يتذكرْ هذه الكلمة، وقال بعد أن أعيتْهُ ذاكرتهُ في البحثِ عن الكلمة: «طوِّل رجلك»!

وكانَ تتلمذُكَ عليهِ تربيةً، فلم تقرأ عليهِ علومًا ومتونًا.

وما لاحظتَهُ في تكيَّتهِ هو انحسارُ طلبةِ العلم الذينَ كانوا يتخرَّجونَ منها، ومن عجبٍ أن ترى عندهُ فقيهًا واحدًا يتابعُ علمه، وكانَ عربيًّا، ولم يكنْ هذا مألوفًا في المنطقةِ، فالمعروفُ أنَّ الذينَ كانوا يتابعونَ العلومَ الشرعيةَ ويتخرَّجونَ ملاليَ كلُّهم أكرادٌ، وكانَ مسلَّمًا قولهم: شيوخُ العربِ أكرادٌ.

ومن فضلهِ عليكَ بعدَ اللهِ أن بصَّركَ بمواقفَ للرسولِ الكريمِ ﷺ والصحابةِ رضي الله عنهم، ووسطيةِ الإسلام، وكان ضغطُ الواقعِ ووقعهُ القاسي عليكَ يجعلُكَ تختارُ مواقفَ معيَّنةً، وتكونُ في صفِّ الفقراءِ وتتشنَّجُ من الأغنياء، فهذا الموقفُ الطبقيُّ لا يُعرفُ في الإسلام، فكانَ أغنياءُ الصحابةِ مثلُ عثمانَ وابنِ عوفٍ رضيَ الله عنهما يجهِّزونَ الجيوشَ ويتكفَّلونَ بأرزاقِ الآلاف، فكانَ كلُّ تعبهم وأموالهم يعودُ بالفائدةِ والقوةِ على المجتمعِ الإسلاميِّ، ولولا جهودهم الماليةُ هذهِ لما قويتْ شوكةُ الإسلامِ مثلما كانت!

وأقوالٌ ومواقفُ أخرى كان يقولها لكَ ما كنتَ مقتنعًا بها كلها، فكانتْ شرَّةُ الشبابِ وحدَّةُ الطبعِ قد تغلبكَ في مواقف، وبقيتْ كلماتهُ محفورةً في ذاكرتِكَ حتَّى صادفتْ عندكَ قبولًا بعدَ تجربةٍ وعمر... ثمَّ تشجيعهُ لكَ على الكتابة، وإعجابهُ بما تكتبُ، ونقدٌ وجيهٌ لأطرافٍ منه.....

ويسألكَ عن شخصياتٍ أو أنتَ تتحدَّثُ عنها، فتجدُ منهُ آذانًا صاغيةً، حتَّى قالَ لكَ مرةً: «لكَ رأيٌ في الرجال». وهذا قبلَ أن تشتغلَ بالتراجم، وتكونَ أكثرَ اهتمامِكَ في الحياة.

وكان فقيههم الرسميُّ في التكيَّةِ «الملا يوسف يعقوب»، الذي استأنستَ به وبعلمه، وكان ذكيًّا، جريئًا، مناظرًا، بِتَّ عندهُ في ليالٍ حالكة، خوفًا وهلعًا من زبانيةِ المخابرات، وكان هو قد اعتُقلَ مرَّةً وأُحرقتْ لحيتهُ المباركة.. فكانَ نعمَ الأخُ الوفيّ. وكان دائمَ الشكوى من حالهِ وهدرِ حقوقه، وسكنَ دمشقَ من بعد.

ومما لا تنساهُ، معلِّمٌ كانَ يتردَّدُ على آلِ الشيخ، كنتَ تراهُ كلما زرتهم هناك، وينبسطُ معَ الشيخِ وأولادهِ حتَّى ظننتَ أنهُ أحدُ أقربائهم، وكانَ يقالُ لهُ: «الأستاذ أكرم»؛ ثمَّ سألتَ عنهُ فقيل: إنهُ مدرِّسٌ في قريةٍ قريبة؛ وانقطعَ فجأةً ولم تعدْ تراهُ، حيثُ كنتَ تجدُ الفرحَ والمزاحَ والترفيهَ بوجوده، وسألتَ عنهُ الشيخَ فقالَ: كانَ متزوِّجًا بواحدةٍ ليست من بلده، فطلبتْ منهُ الطلاق، فلم يستجب، وبقوا هكذا شهورًا وهوَ يأبى أن يطلِّقها، فوُجدَ ميتًا، وقد أطعمتْهُ سمًّا. وكانَ تأثرُكَ بذلكِ واضحًا، حتَّى سألتَ عنهُ مرَّاتٍ أخرى وأنتَ لا تصدِّق، وقالَ لكَ الشيخُ مرةً: إنها المرةُ الثالثةُ التي تسألني في هذا!

وكانَ الشيخُ قد نظَّمَ أكثر من درسٍ شرعيٍّ في بلدتكم، ليعلِّمَ من خلالها مجموعةً منَ الشبابِ والرجال، وبدأَ أولَ درسٍ بكتابِ «إحياءِ علومِ الدينِ»، ولكنهُ لم يتمكنْ من إتمامِ مشروعه، حيثُ بدأتْ أحداثُ حماة، ولم يعطِ سوى درسٍ واحدٍ منه!

* * *

الأجنبي والدراسات العليا

ثمَّ كانَ فضلَهُ عليكَ بعدَ اللهِ أن شجَّعكَ على إتمامِ دراستك، وهوَ الذي أوعزَ إلى ولدهِ الفاضل «معاذ» أن يقدِّمَ أوراقكَ إلى جامعةِ الإمامِ بالرياض.

وكانت رغبتُكَ في التزوُّدِ بالعلمِ لا توصف، وحصولُكَ على منحةٍ لأجلِ إكمالِ دراستِكَ لم يخطرْ لكَ على بال، فقد عشتَ في جوٍّ كلُّهُ ظلمٌ وقهرٌ وتبكيتٌ وانتكاس، وكنتَ كمن عاشَ مدَّةً طويلةً في الظلام، فما كانَ يقوى من بعدُ على رؤيةِ النور، أو أن الظلامَ صارَ هوَ الذي يلفُّ الجوَّ ويخيِّمُ على الصدر، فلا نورَ إلَّا في الداخل، هوَ نورُ الإيمانِ في القلب، يحثُّ على الصبرِ ويُبعدُ المؤمنَ عن القنوطِ واليأس.

وكانت فرحةً لا توصفُ! عندما وصلتْكَ رسالةٌ من الرياض، تُشعركَ بأنكَ قُبلتَ طالبًا في مرحلةِ الماجستير!

لكنها كانت فرحةً «ملغومةً» بالآلامِ والأحزان!

فاجتمعَ في قلبٍ واحدٍ فرحٌ وحزنٌ.

ومن قال لكَ إنهما لا يجتمعان، كما لا تجتمعُ النارُ والماء!

اسألِ البراكينَ في البحار، وانظر إلى الحممِ الحمراءِ وهيَ تسيلُ كأنها أنهار!

نعم، كيفَ ستسافرُ إلى الرياضِ لتكملَ دراستكَ، فإنَّ الأسفارَ المنظَّمةَ هي للبشر، أعني الأناسيَّ الذينَ يمشونَ على رجلين، وأنتَ وإن كنتَ في شكلهم، لكنكَ لا تُحسبُ منهم! لكن كيف؟

كيفَ ستسافرُ بدونِ هويَّة، أعني بدونِ جوازِ سفرٍ مبنيٍّ على هويَّتك؟ هل يوجدُ سفرٌ من دونِ جواز؟

يجبُ أن تبحثَ عن حلّ، وإلا فاتتكَ هذهِ الفرصةُ الذهبيَّةُ التي لا تقدَّرُ بمالٍ ولا عمر!

قالَ لكَ شيخك: في جوازاتِ دمشقَ يعطونَ «تذكرةَ مرور» للـ«أجانبِ» مثلك، وتقبَّلْ مني هذهِ الهديةَ أجرةَ سفرِكَ وعودتك.

وانطلقتَ إلى هناك، وفي أكثرَ من دائرةٍ جوبهتَ بالرفضِ والإهمال، وقيلَ لك: لا يوجدُ سوى جوازِ سفر، أمَّا أمثالكَ فلا يعطى لهم شيء، ولا يحقُّ لكَ السفر!

والتجأتَ إلى بيتِ الله، وصلَّيتَ الجمعةَ في جامعِ الإيمانِ بدمشق، وبقيتَ وقد خرجَ الناس، فإذا الخطيبُ يدخلُ غرفة، وقد تجمَّعَ ناسٌ ينتظرونَ الدخولَ عليه، فسألتَ عن الأمر، فقالوا: يحلُّ مشكلاتهم. فاستأنستَ خيرًا، وقلتَ: سأدخلُ عليه، فعسى أن أجدَ ما يطيبُ بهِ قلبي. ووصلَ إليكَ الدور، وكانَ شيخًا صوفيًّا معروفًا في البلدِ كلِّه (هو الشيخ محمد عوض رحمه الله، توفي ١٤٣٠هـ)، وسلَّمتَ عليه، وقلتَ لهُ مشكلتك، واستفسرَ عن أحوالِكَ وشهادتِكَ

وبلدتك، فأخبرتَهُ بذلك، فعرفَ أن منطقتكَ مهجورةٌ ومنسيَّة، ولا أحدَ من طريقتهِ (الرفاعية) هناك، فعرضَ عليكَ أن تكونَ موجِّهًا وواعظًا هناكَ من قبله، فذكرتَ لهُ عهدكَ مع شيخٍ آخر، فعادَ إلى ما قالَ من غيرِ اعتبارٍ لما قلت، فاعتذرتَ مرَّةً أخرى، فعادَ وأغلظَ في القول، كأنهُ يريكَ سخطهُ إن لم تسمعْ كلامه، فأنهيتَ اللقاءَ بعرضِ مشكلتكَ عليه، فقالَ: إن والديكَ بحاجةٍ إليك، وأنتَ مُعيلهم الأول، وخدمةُ والديكَ أفضلُ من إكمالِ دراستك.

عدتَ إلى شيخكَ لإبلاغهِ فشلَ مساعيك، فما كانَ منهُ إلَّا أن بعثَ إلى أحدِ تلامذتهِ الذينَ يدرسونَ في الأزهر (الملَّا عمر)، وكانَ مثلكَ لا هويَّةَ له، لكنهُ أعطيَ «تذكرةَ مرورٍ» يذهبُ بها إلى مصرَ فيقدِّمُ الاختباراتِ ويعود. حضرَ الشخصُ ومعهُ تلكَ التذكرة، وطلبَ الشيخُ منهُ مصاحبتكَ إلى دمشق، لتُعطَى تذكرةً مثلها.

ولعلَّ من أسبابِ حرصهِ الزائدِ على متابعةِ دراستِكَ خارجَ البلد، هو ما كان يراهُ من مصيرِ شبابِ الإسلامِ داخلَ البلد. . . .

وانطلقتما إلى دمشق، وذهبتما إلى المسؤولِ الأولِ عن ذلكَ، وأبرزتما لهُ تلكَ التذكرةَ لتُعطى مثلها، فأبى، وقال: انتهى هذا الأمر، لم يعدْ يُعطَى مثلُها!

وعدتما خائبينَ مرةً أخرى! وأنتَ تسترجعُ، ليقضيَ اللهُ أمرًا كانَ مفعولًا.

لكنها بقيت حسرةً في قلبك، فلا فرصةَ مثلها لمن يحبُّ العلم.

ولمَّا كانت الهويَّةُ عائقًا كبيرًا أمامَ كثيرٍ من تطلُّعاتك، فقد بحثتَ عن طرقٍ للحصولِ عليها، أيًّا كانَ الثمن، وقدَّر اللهُ ذلكَ بفضلهِ وحكمتهِ في قصَّةٍ طويلةٍ محفوفةٍ بالمعوِّقاتِ والمشكلات، لكنهُ سبحانهُ إذا قضى أمرًا يسَّرَ أسبابه، وقالَ لهُ كنْ فيكون. ولم تنسَ ذلك الذي تسبَّبَ في إصدارِها لك (الملَّا عيسى القرطميني)، فجازيتَهُ بما قدرتَ عليه عندما فتحَ الله عليك، ولا تُجازَى مثلُ هذه المساعدات، وخاصَّةً في أوقاتِ الشدَّة، إلَّا بالدعاء، فجزاهُ الله خيرَ الجزاء.

ثمَّ فوجئتَ بالمنحةِ الدراسيَّةِ تتجددُ لكَ في السَّنةِ التالية، وانتقلتَ بها إلى حياةٍ جديدةٍ في الرياض.

❊ ❊ ❊

جامع زين العابدين
وأعلام من حوله

لم يبقَ لكَ طمعٌ في التدريسِ بعدَ أن رماكَ الخصومُ عن قوسٍ واحدة، وأنتَ تبحثُ عن عملٍ في جوٍّ غيرِ عاديّ، حيثُ كانت أحداثُ حماة الفظيعة، التي لم يشهدِ العصرُ لمجزرتها مثيلًا!!

وفي بادرةٍ جديدةٍ من شيخك، وكانَ مهمومًا بهمِّك، أن تعملَ إمامًا لجامعٍ جديدٍ بُنيَ في مدينةِ القامشلي، وكانَ أجمل جامعٍ في المنطقة، ومن أكبرها، هوَ جامعُ «زين العابدينَ» المعروف، في وسطِ المدينة.

فاستجبتَ لذلك، وما كنتَ ترى نفسكَ أهلًا له، فكنتَ أولَ إمامٍ فيهِ، والأذانُ فيهِ بالتسجيل، تصلونَ في «القبوِ» أولًا حيثُ لم يكنْ قد اكتملَ بناؤهُ بعد.

وتعرَّفتَ هناكَ وجهاءَ وأصنافًا جديدةً من الناس، فالإمامُ لهُ مكانتهُ في القلوب، واحترامهُ ووجاهتهُ كذلك، كما درَّستَ نحوَ شهرينِ أو أكثرَ في إعداديةِ الحمدانية، مع قيامِكَ بمهامِّ المسجد.

ومن ذكرياتكَ فيهِ متابعتُكَ العلمَ كيفما كان.

وكانَ من الفقهاءِ البارزينَ في المدينةِ «**الملا إبراهيم الزفنكي**» الذي ترجمتَ لهُ في «التتمةِ» أيضًا، فكنتَ تتردَّدُ إليه، وتحضرُ مجالسَهُ العلمية، واستفدتَ منهُ علمًا جمًّا، وعرفتَ أدبَ مجالسةِ العلماء، وما يدورُ في مجالسهم، وما في كتبهم، ومراجعهم، ونوع مراجعةِ الناسِ لهم. وكانت الدرَّاجةُ العاديةُ هيَ وسيلتكَ في التنقُّل.

وكان ممن يحضرُ مجلسَهُ «**الملَّا أحمد بن الحسين العاكولي**»، إمامُ جامعِ الوحدة، الذي رأيتَهُ وصليتَ خلفَهُ مذْ كنتَ طالبًا تدرسُ في ثانويةِ عربستان، وكان فاضلًا، محبًّا للعلماءِ وأهلِ الدين، وقد ترجمتَ له في التتمةِ أيضًا، وتوفي قبيلَ الزفنكي سنةَ ١٤١٥هـ. رحمهما الله.

ومنهم الشيخُ «**عدنان حقي**» أخو الشيخِ علوان رحمَهُ الله، أحدُ جبالِ العلمِ والثقافةِ في الجزيرة، بل في بلده، أتقنَ علومًا كثيرة، وقد تركَ الدراسةَ في جامعةِ دمشقَ لتضجُّرهِ من الأسلوبِ الحديثِ الذي كُسيتْ بهِ علومٌ شرعية، كـ«الفقهِ الإسلاميِّ في ثوبهِ الجديد» للزرقا، وكانَ يسمِّيهِ «في ثوبهِ المهلهل»، فتركها ودرسَ في مصر، حتَّى نالَ شهادةَ الأزهر، وكانَ بيتهُ ملتقى الناسِ من طبقاتٍ عدَّة، على أنَّ همَّتهُ كانت في العلم، ولهُ عشقٌ في الكتابِ وتفنُّنٌ في تجليدهِ ومهارةٌ في تجميلِ مكتبتهِ وتزويدها بالمراجعِ والكتبِ المهمَّةِ بما لا يوصف، وإذا طُرِحَ موضوعٌ أعطاهُ حقَّهُ من البيانِ والتوضيح، نقلًا وعقلًا.

وهوَ يستحقُّ لقبَ «عالمٍ مشاركٍ» بكلِّ معناه، فكانَ إلى علمهِ بالفقهِ وعلومِ القرآنِ والحديثِ، نحويًّا ماهرًا، وشاعرًا ناظمًا، لهُ كتابٌ مطبوعٌ في العروضِ بأوضحِ ما يكونُ هذا الفنّ، عنوانه «المفصَّل في العروض والقافية وفنون الشعر» معَ حفظِ أشعارٍ واطِّلاعٍ على فنونٍ عديدة، وقد راجعَ لكَ كتابَ «الخضر بين الواقع والتهويل» مرَّاتٍ، ودلَّكَ على أماكنِ عيوبهِ اللغويةِ خاصَّةً. على أنَّ نثرَهُ وبلاغتَهُ الأدبيةَ قد تفوقُ جميعَ مهاراتهِ العلميَّة، فهو كاتبٌ وناثرٌ مترسِّلٌ ماهر، لهُ رسائلُ علميَّةٌ تبادلَ بها مع طائفةٍ كبيرةٍ من العلماء والباحثين، ولديكَ كلُّ رسائلهِ إليك، ولهُ كتبٌ مطبوعةٌ، منها «مولدُ الهادي» و«عُدَّةُ الباحث: دراسةٌ لبيانِ درجةِ مجموعةِ أحاديثَ نبوية شريفة وبيانِ أسانيدها» في (٨٦٠ص)، ومؤلَّفاتٌ مخطوطة، ومذكِّرات، ومقدِّماتٌ وتقاريرُ لكتب، وذكرَ حبَّهُ لكَ بما يُفرحُ القلبَ ويشرحُ الصدر، وأثنى على مؤلفاتِكَ واهتمَّ بها، وقالَ إنهُ يقرأ كلَّ كتبِكَ التي تصلُ إليه، من الألفِ إلى الياء! أدبٌ نادرٌ بين الشيوخِ وتلاميذهم، وهو تحبُّبٌ منه لا يُنسى، جزاهُ الله خيرًا. كما يذكُرُكَ بالخيرِ عند الناس، وصرَّحَ لكَ أنه لا يمضي يومٌ إلَّا ويذكركَ فيه ويدعو لكَ، فالحمدُ للهِ على فضلهِ وإحسانه.

وقد أسَّسَ ثانويَّةً شرعيَّةً في مدينةِ القامشلي، وكان مديرها مدَّة، حتَّى هرمَ ولم يعدْ قادرًا على المشي.

ثمَّ أخوهُ الشيخُ «خاشع»، الذي درَّسكَ مادةَ التربيةِ الإسلاميَّةِ عندما كنتَ طالبًا في السَّنةِ الأخيرةِ بثانويةِ عربستان، ولا تنسَى يومَها عندما قصدتهُ بالزيارةِ معَ زميلٍ لك (عبد العزيز عموكا)،

وكانت قد انتهتْ حربُ رمضان وعادَ الطلابُ إلى مدارسهم، فقالَ: اجلسا حتَّى أقرأَ عليكما هذا المقالَ المهمَّ من مجلةِ «العربيّ» وكانَ عنوانُ المقالِ «مَنْ لهُ دينٌ يغلبُ مَنْ لا دينَ لهُ» للفنجريّ. ثمَّ إنهُ مضى إلى السعوديَّةِ ودرَّسَ هناكَ سنوات، وعادَ وقد تأثَّرَ بأفكارٍ وهابيةٍ (سلفية)، لكنها لم تدمْ معه، حيثُ راجعَهُ فيها أخواهُ. وعادَ إلى التدريس، وتابعَ نشاطَهُ الدعويّ، وخاصَّةً إلقاءَ الدروسِ في جامعِ زينِ العابدين، وشاركتهم في إلقاءِ بعضها، واخترتَ موضوعَ «قصصِ الأنبياءِ» لما فيها من الدعوةِ والعبرةِ وتحمُّلِ المشاقِّ وتغييرِ المجتمع.

ويكملُ الشيخُ خاشع هذا بما نسيتهُ أنتَ ويقولُ: «الأستاذُ محمد خير كان يعرفُ كيفَ يخطِّط، فقد بيَّنَ استعدادَهُ للمشاركةِ في إلقاءِ الدروسِ تخفيفًا عليَّ، وبعدَ أسابيعَ جاءَ إليَّ وقالَ: يا شيخ خاشع لقد انتهى علمي وما عليكَ إلَّا أن تكمل، ولا تدعْ هؤلاءِ الناسِ الذينَ تعلموا حضورَ الدروسِ أن يتركوا المسجد! فكانَ لا بدَّ من ذلك».

وكانَ إلى جانبِ علمهِ ووجاهتهِ فَكِهًا، مشرقَ الوجهِ، مقبلًا على جليسهِ بكلِّ اهتمامه، مشاركًا إيَّاهُ في فرحهِ وترحه، حنّانًا، محبوبًا إلى أبعدِ حدّ.

وهو شيخُ الطريقةِ النقشبنديةِ هناك، وله مؤلَّفاتٌ جيِّدة، منها: كتابه «تعدُّد الزوجات أم تعدُّد العشيقات؟»، و«أحكام الحجِّ والعمرة وحِكَمهما في الفقه الإسلامي». وله كتابٌ مخطوطٌ في نقدِ الشيعة، ومقالاتٌ مجموعة.

وقد رأيتُهُ في الرياضِ عام ١٤٢٩هـ، بعدَ سبعةٍ وعشرينَ عامًا منَ الفرقة، فكانَ على ذلكَ الخُلقِ الجميل، وقد زادتْ أعباؤه بعد المشيخة، وخاصةً الصلحَ بينَ الناس، والتعازيَ التي لا تنتهي، مع دروسٍ دائمةٍ في المساجد، وذكرَ أنهُ يعطي دروسَ التفسيرِ منذُ ثماني سنوات، وقدْ تجمَّعتْ لديهِ مئاتُ الأشرطةِ المسجَّلةِ منه، وأنه مازالَ في سورةِ الأعراف، وقد أبديتَ لهُ ملاحظةً في هذا، وهوَ أنْ يحسُبَ حسابَ العمر، وحسابَ منْ يجمعُ لهُ هذا التفسير، ولا تُجمعُ التفاسيرُ الناقصةُ غالبًا، وأنَّ الأفضلَ أنْ يختصرَ الكلام.

والشيخ «عبد القادر بن محمد شفيق العلواني» ابنُ عمِّ شيخِكَ علوان. سكنَ القامشلي وعملَ في بلديَّتها حتَّى تقاعد، وكان إلى جانبِ وجاهتهِ يحبُّ المداعبةَ والمؤانسةَ كثيرًا، وأديبًا يحفظُ الكثيرَ من الأشعارِ والحكاياتِ والمواقف العربيَّةِ والكرديَّة، وخاصَّةً ما يُستملَحُ منها. ثمَّ أمَّ وخطبَ في جامعِ الفاروق. ولكَ معهُ ذكرياتٌ بصحبةِ الشيخِ علوانَ رحمَهُ الله.

وقد التقيتَ به في زيارةٍ إلى الرياضِ وقد كبرَ في السنِّ ولبسَ لباسَ العلماء، وذكرَ أنه يشرفُ على حلقاتِ تحفيظِ القرآنِ الكريمِ التي قد تصلُ إلى نحوِ ثلاثمائةِ طالبٍ في الصيف، وحصلتَ منه على ترجمةِ والدهِ العالمِ ليكونَ في الطبعةِ الثانيةِ من كتابِ «معجم المؤلفين المعاصرين»، ووعدكَ بإرسالِ كتابٍ مخطوطٍ له لتحقيقه.

وطرحتَ عليه مشروعًا علميًّا كثيرًا ما أرَّقكَ أمره، وهو جمعُ تراجمِ العلماءِ الأكرادِ في الجزيرة، وذكرتَ له استعدادكَ لدفعِ

راتبٍ شهريٍّ لمن يقومُ بهذا الأمرِ كما يقومُ بأيِّ عملٍ آخر، وأنكَ ستقدِّمُ له مخطَّطًا لهذا المشروع، وستقومُ بتحريرِ العملِ من بعد، وبيَّنتَ له أهميةَ الأمر، وأن هناك الكثيرينَ يموتونَ، ويموتُ معهم علمهم وأخبارهم، ولا يُعرفُ عنهم شيء، وكانوا مشاعلَ النورِ والعلمِ على مدى عقودٍ من الزمن، وأساتذةَ الثقافةِ ومعلمي دينِ الله، وأنه إذا مضى هذا الجيلُ المرتبطُ بهم ولم يُكتبْ عنهم، فلا يُطمعُ في أخبارهم من بعد.

وقد توفيَ رحمهُ الله ليلة الأربعاء ١٣ ذي القَعدة ١٤٢٩هـ، ١١ تشرينِ الثاني ٢٠٠٨م.

وابنهُ «**عبد الواحد**»، عرفتَهُ فتىً هادئًا بالقامشلي، عملَ في دارِ الفكرِ بدمشقَ وطوَّرها، ثم كان في الرياض. ذكرَ أن له (٤٥) تأليفًا، ولعله يعني ما كان منها بالمشاركة، أو ما يدخلُ في بابِ الإعدادِ والتحريرِ والحوار، إضافةً إلى التأليفِ الحقيقي. وفيه ذكاء، وصبرٌ على المطالعة، واطلاعٌ على الثقافةِ العصريَّة، ومواكبةٌ لموضوعاتها المطروحةِ في الساحة، ومشاركةٌ فيها، ومصارعةٌ مع أفكارها العويصة. ولم أرَهُ ماهرًا في الموضوعاتِ الإسلاميَّة. وذكرَ أنه قرأ «لسانَ العرب» لابن منظور! وربما مراجعَ أخرى. ومن عناوينِ مؤلفاته: «تنشئةُ الأطفالِ وثقافةُ التنشئة»، «الاستنساخ: جدلُ الدينِ والعلمِ والأخلاق». وذكرَ أنه يُعدُّ كتابًا في علمِ نفسِ الإخفاق.

وأخٌ أكبرُ منه اسمهُ محمد سرور، عُرِفَ بـ (سرور علواني)، سمعتَ أنه يدرسُ في كليةِ الفنون الجميلة بجامعةِ دمشق، وكان ذلكَ أمرًا يدعو إلى العجب، فآلُ الشيخِ معروفونَ بتوجُّههم الديني، ثم إنه عادَ إلى القامشلي مرَّة، فتعرَّفتَ عليه في بيتِ والده، وذكرتَ له في طرفٍ من الحديثِ أن لكَ كتابًا يُطبَعُ عنوانهُ (لقمانُ الحكيم وحِكَمه) وطلبتَ منه أن يصمِّمَ غلافه، فقال: صفْ لي (لقمان). فقلت: إنهُ بصفةِ كذا وكذا؛ فإذا بقلمٍ وقرطاسٍ بين يديه وهو يرسمُ وجهه، فلم ترضَه، وإنما أردتَ لوحةً رمزية، وكان يتعاملُ مع جهاتٍ إعلاميةٍ وفنيَّة، منها مجلةُ (العربي) الكويتية، ودورُ نشرٍ لتصميم أغلفةٍ لكتبها، كما قدَّمَ رسومًا للأطفال، ورسومًا كاريكاتيرية. وتشتَّتَ عملهُ الفنيُّ بين هذه الأمور.

و«**محمد نوري الديرشوي**» الذي تعرَّفتَهُ عندما كان يتردَّدُ إلى شيخِكَ علوان، وهو من قريةٍ قريبةٍ من «رميلان» قربَ الحدودِ العراقيَّة. كان فقيهًا مليئًا بالعلم، وخاصَّةً فروعَ الشافعيَّة، متصوِّفًا، ضعيفَ البنية، ضعيفَ الصوت، له كتابٌ في التصوُّفِ ردَّ فيه على شُبهِ السلفيين، وكتابٌ آخرُ في سيرةِ والده. وقد ماتَ في سنةِ ١٤٢٦هـ. رحمَهُ الله.

وكانَ من الشخصياتِ الدينيةِ البارزةِ في منطقةِ القامشلي وما حولها الشيخُ «**عبد الرحمن الحافظ**» إمامُ الجامعِ الكبير، الذي صارَ بعد ذلك مديرًا للأوقاف، ولعلهُ كان مفتيًا للمحافظةِ من بعد، ولم تجمعكم لقاءاتٌ إلَّا نادرًا، وكانت علاقتهُ طيبةً معَ رجالِ الدولة، على أنهُ كما قيل: لم يضرَّ أحدًا. وله فضلٌ عليك، كما يأتي.

وكانتْ خطبتهُ في الجمعةِ رائعة، مفهومةً واضحة، واقعيةً مفيدة، يساعدهُ فيها صوتهُ الهادئُ الصافي، وأداءٌ طبيعيٌّ دونَ تكلُّف.

وكان ذا ذكاء وسرعةِ بديهةٍ ومجاملةٍ لطيفةٍ وابتسام، تراهُ يذرَعُ شوارعَ المدينة مسرعًا بجُبَّتِهِ الجميلةِ، أو يجوبها بسيارتهِ متأنيًا.

والأستاذ «أكرم شيخاني» كان يتردَّدُ على الجامع، واشتُهرَ بمهارتهِ في تدريسِ اللغةِ العربيَّةِ على مستوى المحافظة. وكان ذا شخصيةٍ قويَّة، مضى إلى الإماراتِ في أحداثِ حماة، ولم تطُلْ أيامُكَ معه، فلم تعرفْ أحواله.

الشيخ «ميزر المدلول العواصي» من شيوخِ شمَّر. كان نعمَ الرجلُ الشهمُ السخيّ، هادئَ الطبع، قليلَ الكلام، متواضعًا جدًّا، يحسنُ إلى الفقراءِ والمحتاجين، بلغَ من إحسانهِ أنه كان في فناءِ دارهِ مجنون، يُطعمهُ ويَسقيه، وهو (الفقيه يوسف) ـ الذي كان طالبَ علمٍ ذكيًّا، فجُنّ ـ وسيرتهُ الجميلةُ وأخبارهُ في الكرمِ وقضاءِ حوائجِ المضطرِّينَ والملهوفينَ معروفةٌ يتناقلها الناس، وبينهُ وبين شيخِكَ علوان صحبةٌ ومودَّةٌ لا مثيلَ لها، وقد ترجمتَ له في «تتمة الأعلام».

والأستاذُ «جمال الحميِّد». درَّسَ معكَ في القحطانية، وهو من إحدَى قراها، كان قمَّةً في الأخلاق، هيِّنًا، ليِّنًا، حليمًا، مع أدبٍ جمّ. ذا جسمٍ رياضيّ، حضرَ دوراتٍ في الملاكمة، وصارَ حكمًا دوليًّا فيها. ولمَّا علمَ حرمةَ هذه اللعبةِ تركَ تحكيمها، ثم عادَ وترك، وكان يقولُ إنه مثلُ الدخان! ويُدعَى إلى التحكيمِ من دولٍ خليجية.

وكان قد مضَى إلى الإمارات، ودرَّسَ فيها سنواتٍ طويلة،

وتزوَّجَ مرَّةً أخرَى من هناك، وزارَكَ في الرياضِ أكثرَ من مرَّةٍ في طريقِ عودتهِ من العمرةِ أو الحجّ. وخلالَ هذه المدَّةِ حصلَ على الدكتوراه في تخصُّصِ التاريخِ من جامعةِ دمشق، في موضوع (الحدود السياسيَّة للخليج العربي).

والأستاذ «**محمود بيجو**» تعرَّفتَ عليه في القحطانية، وكان يدرِّسُ اللغةَ العربيَّةَ هناك. وله قصَّة. حقَّقَ أكثرَ من كتاب، مثل: «مقاصد الفلاسفة» للإمام الغزالي.

وقسٌّ أسلمَ اشتهرَ في المدينةِ بين المسلمينَ والنصارى، نسيتَ اسمه، أو أنهُ «**كشا بشير**»، واللفظةُ الأولى تعني القسّ، وربما غيَّرَ اسمهُ إلى (بشير) بعدَ إسلامه، ولكنَّ كلا الطرفينِ لم يكونا راضيَينِ عنه، فقد تركَ النصرانية ولم يتشرَّبْ بالإسلام، فكانَ يخلطُ بين هذا وذاك، وله فلسفةٌ عجيبة، كانَ يُطيلُ الكلامَ فيما هو مقتَنعٌ به حتَّى الملل، أو أنهُ لا يؤبَهُ به، رأيتَهُ في حديثٍ ربَّما في مجلسِ الشيخِ ميزر رحمَهُ الله.

وصاحبُ أقدمِ مطبعةٍ في القامشلي، لعلها مطبعةُ الرافدين، وهو من آل طيارة، زرتَهُ في المطبعةِ مع شيخِكَ علوان رحمَهُ الله، لأجلِ طبعِ بطاقاتِ تبرُّعٍ لجامعِ الإمامِ الغزالي بالقحطانية، فكان يتحدَّثُ عن رجالِ المدينةِ ويذكرُ ما خفيَ من أمرهم ليكونَ المسلمونَ منهم على حذر، وقالَ لكَ الشيخُ بعد ذلك: هذا الشخصُ من النوعِ الذي أفادَ الناسَ ولم يستفدْ هو منهم. وتوفيَ نحو سنة ١٤٠٠هـ، وشهدتَ جنازتَه.

الحاج «عبد الصمد عيسى» وجيهٌ معروفٌ في المنطقة، صاحبُ مكتبٍ عقاريّ. كان حليمًا، جمَّ التواضع، حلوَ الحديث، عاقلًا، لطيفَ المعشر.

و«محمود الشافعي» صاحبُ محلٍّ في وسطِ المدينة، مقابلَ محلٍّ صنعِ وبيعِ العُقُل. ولا تذكرُ بضاعتَه. كان يذهبُ إلى حلبَ ليشتريَ بضاعةً، فيجلبُ معه كتبًا قديمةً ومراجعَ دينية، وقد اشتريتَ من عندهِ مجموعةً من كتبِ الفقه وربما الحديث. وكان عالمًا، يُقالُ له «ملَّا»، يجتمعُ في محلِّهِ، على ضيقهِ، أهلُ العلمِ من المسنِّين ـ وقد يضيقُ بهم لكثرتهم ـ يبحثونَ دقائقِ المسائلِ والفروعِ الفقهيَّةِ وما إليها. وكان رَبْعة، يكحِّلُ عينيهِ دائمًا، وله ولدٌ غيرُ مكتملِ العقل، اسمهُ «محمد خير»، كلَّما رأى شخصيَّةً محترمةً تتردَّدُ على والدهِ قالَ له: قلْ لوالدي يزوِّجني. ويأبى الوالد، ويتعصَّبُ الولدُ ويحمرّ، ويُظهرُ العصيانَ إذا أمرَهُ والدهُ بشيء، ثم لا يلبثُ أن يبتسمَ وينفِّذ!... وكان مؤدَّبًا هادئًا لا تكادُ تسمعُ صوتَهُ لهدوئه. وقد سمعتَ أنه مات رحمهُ الله، وتوفي والده بعده، في سنة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م. وذُكِرَ لكَ أنهُ كانَ قد حوَّلَ محلَّهُ إلى مكتبة.

وابنُ الشيخِ علوان «أحمد معاذ» رأيتَهُ في القامشلي قبيلَ زواجه، في إجازةٍ له من السعوديَّة، وهو الذي قدَّمَ أوراقكَ في الرياضِ وتابعها لقبولِكَ في الدراسات العليا، جزاهُ اللهُ خيرَ الجزاء. ثمَّ تآخيتما وتواددتما هناك، وكانَ عضُدَكَ ومؤنسَكَ الأمينَ والحليم، وخيرَ عونٍ لكَ في ديارِ الغربة، حيثُ كانَ قد سبقكَ إلى هناكَ، وحصَّل دراستَهُ

الجامعيةَ والعليا كلَّها من جامعةِ الإمام، ثم درَّسَ في كليةِ التربيةِ التابعةِ لجامعةِ أمِّ القرى بالطائف، فأستاذًا للعقيدةِ والمذاهبِ المعاصرة بكليةِ الشريعةِ في الشارقة، وله مؤلفاتٌ جميلةٌ، وأوراقُ عملٍ قدَّمها لندواتٍ ومؤتمرات، وآثارهُ هي: «إثباتُ الاستواءِ والفوقيَّة» للجويني (تحقيق)، و«الأربعونَ حديثًا في الأخلاق مع شرحها»، و«عبد الله بن المباركِ الإمامُ المجاهد»، و«فضائلُ العبادة»، و«الفضيلُ بنُ عياضٍ العالمُ القدوة»، و«صفاتُ النبيِّ ﷺ» لابنِ عثيمين (خرَّج أحاديثَهُ وزادَ فيه).

ومنهم «**بهاء الدِّين عبد الرحمن**»، رأيتَه في إجازةٍ له قضاها في القامشلي، وكانَ يدرسُ الماجستيرَ في الرياض، متخصِّصًا في اللغةِ العربيَّة، ثم تآخيتما وتواددتما عندما درستَ أنتَ أيضًا هناك، وعملتما معًا في دارِ الرفاعي، وقد حصلَ على الدكتوراه، وتعيَّنَ أستاذًا في الرئاسةِ العامةِ لتعليمِ البناتِ بمكةَ المكرمة، ثم في جامعةِ الطائف. وكانَ من الطلبةِ المجتهدينَ الأذكياء، قويَّ الإيمان، واسعَ الصدرِ، مخلصًا. طُبعتْ رسالتَهُ في الماجستير (لباب الإعراب) للإسفراييني التي حققها، وكذلك الدكتوراه «الدراسات النحوية في بلاد فارس من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن السابع». وأعدَّ كتابَ «فوات الأعلام» للرفاعي، وله ثلاثُ رسائلَ صغيرة، هي: «أبو بكر الصدِّيق خليفةُ رسولِ الله ﷺ»، و«صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ ناصرُ السُّنَّة وقاهرُ الصليبيين»، و«قراءةٌ خاشعةٌ لأمِّ القرآن».

وهو شقيقُ «**فرهاد**» ذي الخُلقِ الطيِّبِ والمعاملةِ الحسنة،

المحبوبِ جدًّا من الناس، الذي عملَ في مكتبةِ الملكِ فهد الوطنية بالرياض، وساعدكَ بإخلاصٍ في أعمالٍ عدَّة، وهو حاصلٌ على إجازةٍ من كليَّةِ الشريعةِ بجامعةِ دمشق.

وكانت لكَ رغبةٌ في التعرُّفِ على كلِّ مدرِّسٍ أو مثقَّفٍ هناك، تزورهُ ويزورك، على عكسِ ما أنتَ عليه الآن، لا تتعرَّفُ على أحد، ولا تريدُ أن يتعرَّفَ عليكَ أحد!

* * *

في قبضة المخابرات

وما لا تنساهُ قطّ، ولم يحدثْ لكَ من قبلِ، أن صرتَ في قبضةِ المخابراتِ يومًا!

بدأت القصَّةُ عندما كنتَ تنامُ وحيدًا في جامعِ زينِ العابدين، وتقومُ عندَ الفجرِ وتضعُ المسجِّلَ على الأذان، الذي أفتى العلماءُ بعدمِ جوازه، وقُدِّرَ لكَ مرَّةً أن تُخطئَ في التوقيت، فأفقتَ ونظرتَ إلى الساعة، وأنتَ تخشى فواتَ الوقت، فظننتَ أنهُ حانَ وقتُ الفجر، حيثُ كانَ الفجرُ يؤذِّنُ في الرابعةِ وعشرينَ دقيقة، فوقعَ بصركَ عليها أنها كذلك، بينما قُدِّرَ أن ترى عقربَ الدقيقةِ في مكانِ الساعة، والعكس، فكانَ الوقتُ الحقيقيُّ هوَ الثانيةَ عشرةَ وعشرينَ دقيقة!

وبينما نداءُ «اللهُ أكبرُ» يعلو في سماءِ المدينةِ في غيرِ موعده، كانَ يعني أمرًا غيرَ مرغوبٍ لدى المخابرات؛ لأنَّ مثلَ هذا كانَ يُفعَلُ في حماة في نداءاتٍ خاصةٍ للمقاتلينَ وإشاراتٍ رمزيَّةٍ منهم!

وأقفلتَ المسجِّلَ قبلَ أن يكملَ الأذان، حيثُ أدركتَ الخطأَ متأخِّرًا، لكنكَ شعرتَ أنهُ خطأٌ غيرُ عاديٍّ في مثلِ هذهِ الظروف، وعدتَ إلى غرفتكَ وأنتَ متوجِّسٌ خيفة، ولا نوم!

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى سمعتَ دقَّاتٍ على النافذة، وأبصرتَ أبواطَ عساكرَ تروحُ وتغدو... افتح الباب.

وفي ثوانٍ كنتَ في الجيبِ العسكريّ، وعلى يمينكَ ويسارك، ومن أمامكَ ومن خلفك، المخابراتُ العسكرية، حتَّى كادتْ أضلاعُ قفصِكَ الصدريِّ تختلفُ بعضها على بعض!

قُذِفتَ في غرفةٍ من الدورِ السفلي، وأُتي بعسكريٍّ ليجلسَ أمامك، لا يتكلمُ ولا يتحرَّك، فقط ينظرُ إليك! وأنتَ تتحاشَى النظرَ إليه، وتجرَّأتَ فنظرتَ إلى نافذةٍ صغيرةٍ مفتوحةٍ من أعلى، فقامَ وأغلقها، وعادَ مرَّةً أخرى يحدِّقُ فيك، حتَّى انتهتْ مهمَّته.

وجاءَ ضابطُ مخابراتٍ ليحقِّقَ معك، وقد طلعتِ الشمس... فبدأَ الحديثَ بالعلومِ الشرعيَّةِ والمسائلِ الفَرَضيةِ العويصةِ مما يتعلَّقُ بالتركات، كالشقشقيةِ وما إليها التي لم تسمعْ بها قطّ، واندمجتَ معهُ في المسائلِ العلميةِ حتَّى تجرَّأتَ فقلتَ لهُ: من أينَ لكَ هذا العلم؟ فقالَ: تربيةٌ خاصَّة!

ثمَّ سألكَ بعضَ الأسئلة، وأردفها بخبرٍ ذكرَ أنهُ حديثٌ شريفٌ ما سمعتَ بهِ آنذاك، وهو ضعيف، حيثُ ذكرَ أنَّ الرسولَ ﷺ سُئلَ أيكونُ المؤمنُ سارقًا؟ أيكونُ زانيًا؟ فأجابَ في المرَّتينِ نعم، ولمَّا سُئلَ أيكونُ كذَّابًا؟ قالَ: لا.

يعني تعريضًا لكَ بأن لا تكذبَ في أجوبتك.

ولمَّا رآكَ خالي الوفاضِ قال: ما هيَ الأفكارُ التي مرَّتْ برأسكَ في الـ (٣٦) ساعةً الماضية؟!

وكانَ سؤالًا عجيبًا كدتَ أن تضحكَ منهُ! لكنهُ أحدُ أساليبِ التحقيقِ التي يتوصَّلُ بها المخابراتُ إلى أمورٍ خلالَ استفساراتٍ عمَّا يقولهُ المتَّهَمُ دونَ أن يُدركَ دلالتها!

ماذا لو أجبتهُ ساعتئذٍ بأنك: كنتَ تفكِّرُ أو تتخيَّلُ لو كنتَ حرًّا طليقًا تقولُ ما أنتَ مقتنعٌ به، وتنقدُ ما لستَ مقتنعًا به؟

أو تذهبُ إلى من تشاءُ في أيِّ وقتٍ دون أن تلتفتَ وراءك؟

أو تدخلُ دائرةً حكوميَّةً وأنتَ غيرُ منقبضٍ أو خائف، تطمئنُّ إلى إنجازِ معاملتِكَ دون توبيخٍ أو تقريع، ولا حاجةَ إلى أن تمدَّ يدكَ إلى جيبك؟

أو تلقيَ محاضرةً دون إذنٍ من أحد، أو. . . .

ولو عطفتَ بزمامِ تفكيرِكَ إلى خيالٍ آخرَ وقُدِّرَ أن ترى نفسكَ في عملٍ ترغبُ فيه، لتُبدِعَ فيه وتنتجَ أحسنَ إنتاج، أو لتعيلَ نفسكَ وأولادكَ وأهلكَ الذين تعبوا معك. . . .

أو أنك تفكِّرُ بمتابعةِ دراسَتِكَ دون أيَّةِ منغِّصات. . . .

أو تخيَّلتَ لو سُمِحَ لكَ بالمشاركةِ في خدمةِ بلدِكَ وبناءِ المجتمعِ دون رقابةٍ أو خوف. . . .

وقبل هذا لو كانت لكَ هويَّةٌ مثلَ غيركَ حتَّى يشعروا بإنسانيَّتِكَ نوعًا ما. . . ثم تقدرُ أنْ تذهبَ إلى بلدٍ آخر، ولن يسألكَ هناك أحدٌ: «بماذا كنتَ تفكِّر»؟ إلَّا أن يكونَ صديقًا محبًّا. . . .

لكن ماذا لو أجبتهُ مازحًا آنئذٍ أنكَ كنتَ تفكِّرُ بانقلابٍ مثلًا، هكذا في براءةٍ وانبساطٍ عفوي، مع أنه لن يساعدَكَ أحد، ولن يقومَ معكَ جنديٌّ واحد؟! بالتأكيدِ ستكونُ النتيجةُ نهايةً مؤلمةً لحياتِكَ غيرِ العزيزةِ عليهم، يعني حتَّى لو كانَ ما قلتَهُ مزحًا أو خيالًا، أو عارضًا كسحابةِ صيف... فإنَّ وراءَ هذا الخيالِ فكرًا... ومنَ المسموحِ أن تفكرَ أو تتخيَّلَ أيَّ شيءٍ إلَّا مثلَ هذهِ الأمورِ الحسَّاسةِ جدًّا!

قلتَ لهُ في هدوءٍ وعفوية: وبماذا أفكر؟! إني أفكرُ بعملي، متى يحلُّ الأذانُ، وكم الساعة، وهل اقتربَ موعدُ الصلاة، ومثلُ هذهِ الأمور....

ومضى... وكانَ الخبرُ قد وصلَ إلى الشيخِ الكريمِ علوان رحمهُ الله، فأخبرَ هوَ الآخرُ الشيخَ عبد الرحمن الحافظ مديرَ الأوقاف، فاتَّصلَ بالمخابراتِ وقالَ: اتركوهُ وأنا أتحمَّلُ كلَّ شيءٍ عنه، إنهُ تلميذُ الشيخِ علوان ولا علاقةَ لهُ بشيء!

وتركوكَ بعد عشرِ ساعاتٍ من الحجز.. شكرَ اللهُ سعيَ الشيخين.

* * *

أمور أخرى

وكانَ يتردَّدُ على المسجدِ رجلُ مخابراتٍ يعملُ في التحقيق، يلبسُ ثوبًا أبيض، فبقيَ آخرَ المصلِّينَ مرةً، وأتى إليكَ يسأل: أحيانًا يأتي شخصٌ فأحقِّقُ معهُ وأقرِّرُ عليهِ التعذيبَ والسجنَ مُدَدًا معينة، فهل عليَّ إثمٌ في ذلك؟ وما هوَ الحدُّ المقبولُ في ذلكَ إسلاميًّا؟

فقلتَ لهُ مبتسمًا: هذا يحتاجُ إلى فتوى سياسيَّة، لا يقدرُ عليها سوى الشيخ عبد الرحمن الحافظ إمامُ الجامعِ الكبير. وكانت هناكَ معرفةٌ جيِّدةٌ بينهم.

وكانَ المسؤولَ التنفيذيَّ للمسجدِ «**رشيد يوسفان**» الذي كانَ من جماعةِ الإخوانِ القديمةِ في القامشلي، التي حلَّها الأستاذُ مصطفى السباعي رحمهُ اللهُ، ولم تكنْ هناكَ فرصةٌ تُذكرُ للقاءِ بهِ، فقد كانت أحداثُ حماةَ في أوجها، وربما كانَ بعيدًا عنها، لكبرهِ في السنّ، على أنه كان حازمًا جدًّا في المسجد، وأصلهُ من حماة، استوطنَ مدينةَ القامشلي لعله منذ شبابه. وقد توفيَ رحمهُ الله سنة ١٤٢٣هـ، وترجمتَ لهُ في «التتمة».

وكانَ خادمُ المسجدِ يسمَّى «**حجِّي طاهر**» كبيرًا في العمر، طيِّب

القلب، محافظًا على شعائرِ الدين، ويشكو من كثرةِ المتأمِّرين عليه، وكنتَ أضعفهم إمارةً، فكان يضحِّي بأوامرك!

وكان لديهِ كتابٌ أصفرُ قديم، كلَّما سنحتْ لهُ الفرصةُ أخرجَهُ وقرأَ ما فيه، وهوَ لا يفتأُ يقرأُ منهُ الحديثَ الموضوعَ «أربعٌ لا يشبعُ من أربع» ويبتسم، لعلَّه لما فيه: «وأنثَى مِن ذَكر»!

وكان له ابنٌ شابٌّ مؤدَّب، عملَ ممرِّضًا عند الدكتور عبد الرحيم محمد، وقد ماتَ الطبيب، كما ماتَ حجِّي طاهر، وابنهُ هذا أيضًا، بعد مغادرتِكَ البلد، وكان الابنُ يشكو من مرضِ القلب، سمعَ كلامًا في أهلهِ من رجل، فقصدَهُ بآلةٍ حادَّة، وشجَّه، فلما رأى الدمَ يسيلُ منه خاف، فوقفَ قلبه، فمات.

وقد قلتَ إنكَ لم تكنْ تفكِّرُ أن تكونَ إمامًا لجامع، فالمعروفُ عن الإمامِ إلمامهُ بالفقه، وما يلزمُ الناسَ في أمورهم العمليةِ المتكرِّرة، كالزواجِ والطلاقِ والجنائز، وما كنتَ من طبقةِ العلماء، ولم تلبسْ لباسهم قطّ، بل ترى في عالَمِكَ شيئًا من ثقافةٍ إسلاميَّةٍ وحبًّا للدعوة ـ ومن عجبٍ بعدُ أن تجمعَ بينَ الخَطابةِ والإمامة ـ ولذلكَ لم تغسلْ ميتًا، ولم تذبحْ ذبيحة، ولا تحسنُ ذلك حتَّى الآن، ولا شهدتَ على طلاقٍ أو وثَّقتهُ، ولم تقمْ على عقدِ نكاحٍ إلَّا مرةً، قصدكَ فيها وجيهانِ بصحبةِ شيخٍ عجوزٍ من السعوديَّةِ ومعهُ ابنهُ، حضرا وبقيا أكثرَ من شهرٍ يبحثانِ للعجوزِ عمَّن تتزوجهُ، ويبدو أنهُ كانَ لا يرضى إلَّا ببكرٍ صغيرة، وتيسَّرَ له أخيرًا، ولعلكَ راجعتَ في ذلكَ الشيخَ خاشع حقي حتَّى أكملتَ مراحلَ العقد، ولما تمَّ ناولكَ العجوزُ

نقودًا فأبيت، وكرَّرَ المحاولةَ فأصررتَ على ردِّها، وتعجَّبَ من ذلكَ أحدُ الوجيهين، الذي كانَ في رتبةِ الملالي لكنهُ تركَ العلم، وقالَ: كنتُ أظنُّكَ مثلَ بقيةِ الملالي، وقد سمعتُ بكَ ولم أرَك، وأنا الذي طلبتُ منهم أن يأتوا إليكَ لتعقدَ لهم عقدَ النكاحِ حتَّى تنالَ شيئًا من المال، أمَّا وإنكَ رفضت، فإنكَ شيءٌ آخر. أو كما قال.

ولكَ في مثلِ هذا حوادثُ وحكاياتٌ أخرُ لا حاجةَ لسردها.

وكنتَ عاديًا، لا تحبُّ أن تُكرمَ مثلَ العلماءِ والمشايخ ـ ومازلت ـ ولا تحبُّ أن تتميَّزَ عن الناسِ العاديين، حتَّى في ثيابك، فإنَّ أحبَّها إليكَ ثوبٌ يسترُ بدنك، وقلنسوةٌ تسترُ صلعتك. وتذكرُ أن رجلًا مسنًّا سلَّمَ عليك، وانحنى مقبِّلًا يديك، فزجرتَهُ بأدب، ولم تُطقِ البقاءَ في المسجد، واعتراكَ قلقٌ شديد، واتَّجهتَ بسرعةٍ إلى الشيخ خاشع، وقلتَ إنكَ ستتركُ الجامع، فضحكَ وهوَّنَ عليك، وقال إنه أمرٌ عاديٌّ يحصلُ معه أيضًا، وأن الناسَ أصنافٌ وطبائع. . . .

* * *

أحوال أسرية

كانت حياتُكَ الأسريةُ هادئةً جدًّا، لم ينغِّصها شيءٌ سوى القليلِ مما لا يُذكر، فقد كانت أمُّ الأولادِ موافقة، على طباعِ الأسرة، وهيَ ابنةُ العمِّ الكبرى، مما شجَّعكَ على التفرُّغِ للمطالعةِ والدعوةِ والكتابة. وكانت المسائلُ والمشكلاتُ الأسريةُ التي تردُ إليكَ كثيرة، فتعجبُ من ذلكَ، وتحمدُ اللهَ على حسنِ حالِكَ وفراغِ بالك.

وقد رزقكَ اللهُ منها الثلاثةَ الأُوَلَ في سورية: الزبير، وأنس، وصهيب، ثمَّ في السعوديَّة: غفران، وسميَّة، وأروى، وشفاء، وأحمد، وإبراهيم.

ولم يوفَّقِ الزبيرُ في دراسةِ الشريعةِ بجامعةِ دمشق، فعادَ إلى الرياضِ لينالَ الدبلومَ في الحاسبِ الآليِّ، وأُغرمَ بالثقافةِ العامة، فصارتْ مطالعةُ الصحفِ وتتبُّعُ الأخبارِ في وسائلِ الإعلامِ المختلفةِ أشهى إليه ربَّما من الطعامِ والشراب، وقد ساعدكَ كثيرًا في «تتمة الأعلام» و«تكملة معجم المؤلفين»، وعملَ مدة قصيرةً في قسمِ المخطوطاتِ بمكتبةِ الملكِ فهد، ثم سكرتيرَ تحريرٍ في موقع «الألوكة».

وأنس؛ نال الإجازةَ في اللغةِ العربيَّة من جامعة دمشق أيضًا، وتزوَّجَ في آخرِ سنةٍ جامعيَّةٍ هناك، وعادَ ليدخلَ معمعةَ الحياةِ بحثًا عن الرزق، عاشرَ الناسَ وخبرهم، وقضَى حاجاتٍ كثيرة في موقعِ عملهِ ولله الحمد، في الندوةِ العالميةِ للشبابِ الإسلامي، ثم كان مديرَ تحريرٍ في موقعِ «الألوكة»، وله مشاريعُ تأليفيةٌ أيضًا، قطع في بعضها شوطًا كبيرًا، وصدر له «المستدرك على حلم معاوية» مع الأصل الذي جمعته لابن أبي الدنيا، الأصل في (٣٢) فقرة، والمستدرك (٨٤) فقرة. ويعمل على نشر كتاب مفيد له بعنوان «١٠ أيام في البرازيل»، حيث قام برحلاتٍ عديدة، وسعى في نشرِ كتبك، ولولا فضلُ الله ثم سعيهُ لبقيَ بعضُها مخطوطًا. وهو أبو (أفنان) و(شيماء) و(محمد خير) و(أسامة) و(عبد الرحمن).

ومثلهُ صهيب، الذي نالَ شهادةَ الإجازةِ في اللغةِ العربيَّةِ من الجامعةِ المذكورة، يحبُّ العلمَ كثيرًا، وكادَ أن يصمَّ أذنيه إلَّا عن الأدبِ والعلم، وقد ابتُلي بنظمِ الشعر، لكنه صوَّب سهامهُ، فكان نورًا للإسلامِ وأهله، وحربًا على الأعداءِ ونابتتهم. وله ديوانُ شعرٍ كبير، ومشاريعُ تأليفيةٌ شبهُ مكتملة، بل حقَّقَ كتابًا وصدرَ وهو طالبٌ في الثانوي بعنوان «المنتقى الثمين من كتاب المتمنين» لابن أبي الدنيا. وحصلَ على المركزِ الأولِ في جائزةِ الشارقةِ للإبداعِ الأدبي، في الدورةِ الثانيةَ عشرةَ، لعام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩م) عن مجموعتهِ الشعريةِ «تكوينُ حلم»، وعلى جائزة الدولة لأدبِ الطفلِ من قطر عام ١٤٣١هـ عن ديوانه «يوميات خَلوق»: مجموعة شعرية للأطفال. وجائزةٍ أخرى في العامِ نفسهِ من إدارةِ الاتصالاتِ

بالرياض، ويقومُ بأعمالٍ علميةٍ عديدة، فهو محررٌ أدبي واسعُ العلاقاتِ في ذلك، ولا يُشهِرُ نفسه. وله ديونٌ آخرُ لم يُنشَر، عنوانهُ «رحلةٌ في وطنِ الألوان».

وقد حفظَ الثلاثةُ أجزاءً عديدةً من القرآن الكريم، إلَّا من نسي، وقد نبتوا جميعًا في حلقاتِ تحفيظِ القرآنِ الكريمِ على مدَى سنواتٍ طويلة.

ثم غفران؛ أم (عليّ) و(حسّان) و(كِنان) (وشام)؛ نالت الدبلومَ في الحاسبِ الآلي، وحفظت أجزاءً كثيرةً من القرآنِ الكريم، ولها عدَّةُ مقالاتٍ في الشبكةِ العالميةِ للمعلومات.

فالتوأمان سميَّة وأروى؛ ريحانتا البيت، نالتا الدبلومَ في الحاسبِ أيضًا، وقد حفظتا القرآن الكريم عن ظهرِ قلب، حفظتْهُ أولاهنَّ في ١٦ ذي الحجَّة سنةَ ١٤٢٧هـ، والأخرى يوم الجمعةِ ٤ ربيعِ الأولِ سنةَ ١٤٢٨هـ. وكان فرحُكَ بذلك عظيمًا ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: ٥٨]، وكنتَ قد قلتَ للأسرةِ إنهما إذا حفظتا القرآنَ فستفعلُ ما لم يفعلْهُ أبٌ؛ فرحًا بذلكَ، حيثُ إنهما سجَّلتا رقمًا مباركًا في هذا الشأنِ، فكانتا أولَ منْ يحفظُ القرآنَ منذُ أن أسلمتِ الأسرةُ (أكثرَ من قرنٍ) حتَّى حينِه! وسألتَ اللهَ تعالى لهنَّ خيرَ ما سألَ عبدٌ لبناتِهِ، وأنْ يعطيهنَّ خيرَ ما أعطى بناتٍ وأفضل، وأن يجعلَ ذلك خيرًا وبركةً في الأسرةِ كلِّها.

ثم إنهما أتقنتا القراءاتِ العشر: سبعًا عن طريقِ الشاطبيَّة، وثلاثًا عن طريقِ الدرَّة، مع دوراتٍ عديدةٍ متخصِّصة، ودرَّستا وقامتا بأعمالٍ

إدارية متنوّعةٍ في مدارسِ تحفيظِ القرآنِ الكريم. . . فللهِ الحمدُ كلُّه، وله الشكرُ على فضله.

وتزوَّجتْ سميةُ من شابٍّ فاضلٍ اسمهُ «ياسر»، ورُزقا بطفلةٍ جميلةٍ سمَّوها «سيماف».

وصغراهنَّ (شفاء) حصلتْ على إجازةٍ في اللغةَ العربيَّةَ وآدابها بدرجاتٍ عالية، وكانتْ قد نالتِ الشهادةَ الثانويَّةَ بترتيبٍ عالٍ أيضًا، وقُبلتْ في الدراساتِ العليا لكنها لم تتابعها لأمورٍ مالية. وحفظتْ (٢٤) جزءًا من القرآنِ الكريم، وبدأتْ التأليفَ بكتابٍ نادر، وكادتْ أن تنهيه، ولها بحوثٌ ودراساتٌ، نُشِرَ بعضُها في الشبكةِ العالميةِ للمعلومات، وراجعتْ عدَّةَ أجزاءٍ من «تتمة الأعلام» وصحَّحت فيه أخطاءً عديدة، وتزوَّجتْ بشابٍّ ديِّنٍ والحمدُ لله، ورُزقت بـ (فاطمة).

ولم تطلبْ من أيٍّ منهم أن يسجِّلَ في تخصُّصِ اللغةَ العربيَّة، ولكن كانت هذه رغبتهم.

ثم (أحمد)؛ صاحبُ هواياتٍ ومواهب، وغلبَ عليهِ حبُّ الحاسبِ والتفنُّنُ فيه، وخاصَّةً التصميم، وكانَ من الأوائلِ في دراستهِ دائمًا، حفظَ نحوَ نصفِ القرآنِ الكريمِ ولله الحمد، وأنشأ لنفسهِ موقعًا رائدًا (شبكة التصاميم الإسلاميَّة: نحو تصميم إسلامي عالمي راق ومميَّز) وهو طالبٌ في الثاني الثانوي، وقد صمَّمَ لوحاتٍ إسلاميَّةً رائعة، ولقبَ نفسَهُ بالمصمِّمِ المسلم، كما صمَّمَ لموقعكَ واهتمَّ به، وصمَّمَ كلَّ أعدادِ «مجلة الكتاب الإسلامي». وهو يدرسُ تخصصَ الطاقةِ الكهربائية في كليةِ الهندسة بجامعةِ دمشق.

ثم (إبراهيم)؛ الذي سمَّيتَهُ باسمِ نبيِّ الله إبراهيمَ الخليلِ عليه الصلاةُ والسلام، لعظمِ فضائلهِ وثناءِ الله عليهِ في كتابهِ الكريم، ودعوتَ اللهَ أن لا يحرمَهُ شمائلَ له يهبها عبادَهُ الصالحينَ بما يناسبه، وأن يرزقَهُ الدينَ والعلمَ كما سألتَهُ لإخوانه، وأن لا يقطعَ هذا البيتَ من رحمتهِ وبركاته. وهو من الأوائلِ في مدرستهِ والحمدُ لله، وحفظَ أكثرَ من (١٦) جزءًا من القرآنِ الكريم وهو في الأول الثانوي بفضلِ الله (١٤٣٤هـ)، وهوايتهُ في التصميمِ كذلك، وله تصميماتُ أعمالٍ لمواقع منشورةٌ في الشبكةِ العالميةِ للمعلوماتِ ليسَ عليها اسمه.

كما استأنستْ والدتهم بكتابِ اللهِ كثيرًا بعد أن استراحتْ من تربيةِ الأولاد، وقد حفظتْ القرآنَ كلَّهُ بفضلِ الله.

وكان من أفراحِ الأسرةِ التي لا تُنسى اجتماعُكما بوالديكَ ووالديها في موسمِ حجِّ ١٤٠٤هـ. والحمدُ لله.

* * *

المطالعة وبدايات الكتابة... وهموم العلم

ألقى والدُكَ على مسامعِكَ أكثرَ من مرَّةٍ قصَّةَ حبِّهِ للعلمِ وهو طفل، فكانَ يتردَّدُ على إمامِ القريةِ ويتعلَّمُ القراءةَ والكتابةَ في الكتّاب، لكنَّ والدَهُ منعَهُ من ذلكَ وأمرَهُ أن يرعَى بقرتهم ويرعَى لآخرين، ويجلبَ الماء...، فتوسَّلَ إليهِ أن يدَعَهُ حتَّى يتعلَّمَ ولو شيئًا قليلًا فأبى، فأبدَى استعدادَهُ للرعي وغيرهِ على أن يتفرَّغَ للتعلُّمِ ساعةً واحدةً بعدَ العصرِ لكنهُ رفضَ هذا الاقتراحَ أيضًا، وتوسَّطَ له إمامُ القريةِ دونَ فائدة! ولم يُفدْهُ بعد ذلكَ توسُّله وبكاؤهُ المستمرّ!

وكانتِ الأحوالُ سيِّئةً للغايةِ آنذاكَ وكأنهم في قحطٍ ومجاعةٍ مستمرَّة! وذلك بُعيدَ الحربِ الأولى، وأثناءَ سقوطِ الخلافةِ الإسلاميَّة، واستيلاءِ العلمانيينَ على الحكم، حيث كانتِ الدولةُ في أقصى دركاتِ التردِّي والفوضى.

وكانَ كلَّما ألقى على مسامعِكَ هذه الذكرى حزنَ واعتصرَهُ الألمُ حتَّى كأنه يعيشُ ذلكَ اليوم، فكنتَ تتألَّمُ لذلك أنتَ أيضًا، وينغرسُ في نفسِكَ حبُّ العلمِ والإصرارُ على المضيِّ في طريقه.

ولم يُقصِّرْ والدُكَ معكَ في هذا الشأنِ قطّ، وكأنَّهُ كان يريدُ أن يعوِّضَ فيكَ ما فاتَهُ هو، فأرسلكَ إلى الكتَّابِ مع الدراسةِ النظامية، وتعلَّمتَ التهجِّي وقراءةَ سورٍ من القرآنِ عدَّةَ سنوات، لكنَّ الإهمال من «الملا» كانَ واضحًا، فلم تستفدْ من ذلكَ كثيرًا.

وأتقنتَ القراءة، وكانَ حانوتُ والدِكَ منفذًا لكَ للاطلاعِ على أوراقِ جرائدَ ومجلاتٍ تُستعملُ لفائفَ للخردوات، وكانَ يأتي بها من المخازنِ مع شراءِ الأغراض، فكنتَ تطَّلعُ عليها وتقرؤها بنهمٍ شديد!

وكانَ أبرزَ ما يوصَمُ بهِ المجتمعُ آنذاكَ هوَ «الجهلُ»، فلم تكنْ في البلدةِ مكتبةٌ أصلًا، ولم ترَ كتابًا يباعُ فيها إلَّا وأنتَ في المرحلةِ الثانوية، ولم يكنْ فيها عالمٌ واحد، إنما كانَ هناكَ مسجدٌ ولهُ إمام، وكانَ يُطلقُ عليهِ «ملَّا» تجاوزًا؛ إذ إنهُ لم يكملْ علمهُ، ومثلهُ يقالُ لهُ «فَقَّه» ولعلهُ بالعربيَّةِ «فُقَيْه» تصغيرُ «فَقيه». ولا يوجدُ مثقَّفونَ حقيقيون، فلا وعيَ في البلدةِ أصلًا، فالنشاطُ الثقافيُّ معدوم، والدعوةُ لا وجودَ لها، والاطلاعُ على ما يجري في الساحةِ الإسلاميَّةِ ـ مثلًا ـ لا منفذَ إليه، والدعاياتُ والشائعاتُ على الجماعاتِ الإسلاميَّةِ تنهالُ من قبلِ العلمانيينَ والشيوعيينَ خاصةَ بأنهم عملاءُ ورجعيون، ولا يوجدُ أحدٌ من الإسلاميينَ ليردَّ عليهم... والشبابُ يصدِّقون!!

وعندما لزمكم المصحفُ للقراءةِ فيهِ في الكتَّاب، نزلَ والدُكَ إلى مدينةِ القامشلي وأتى بهِ من هناك، وكانت فرحةً عظيمةً للأسرةِ عندَ رؤيتهِ ودخولهِ إلى البيت، فالكلُّ قامَ لهُ وقبَّلَهُ، وعملتْ لهُ الوالدةُ حافظةً من قماشٍ حريريٍّ أخضر، وكانَ يعلَّقُ بقلادةٍ في القبلةِ

ليكونَ مصونًا أمامَ العينِ دائمًا! وكنتَ تتناوبُ معَ أختكَ الكبيرةِ القراءةِ فيه.

وفي المرحلةِ الإعداديةِ أو الثانويةِ تلقَّفتَ قصصًا وروايات، كسيرةِ بني هلال، وسيرةِ عنترة، وألفِ ليلة وليلة، ونوادر القليوبي، قرأتَها كلَّها. واستعرتَ كتبًا من إمامِ الجامعِ فلم تستفدْ منها؛ لأنها لم تكنْ ملائمةً لسنِّك، وكانت متونًا وحواشيَ وأسانيد. وعلمتَ بوجودِ مكتبةٍ مدرسيَّةٍ فكنتَ من أكثرِ روَّادها والاستعارةِ منها، لكنها كانت سيِّئةً مغشوشة، فالكتبُ التي فيها لكتَّابٍ معينينَ وروائيينَ منحلِّينَ أخلاقيًّا وقوميينَ علمانيين واشتراكيينَ شيوعيين، فبينها رواياتُ الجنسِ والأدبِ المكشوفِ ومؤلفاتِ ماركس ولينين وماو تسي تونغ وأرنستو تشي غيفارا ومن إليهم، وماذا عسى أن تفعلَ أمثالُ هذهِ الكتبِ بجيلِ الشباب؟

وكانَ الحزبُ الشيوعيُّ نشطًا في البلدة، وأمثالُ هذهِ الكتبِ كثيرة. ولفلسفتها وتكرارِ ما فيها من أفكارٍ ونظرياتٍ عقيمةٍ كانتِ النفسُ تتقزَّزُ منها، ولا تجدُ فيها رائحةَ ثقافةٍ تناسبُ المجتمعَ وتكوينَهُ وتراثَهُ وعقائدَه، فعافتها النفسُ ولفظتها، لكنَّ الإقبالَ على بقيةِ الكتبِ كانَ بسببِ عدمِ وجودِ غيرها، ومن بينها رواياتٌ سيِّئةٌ تفسدُ الشبابَ وتحيلهُ إلى كتلٍ منَ الغرائز، وتشيعُ في نفسهِ ظلامَ الجريمةِ وتتبُّعَ خططِ المجرمينَ وتقليدَ المفسدين، وكانت منها رواياتُ نجيب محفوظ، مثلَ «زقاق المدق» وغيرها، ورواياتُ محمد عبد الحليم عبد الله ومن إليهما. وما وقعت عينُكَ على روايةٍ إسلاميَّةٍ سوى «إصلاح» لعزيزة الأبراشي. أمَّا التاريخيةُ فكانتْ رواياتُ جرجي زيدان

شائعةً جدًّا، وهي تجعلُ منَ الفتوحاتِ الإسلاميَّةِ العظيمةِ وبطولاتِ المسلمينَ قصصَ حبٍّ ومؤامراتٍ غرامية، معَ كلامٍ دخيلٍ وتحريفٍ وتمييعٍ للمواقفِ الجهاديةِ وما إلى ذلك.

وديوانُ أبي نواسٍ كانَ شائعًا أيضًا، وقد قرأتَهُ كلَّهُ آنذاك. وكنتَ تردِّدُ منه أبياتًا لغرابتها وصعوبتها، دون أن تعرفَ معناها، وتبيَّنَ أنها شركياتٌ والعياذُ بالله، كقوله «بمعموديةِ الدينِ العتيقِ بمطربليطها بالجاثليقِ». غفرَ اللهُ لكَ وله.

وكانَ كلُّ هذا مقصودًا مخطَّطًا، من الدولةِ والحزبِ والتربية، للقضاءِ على الثقافةِ الإسلاميَّةِ وجذورها، واستبدالِ ثقافةٍ جديدةٍ بها، هيَ أبعدُ ما تكونُ عن مقوِّماتِ المجتمعِ الإسلاميِّ ودينهِ القويم.

وكانَ التأثُّرُ واردًا وواضحًا في توجيهٍ ثقافيٍّ كهذا، يضافُ إليه نوعيةُ المجلَّاتِ والجرائدِ التي كانت تسمحُ الدولةُ ببيعها وتركِّزُ عليها، وهي قليلةٌ جدًّا، وكلُّها من منطلقٍ حزبيٍّ وقوميٍّ عنصريٍّ وعلمانيةٍ وإلحاد، ماعدا مجلة «العربي» الكويتية! التي أفسدتِ المجتمعَ العربيَ أكثرَ من مجلاتِ الجنسِ والعري، لأنها ركَّزتْ على طمسِ الدين، وعلى إقامةِ مجتمعٍ جديدٍ لا علاقةَ لهُ بالإسلامِ وأركانهِ ومبادئهِ ونظامهِ السياسيِّ والاجتماعيِّ والاقتصاديِّ وتاريخهِ العظيم، ومعَ كلِّ ما كانت تحتوي عليهِ هذهِ المجلةُ كانت الرغبةُ في تحصيلها ومتابعةِ صدورها تحوزُ على اهتمامك، لقراءةِ استطلاعاتها وما إليها، ولأنها تكادُ أن تكونَ المجلةَ الثقافيةَ الوحيدةَ في الساحة، وما عداها فكلهُ اشتراكيٌّ وثوريٌّ وقوميٌّ وعلمانيٌّ وحزبيّ. . . .

وللقارئ أن ينظرَ في آثارِ هذهِ الثقافةِ ومعتنقيها وما أفرزَ من جيلٍ متخلِّفٍ متشكِّكٍ منهار، تركَ كثيرٌ منهم دينهُ ومصدرَ قوَّتهِ العظيم، ولم يلحقْ بالمدنيةِ الحديثة، فهو يهدمُ ولا يكادُ يبني، ويعيشُ بلا مناعةٍ ولا أملٍ ولا حقوق.

كما أفرزتْ مسؤولينَ متسلِّطينَ متحكِّمينَ ديكتاتوريين، وفشلًا اقتصاديًّا، وتحلُّلًا وتفسخًا اجتماعيًّا، ومسخًا ثقافيًا، وأفكارًا عدائية، وتفنُّنًا في التسلُّطِ والفتكِ والقمعِ والتعذيبِ وترويعِ الناس.

ولولا ما أسعفَ اللهُ هذا المجتمعَ بصحوةٍ إسلاميَّةٍ مباركة، تربِّي الشبابَ وتلبِّي نداءَ اللهِ في تبصيرِ المجتمعِ بحقوقهِ ومصدرِ قوَّته، وتبيِّنُ لهُ حقيقةَ واقعهِ والمؤامراتِ التي تُحاكُ ضدَّهُ، وما يضرُّهُ وما ينفعهُ، من خلالِ بيوتِ اللهِ والكتيِّباتِ وما يسمحُ لهُ بهِ من وسائلَ إعلاميةٍ دعويةٍ قليلةٍ جدًّا، لكانَ الأمرُ أفظعَ من هذا وأنكى.

وتبقى الحركاتُ والتنظيماتُ والتجمُّعاتُ الإسلاميَّةُ المتمسِّكةُ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ أملَ الأمةِ الإسلاميَّةِ وسفينةَ النجاةِ فيها، سواءٌ كانت سياسيَّةً أو تربويةً أو ثقافيةً أو جهادية، والأصواتُ القوميَّةُ والعلمانيةُ الأخرى تدورُ في فَلَكِ سياسةِ المسؤولين، بل هؤلاءِ كانوا منهم، تمسَّحوا باسم الشعب، ثمَّ أكلوا خبزَهُ وعلفَ حيواناته، ويُفتضحونَ عندما يأكلُ الحسدُ قلوبهم ويحقدُ بعضُهم البعضَ على مناصبَ وأموال، وما خفيَ أعظم.

وعودةً إلى ما يخصُّكَ من الأمورِ الثقافيةِ والمطالعة، فقد كانتْ دراستُكَ الثانويةَ الأدبيةَ في ثانويةِ عربستانَ بمدينةِ القامشلي فرصةً

للاطِّلاعِ على مكتباتها القليلة، وكان أكبرها لا يختلفُ عن مكتبةٍ حزبيَّة، وقد عرفَ عن صاحبِها أنهُ ماسونيّ، فكنتَ تجتازُ كيلومتراتٍ لتمضيَ إلى مكتبةٍ صغيرةٍ كلَّ اسبوعينِ أو ثلاثةٍ وترى ما فيها من كتيِّباتٍ قليلة، وقعَ عينكَ منها على سلسلةِ «أبحاث في القِمَّة» لمؤلفها محمد سعيد رمضان البوطي، فقرأتَها بشغف، حيثُ كانت تلائمُ سنَّ الشباب، وتردُّ على الشبهات، فكانت أولَ نافذةٍ لكَ في سماءِ الثقافةِ الإسلاميَّة، لكنَّها لم تسدَّ تطلُّعاتِكَ كلَّها، ولم تُجبْ على أسئلتِكَ المهمَّة، حيثُ كانت الساحةُ تغلي بالسياسة، والمجتمعُ ينهارُ لأمراضٍ أنهكتهُ وأبعدتْهُ عن رسالتهِ الأساسيةِ ونظامهِ السياسيّ، فأينَ ما تقرأُ في تاريخكَ عن خلفاءِ الإسلامِ وأبطالهِ في الجهادِ وكلماتهم التي يردِّدونها في المجالسِ وساحاتِ الجهاد؟ أينَ هذا من كلماتٍ جوفاءَ وشعاراتٍ حزبيةٍ وقوميَّةٍ علمانيةٍ تضادُّ كتابَ اللهِ وسنةَ رسولهِ ﷺ؟ أينَ الدولةُ الواحدةُ من مشارقِ الأرضِ إلى مغاربها يحكمها رئيسٌ واحد، هو الخليفة، الذي يجمعُ كلمةَ المسلمينَ ويحمي أرضهم وعرضهم؟ وماذا عن هؤلاءِ الأقزامِ الذينَ فرضوا أنفسهم على الشعوبِ أو فُرِضوا عليهم؟

والأسئلةُ لا تنتهي في هذا، كما أنَّ أسئلةَ الشبابِ الواعي لم تكنْ تنتهي آنذاك، وقد قلتَ لبعضِ المثقَّفينَ المسلمينَ الكبارِ في تلكَ المدينةِ من بعد: أينَ كنتم من الشبابِ آنذاكَ وهم يهربونَ منَ الإسلامِ ولا يجدونَ أحدًا يربِّيهم ويبيِّنُ لهم الحقَّ في هذا الجوِّ المظلمِ المدلهمّ؟ أينَ أنتم وجميعُ أهلِ الباطلِ يعملونَ وأنتم لا تكادونَ تَبينون؟

وقلتَ لهم: إنني كنتُ تائهًا في هذهِ المدينة، أبحثُ عن أيِّ شيءٍ ثقافيّ، سياسيّ، اجتماعيّ، ولو كانَ فيهِ انحرافٌ لما أدركتُ كلَّ ما فيه، وقد أنحرفُ معهم لعدمِ معرفتي بالحقّ، وقد أبقى هكذا نتيجةَ غيابِكم عن الساحة. تردَّدتُ على مكتبات، مشيتُ في شوارعِ المدينةِ وأنا أقرأُ في وجوهِ أهلها، فلم أجدْ التفاتةً ذاتَ مغزىً من أحد. . . .

لقد كانت جزيرةً. . . مهملةً، منسيَّةً حقًّا، على الرغمِ من تاريخِها العريقِ المليءِ بالأحداثِ الجِسام، وبطولاتٍ لآبائهم الفاتحينَ العظام، وكانت خطَّةً مدروسةً في كثيرٍ من جوانبها. . . .

والنفسُ في هذه السنِّ مهيَّأةً للتأثُّرِ بأيَّةِ دعوةٍ ولو كانت منحرفة، مادامَ التوجيهُ الإسلاميُّ غيرَ موجود.

وقد حضرَ رجلٌ مثقَّفٌ إلى بيتكم في مناسبة، وكان غيرَ مسلم (يزيدي) وهو يتحدَّثُ عن مشروعاتٍ وتصحيحاتٍ له سياسيَّة، فأبديتَ استعدادكَ للعملِ معه! بل حضرَ ساحرٌ إلى بيتكم في مهمَّة، وصارَ يتحدَّثُ عن أعمالهِ وتجاربهِ السحريَّةِ العجيبةِ الخارقة، فطلبتَ منه أن يعلِّمكَ ذلك!! والله يلطفُ بكَ في كلِّ مرَّةٍ ويحفظُكَ من هذا وذاك ويثبتُكَ على الصراطِ المستقيم.

وفي ظلِّ هذا الجوِّ المليءِ بالأفكارِ المتصارعةِ تولَّدَ لديكَ حبُّ الاطِّلاعِ أكثر؛ لمعرفةِ أسرارِ ما يجري حولك، ولمعرفةِ ما هوَ حقّ، ولمعرفةِ الناس، والأرض، والأهواء، والأفكار، والنظريات، والتاريخ. . . القريبِ والبعيد. ولم تكنْ تنامُ إلَّا والكتابُ يسقطُ على وجهكَ أو صدرك.

ومن الكتبِ التي تأثَّرتَ بها في مطالعاتِكَ الإسلاميَّة: «قصةُ الإيمانِ بينَ العلمِ والفلسفةِ والقرآنِ» للشيخِ نديم الجسر، فقد زادَ من إيمانك، و«قذائفُ الحقِّ» للشيخِ محمد الغزالي، و«قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله» لجلال العالم (وهو اسمٌ مستعارٌ للشهيد عبد الودود يوسف)، و«شهداءُ الإسلامِ في عصرِ النبوَّة» للنشار، و«مصعب بن عمير الداعيةُ المجاهد» لبريغش، وكلُّ مؤلفاتِ العلَّامةِ أبي الأعلى المودودي رحمهُ اللهُ التي قرأتها، وكتبٌ لسيِّد قطب، و«الإنسانُ بين المادِّيَّةِ والإسلام» للأستاذِ محمد قطب، و«إحياءُ علومِ الدين» للإمامِ الغزالي، وبعضُ مؤلفاتِ مصطفى محمود الإسلاميَّة، وروياتُ نجيب الكيلاني الإسلاميَّة، وخاصةً «عمالقة الشمال»، و«عذراء جاكرتا»، و«ليالي تركستان». و«عدالةُ السماء» لمحمود شيت خطاب (قلت: وفي موضوعهِ: «ذكرياتٌ ومذكراتٌ وعبرٌ هادفةٌ» للِّواءِ جميل الميمان من الرياض، الذي قرأتَ أجزاءَهُ الثلاثةَ وأنتَ تدوِّنُ ثم تنقِّحُ هذهِ الذكرياتِ، وتنصحُ كلَّ شخصٍ بقراءتها، فلا مثيلَ لتأثيرها).

أما الكتبُ الأدبيةُ فكثيرةٌ، وقد وسَّعتَ من آفاقِ معرفتكَ بقراءةِ فنونٍ شتَّى، حتَّى في القصَّةِ والمسرحِ والشعرِ وشؤونِ الفنِّ وأهله، وخاصة لمصطفى صادق الرافعي والمنفلوطي وتوفيق الحكيم، ومن لا تريدُ ذكرَ اسمه، ودواوينَ شعراءَ مختلفين، وكتبَ فلسفةٍ وعلمِ نفسٍ واجتماع، وعلومٍ عسكريةٍ وتاريخٍ وتراجم... فقد كنتَ في مجتمعٍ متعدِّدِ الاتجاهاتِ والتخصُّصات، وقد تتلقَّى سؤالًا وتشويشًا لغرضٍ

ما من أيَّةِ جهة. وتجاوزَ اطِّلاعُكَ إلى الآدابِ العالمية، وقرأتَ لكتَّابٍ بارزينَ منهم.

وكذلك أحوالِ الدولِ واجتماعياتها، وكان أكثرُ ما يحزنُكَ منها التمييزُ العنصريُّ في أمريكا وإفريقيا الجنوبيةِ بين البيضِ والسود، حيث كان سائدًا في ذلك الوقتِ بشكلٍ فظيع، حتَّى كان يُكتَبُ على بعضِ المطاعمِ هناك: ممنوعٌ دخولُ السودِ والكلاب!! وتأثُّرُكَ بذلك لما قرأتَهُ وتربَّيتَ عليه من آدابِ الإسلامِ اجتماعيًّا ووجوبِ عدمِ التفرقةِ بينهم. ولكنكَ تطرَّفتَ في ذلك حتَّى صرتَ تحبُّ السودَ لمجرَّدِ لونهم!!

وكنتَ مُغرمًا بعلمِ النفسِ وتحليلاته، وقرأتَ في ذلك الكثير، وساعدكَ هذا على معرفةِ الناسِ وتحليلِ اتجاهاتهم. وابتُليتَ بشابٍّ في الحارةِ معقَّدٍ نفسيًّا، عرفَ ما عندكَ فارتاحَ إليكَ وصارَ يتردَّدُ إليكَ أشهرًا، وعالجتَ ما قدرتَ عليه ممّا فيه، لكنهُ لم يكنْ مسلمًا ملتزمًا، فلا يصلي ولا يطبِّقُ الآدابَ الإسلاميَّة، فغابَ عنكَ مدَّةً وقد لعبَ الشيطانُ بعقله، فمضى إلى وكرٍ من أوكارِ الرذيلةِ في المدينةِ المجاورةِ وزنى بعجوزٍ شمطاء، وعادَ ليقولَ لكَ في قلَّةِ حياءٍ وهَبَل: إنهُ ظنَّ أنَّ ما به هو من عدمِ الزواج، فزنى، ولكنهُ لم يجدْ شفاءَهُ فيه؛ فغضبتَ وتأسَّفت، وتركتَه.

وكانَ من أكثرِ اهتماماتِكَ في المطالعةِ الكتبُ العلميَّة، وخاصَّةً كتبَ العلومِ الطبيعيَّةِ التي ترتبطُ بالإيمان، مثل «الله يتجلَّى في عصرِ العلم» لنخبةٍ من العلماءِ المتخصِّصين، و«مع الله في السماء» لأحمد زكي، و«الطبُّ محرابُ الإيمان» لخالص جلبي. . . .

وتكوَّنتْ لديكَ مكتبةٌ لا بأسَ بها، فيها بعضُ أمَّهاتِ الكتب، منها كتابُ «العقدِ الفريد» لابنِ عبد ربه الأندلسيّ، وكانَ قد اشتراهُ صديقُكَ عبد الرحمن، وكنتما شريكينِ في المكتبة، أشرتَ إليهِ لأهميتهِ الأدبيةِ فاشتراه، وأخذَ معهُ الجزءَ الأولَ إلى القريةِ ليقرأَ فيه، وكانَ بطيئًا في القراءة، أكثرُ وقتهِ يعملُ في المزرعة، ولم تقرأهُ حتَّى تبدأَ بالجزءِ الأول، وكنتَ نظاميًّا و«صارمًا» في القراءة، تبدأُ من أوله، ولا تتخطَّى فقراته، فهمتها أو لم تفهمها، أعجبكَ الكتابُ أو لم يُعجبكَ، وانتظرتَ الجزءَ الأولَ طويلًا، سنواتٍ، وأنتَ تستحيي أن تطلبهُ من صديقك، ولم تقرأ الكتابَ حتَّى الآن!

وتذكرُ أنكَ في الثانويةِ كنتَ نهمَ المطالعة، وتسجِّلُ في أوراقٍ ما يعجبُكَ من كلماتٍ وأشعار، واجتمعتَ بزميلكَ «عبد الرحمن» لتؤلِّفا كتابًا، ودوَّنتما أخبارًا في دفترٍ صغير، على أن تُكملوهُ عندما تكبرون، فيكبرُ معكم الكتاب، ويأتي الحديثُ عنه.

وكانَ أكثرُ ما استأثرَ باهتمامِكَ هو كتابُ «التربية الإسلاميَّة» للصفِّ الثالثِ الثانويّ، الذي ألفهُ الأستاذُ الأصوليُّ فتحي الدريني، فكانَ فيهِ موضوعاتٌ محكمةٌ وردودٌ على الشيوعيينَ والمستشرقينَ والغزوِ الفكريّ، حتَّى استخلصتَ منهُ موضوعًا متكاملًا ـ أو أكثرَ ـ وخطبتَ بهِ في جامعِ البلدة، لعلها كانت أولَ خطبةٍ لك، ثمَّ تتالتْ خطبُكَ ودروسُكَ فيه، تُلقي على مسامعِ المصلِّينَ ما لا عهدَ لهم به من موضوعات، في ثقافةٍ عصريةٍ جديدة.

ولا تنسَى في هذا سرقةً أدبيةً كادتْ أن تودي بسمعتك، وذلكَ أنَّ زميلًا لكَ متأدِّبًا، كان يكتبُ نثرًا جيِّدًا، وقصصًا قصيرةً وخواطر، وقد نشأ يتيمًا ولاقَى في حياتهِ مآسيَ ومتاعب، فقالَ بعدَ أن أنهيتما الدراسةَ الثانوية: ما رأيكَ أن نقتطفَ موضوعًا ممَّا قرأناهُ في كتابِ «الأدب العربيّ» ونرسلَهُ إلى مجلةِ «العربيّ» ونقول إنهُ من تأليفنا؟

فأنكرتَ مثلَ هذا العمل، لكنهُ أصرَّ وألحَّ وأكَّدَ أنَّ المجلةَ لا تعلمُ مثلَ هذهِ الخفايا، وما زالَ بكَ حتَّى وافقتَ عن كُره، ولم تمضِ أسابيعُ حتَّى جاءتِ الموافقةُ على نشره، وأنتَ في كلِّ هذا تحسُّ أنهُ عملٌ غيرُ مشروع، وكنتَ تنتظرُ رفضَهُ لتنتهي الأمورُ بسلامٍ وترتاح! ولما وصلتِ الموافقةُ حزنتَ أنتَ وفرحَ هو، لكنكَ قمتَ في السرِّ بالواجب، فأرسلتَ إلى المجلَّةِ تُفيدها أن الموضوعَ ليسَ من إنشائكما، معَ تقديمِ الاعتذارِ اللازمِ في ذلك.

ولعلَّ ذلكَ الزميلَ لا يعرفُ حتَّى الآن سببَ عدمِ نشره! وقد انحرفَ من بعد، ولم يثبْ إلى رشدهِ إلَّا وقد اقتربَ من الخمسين، فندمَ وتاب، وأملهُ أن يحجّ، وأن يغفرَ اللهُ له، وكان يقول: أنتَ صحبتَ فلانًا وفلانًا فكنتَ كذا، وأنا صحبتُ فلانًا وفلانًا فطلعتُ كذا. وكنتَ تحسُّ أنه يتكلمُ بقلبٍ كسيرٍ ونفسٍ أوَّابةٍ وتوبةٍ عميقة. غفرَ الله له وتقبَّلَ توبته.

وعندما كانتْ حربُ رمضان (أو حربُ تشرين) تأثرتَ كثيرًا بالإعلامِ وصيحاتِ الحرب، وكانت المدارسُ قد أُغلقت، وأنتَ في آخرِ سنةٍ ثانوية، وكتبتَ في ذلكَ مشاعركَ من خلالِ مقالاتٍ أدبيةٍ

لعلكَ أرسلتَ بعضها إلى جريدةِ «الثورة»، منها مقالٌ بعنوان «يحيا الأدبُ في المعركة»، ولا تدري هل نُشِرَ أم لا؟ وما كنتَ تدري ما وراءَ الخبر.

وكانت مكتبتُكَ الصغيرةُ فيها مجلاتٌ قديمةٌ وكتيبات، تهتمُّ بها وتعملُ لها فهارس، وديوانُ الشعرِ الذي تحدَّثتَ عنهُ، لعلَّكَ نظمتَهُ كلَّهُ وأنتَ في المرحلةِ الثانوية.

وكان ملخَّصُ حياتكَ الثقافيةِ السابقةِ أنكَ نشأتَ أديبًا. وعندما سألكَ أحدُ زملائكِ في آخرِ يومٍ من دراستِكَ الثانويةِ: ماذا تريدُ أن تسجِّلَ إذا نجحت؟ قلتَ لهُ: أنَ لكلِّ علمٍ رجالًا وتلامذة، وأنا أريدُ أن أكونَ أديبًا من جيلِ تلامذةِ طه حسين!

ثمَّ منَّ اللهُ عليكَ وبصَّركَ بعيوبِ نفسِكَ وبعيوبِ الناس، وعرفتَ أمناءَ هذهِ الأمةِ من خونتها عن طريقِ «الموالاةِ والمعاداة» خاصَّةً، ثمَّ طلَّقتَ الشعرَ والأدبَ إلى ما هوَ أنفعُ وأجدى، وسخَّرتَ ما تعلَّمتَهُ من أدبٍ وثقافةٍ لكتاباتٍ إسلاميَّة، مما يُرضي الربَّ سبحانه، إن شاءَ وقَبِل.

وكبرتْ هوايتُكَ الكتابيةُ معَ كبرِ عمرِكَ ودراستِكَ الجامعية، وكنتَ تعجبُ كيفَ يؤلِّفُ الناسُ ويحقِّقون، وتنظرُ في الهوامشِ وعناوينِ الكتبِ وأرقامِ صفحاتها وتقولُ: كيفَ عرفوا أنَّ هذهِ المعلومةَ في هذهِ الصفحة، من هذا الجزء، من هذا الكتاب؟

وإذا كتبتَ فلنفسِكَ وللذكرى، وليسَ بنيَّةِ نشر، فكنتَ تنظرُ إلى التأليفِ على أنهُ رسالة، وأنهُ لا يحقُّ للمرءِ أن يكتبَ وهوَ لا يُتقنُ

اللغةَ العربيَّةَ الفصيحة. وعلى الرغمِ من تفوُّقِكَ اللغويِّ وأنتَ طالب، إلَّا أنهُ لم يكن كافيًا، وكانَ أصعبَ شيءٍ عليكَ «الصرف». وتذكرُ جملةً كُتبت على بابِ محلّ: «يلزمنا كذا». فما كنتَ تعرفُ كيفَ تهجِّي «يلزمنا» وأنها هكذا «لَزِمَ يَلْزَمُ»، وليسَ بحركاتٍ أخرى.

وكانت جيوبكَ دائمًا فيها كتيباتٌ وأوراقُ تقرؤها وتطَّلعُ عليها عندَ السفرِ والتنقُّل، ما تضيِّعُ من وقتِكَ شيئًا، إما قراءة، وإما كتابة، وإما دعوةٌ وعمل.

وكنتَ مغرمًا بالعجائبِ والغرائبِ منذُ ذلكَ الوقت، وتشكَّلت لديكَ قصاصاتٌ من جرائدَ ومجلاتٍ كنتَ تلخِّصها وتحتفظُ بالصورِ المرفقةِ بها وتجعلها في دفترٍ سمَّيتَهُ «دفتر العجائب»، وقد استفدتَ منهُ بعد، وحوَّلتَ نتفًا وأخبارًا منهُ إلى «الكشكول اللطيف».

وقد صارتْ خطبُكَ في جامعِ البلدةِ مألوفة، وكنتَ تعتني بها، وتُلقيها من حفظكَ غالبًا، معَ دروسٍ بالكرديَّةِ والعربيَّةِ تسبقُ الخطبة، وهذا كلُّهُ يحتاجُ إلى بحثٍ ومراجع، فكانتْ طريقًا ممهِّدةً للتأليف.

وكان لكَ دفترٌ صغيرٌ في جيبكَ لا يفارقك، تدوِّنُ فيهِ خواطر، ورؤوسَ أقلام، وكلماتٍ أدبية، وقصصًا قصيرةً، وربما أبياتًا، وإشاراتٍ إلى وقائع، ولواعجَ نفسيةً في الغربةِ عندما كنتَ تدرِّسُ في القرى، يعني أنهُ «كشكول».

وقد وصلتْ إليكَ أوراقكَ القديمة بعد أن أنهيتَ كتابةَ هذه الذكريات، فيحسنُ ذكرُ فهرسٍ مصغَّرٍ بها قبل الدخولِ في عالمِ التأليف.

منها: قصة طويلة (أقصوصة) كتبتها بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٣٩٢هـ (١٤/ ١٢/ ١٩٧٢م) الساعة السابعة مساء، عنوانها: «من أنا؟» تقع في (١٤ ص) لم يكن لديك وقتٌ لقراءتها وبيان مضمونها.

«آذار آذار»، قصة في أربعِ صفحاتٍ كبيرةٍ بخطٍّ صغير، كتبتها عام ١٣٩٣هـ (أواسط شباط ١٩٧٣م) (آخر سنواتِكَ القوميَّة). ومزَّقتها.

وقصةٌ أخرى قوميَّة بعنوان: «آزاد» كُتبت بالتاريخ السابق.

وأخرى بعنوان «روژين» [الزاي عليها ثلاثُ نقطٍ تُقرأُ جيمًا شامية] في ثماني صفحات، أبقيتها لأنها حزينة، ولو أنها كُتبت في سنِّ المراهقة (١٣٩٣هـ).

وبدأتَ بتلخيصِ «المنجد» وكتبتَ منه أوراقًا ثم تركته.

قصةٌ وطنيةٌ ثائرةٌ عن حربِ رمضان (تشرين) ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) في خمسِ صفحات.

«ذكرى مؤلمة عن الجوع»، كتبتها في الغربةِ وأنت في آخرِ السَّنةِ الثانوية (١٣٩٤هـ).

وخلفها: «كلماتٌ أليمةٌ من قلبٍ مكلوم».

«لحظةٌ واحدةٌ بين الحياةِ والموت» (قصة إسلاميَّة قصيرة).

«ذكرياتٌ» في (١٣) صفحة كتبتها عندما كنتَ معلِّمًا في قريةِ أمّ عشبة، لم تطَّلعْ عليها عند كتابةِ هذه الذكريات.

دفترٌ نسختَ فيه: «وصايا النبي ﷺ» لسيِّدنا علي بن أبي طالب

رضي الله عنه، ويليها «**رسالةُ الحقوق والواجبات**» عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م).

أربعُ دفاترَ فيها ملخصاتٌ للكتبِ التي قرأتها آنذاك، قد مُحيَ وطُمِسَ معظمها، ربَّما من الرطوبة.

دفترٌ فيه «**مختاراتٌ أدبيةٌ ودينية**».

عدة مفكراتِ جيب، فيها بعضُ الكتابات.

دفترٌ سمَّيتَه مع زميلكَ عبد الرحمن «**بستان الحِكم**»، وعلى صفحةِ العنوانِ تاريخُ يومِ الأربعاء ١٣/ ٦/ ١٩٧٣م (الذي يوافقُ ١٣/ ٥/ ١٣٩٣هـ) وكنتَ في الثاني الثانوي، وهو في الثالثِ منه. وهو «**مختاراتٌ من الحِكمِ والأقوال**».

ودفتر «**لقمان الحكيم**» ثلاثُ صفحات.

وآخرُ عليه تاريخ ٢٦/ ٧/ ١٩٧٣م.

وآخرُ فيه «**خواطرُ ونثرٌ مؤلم**»، كتبتَهُ وأنتَ في السَّنةِ الثانويةِ الأخيرة.

ومما تحتفظُ به أيضًا:

فهارسُ مجلاتٍ عديدةٍ في مكتبتك.

ودفاترُ تحضيرٍ عندما كنتَ مدرِّسًا.

مجموعةُ أسئلةِ اختباراتٍ تختبرُ بها الطلاب.

شهاداتٌ للمراحلِ الدراسيةِ الثلاث.

صورٌ لكَ وللأصدقاء منها قديمةٌ تعودُ إلى سنةِ ١٣٩٠هـ.

إخراجُ قيدٍ عليهِ صورتكَ بتاريخ ٢٨/ ٥/ ١٩٧٢م.

وأوراقٌ جامعية.

وشهادةُ معسكر ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).

صورٌ لأبرزِ زعماءِ العالم الذين عاصرتهم آنذاك.

محضرُ اجتماعٍ بتعيينكَ إمامًا ومؤذِّنًا بجامعِ زينِ العابدين بالقامشلي (١٤٠٠هـ).

رسالتان قديمتانِ من الشيخِ علوان رحمهُ الله، غيرُ مؤرَّختين (نحو عام ١٣٩٥هـ).

وأوراقٌ متناثرة، فيها خطبُ جمعةٍ ومناسباتٍ دينية، وفتاوى لعلماء، ورسائلُ أصدقاء، ورسائلكَ القديمةَ التي كنتَ ترسلها إلى صديقكَ عبد الرحمن وإلى أهلك، ورسائلُ على شكلِ مقالات، تبيِّنُ فيها نظرتكَ إلى الحياة، وموقفكَ من الناسِ والظروفِ التي كنتَ تعيشها. . . .

* * *

بداية التأليف

أنتَ تكتبُ الآن (ثم تنقِّح) وقد منَّ اللهُ عليكَ بتأليفِ وتحقيقِ أكثر من (٢٠٠) كتابٍ (١٤٣٢هـ).

وكانت البدايةُ الحقيقيةُ عندما عدتَ من اختباراتِ السَّنةِ الجامعيةِ الأخيرةِ (سنة ١٣٩٨هـ) وقد تنهَّدتَ تنهيدةً عميقةً وكأنكَ كنتَ تنتظرُ هذهِ الفرصةَ منذُ زمنٍ بعيد، لتتفرَّغَ لقراءةِ أمَّهاتِ الكتبِ الدينيةِ والأدبيةِ والتاريخية. ومددتَ يدكَ إلى «البداية والنهاية» لابنِ كثير، فالتاريخُ كلهُ عبرٌ وثقافةٌ وخبرة، ويعطي أعمارًا لعمرِ الإنسان! وهو مصدرُ عزٍّ وافتخارٍ لأمَّةِ الإسلام.

ولم تمرَّ أيامٌ حتَّى وصلتَ فيهِ إلى قصةِ الخضرِ معَ موسى عليهما السلامُ، وكانَ أسلوبُ ابنِ كثيرٍ رحمهُ اللهُ رائعًا في إيرادِ الخبرِ التاريخيّ، فهوَ يجمعُ لهُ النصوصُ ويبيِّنُ الصحيحَ من السقيم، حتَّى لا يدَعَ سؤالًا لسائلٍ، فهوَ محدِّثٌ ومؤرِّخ، وهوَ أفضلُ ما يجتمعُ في الباحث، ثمَّ تناولَ في تفصيلٍ وترتيبٍ اسمَهُ وكنيتَهُ وعلمه، وخبرَهُ معَ موسى عليهِ السلام، وعبرًا من قصَّته... وفي نهايةِ قصَّتهِ برقَ في ذهنكَ خاطر، فقمتَ مستفزًّا وأنتَ تحتضنُ الكتاب، ومررتَ بأحدِ أفرادِ أسرتِكَ وقلتَ له: سأبدأ بتأليفِ كتابٍ عن الخضرِ عليهِ السلام!

وبدأتَ تخطِّطُ بالقلمِ الرصاص، وتحدِّدُ الفصولَ والأبوابَ على ما استفدتهُ من دراستِكَ الجامعية، وبحثتَ في مراجعَ أخرى وخاصَّةً التفاسير. ثمَّ كنتَ إمامًا في جامعِ «زينِ العابدين» بالقامشلي، وكانَ هناكَ علماءُ ومكتباتٌ خاصَّة، فاستفدتَ منها كثيرًا، وخاصةً مكتبةَ الملَّا إبراهيم الزفنكي، الذي كتبَ تقريظًا للكتابِ وصدرَ في طبعتهِ الأولى، وكذلكَ مقدِّمةٌ علميةٌ للشيخِ عدنان حقي، وقد راجعَ الكتابَ مرّاتٍ ونبَّهكَ إلى ما فيهِ من خللٍ في التركيبِ واللغة خاصَّة.

ثمَّ شيخُكَ علوان رحمهُ اللهُ الذي شجَّعكَ كثيرًا وقرأَ الكتابَ وكتبَ لهُ مقدمة، وقد كتبتَ الإهداءَ لهُ ولكنهُ لم يصدرْ في المطبوع.

وكانتْ رحلةً شاقَّةً وعملًا شبهَ مستمرٍّ لمدةِ ثلاثِ سنوات، ولم تكنْ هناكَ فهارسُ علميةٌ للكتبِ والمراجع، فكنتَ تتصفَّحُ مجلداتٍ بحثًا عن اسمٍ أو موضوع، وقرأتَ «إحياء علوم الدين» كلَّهُ، ولم تدع فيهِ شيئًا عن الخضرِ وما يتعلَّقُ بموضوعهِ إلَّا ونقلتَ منهُ. وتبيَّن من بعدُ أنهُ موضوعٌ معقَّدٌ جدًّا، والاختلافُ فيهِ مازالَ قائمًا منذُ القرونِ الأولى في الإسلامِ وحتى الآن. فكانَ أوسعَ ما كُتبَ فيهِ بحمدِ الله، حتَّى صدورِ الطبعةِ الثالثةِ منه، بعدَ تنقيحهِ وتهذيبهِ والزيادةِ فيه. وعُرفتَ بذلكَ الكتابِ أولًا، حيثُ لم يكنْ في الساحةِ غيرهُ آنذاك.

واستفدتَ من كتبٍ تاريخيةٍ كانتْ موجودةً في «المركز الثقافي» المهملِ بالمدينة، وكان قريبًا من المسجد، ولما دخلتَهُ تبيَّنَ أن

حارسَهُ يعرفك، وكان شيوعيًّا من قريةٍ مجاورة، ثم صارَ يتردَّدُ إلى المسجد، لئلا يُقالَ إن الشيوعيينَ لا يصلون! وكان هذا حال غيره... بل كان هناك أكثرُ من «ملَّا» صارَ شيوعيًّا، واشتهرَ أحدهم بـ «ملَّا شيطان»! تعريضًا بأن أمرَ الشيوعيِّ لم يعدْ خافيًا ولو لبسَ لباسَ العلماء!

وقد أتعبكَ الشيخُ عدنان حفظَهُ الله في هذا الكتابِ كثيرًا، وما كنتَ تريدُ الاعتراضَ عليه، وكنتَ تظنُّ أن كلَّ ما يطلبهُ منكَ يتعلقُ بشؤونِ النشر، وأنه ينبغي أن يُقدَّمَ للطبعِ كما يطلبه.

وقد كتبتَ هذا الكتابَ نحوَ ستِّ مرات، والذي تذكرُ أن الشيخَ راجعهُ ثلاثَ مرات، وهذا من دقَّتهِ وحرصهِ على أن يصدرَ الكتابُ بصورةٍ جيِّدةٍ ولغةٍ سليمة، فجزاهُ الله خيرَ الجزاء. وكان تركيزهُ يتعلَّقُ بالتصحيحِ وبتراكيبِ الجملِ والإنشاءِ الأفضل، حيث يبدِّلُ جملةً بأخرى وإن كانتْ سليمةً أو ذاتَ وجهٍ جائز، ومما تذكرهُ في هذا أنه عدَّل جملةً في مراجعتهِ الثانيةِ وجعلها مثلما كانت في المراجعةِ الأولى، فأخبرتهُ بذلك، فقال: ذلك بما قضينا، وهذا بما نقضي!

وكانَ كلَّما راجعَ الكتابَ طلبَ منكَ إعادةَ كتابتهِ من جديد، مع أن الملاحظاتِ لم تكنْ بالكثيرة، وعندما انتهتِ الملاحظاتُ طلبَ منكَ كتابتَهُ على أوراقٍ بيضاءَ مفردة، وكنتَ تكتبها في دفترين أو ثلاثةِ دفاترَ كبيرة.

وكلَّما تذكَّرتَ تكرارَ كتابةِ كتابِكَ هذه المرَّاتِ أشفقتَ على نفسك. ولعلَّ ما بيَّضتهُ من كتبٍ من مسوَّداتها ـ لمرَّةٍ واحدة ـ بعد ذلك، لا تتجاوزُ الستَّةَ كتب، وسائرها كتبتَها مرَّةً واحدة، هي المسوَّدةُ والمبيَّضةُ معًا.

ولم يكنْ عندكَ علمٌ بشؤونِ النشرِ آنذاك، ولا تعرفُ أساليبَ طبعِ الكتبِ ونشرِها، وكيفَ يُقبلُ الكتابَ أو يرفض، وبأيِّ صورةٍ يقدَّمُ للناشر، فكانَ الشيخُ عدنان حفظَهُ اللهُ هوَ الذي يقولُ إنهُ سيرسلهُ، وأنهُ يعرفُ واحدًا في دمشقَ يتولَّى ذلك. وكانَ مديرَ دارِ المصحفِ ببيروت (الأستاذ بسّام الجابي)، ووافقَ على نشره، وعندما رآكَ في دمشقَ أو الرياضِ مرةً قالَ إنهُ نظرَ أولًا في المراجعِ التي اعتمدتَ عليها فرآها أمَّهاتِ الكتب، فعلمَ قدرتكَ ومهارتكَ في التأليف، وأنكَ راجعتَ فيهِ أهمَّ ما يتعلَّقُ بمظانِّ الموضوع، وعندما استشرتَهُ في دفعهِ إلى أستاذٍ جامعي لكتابَةِ مقدِّمةٍ له، نصحكَ بألَّا تفعلَ، وأنَّه محكم، قوَّتهُ فيهِ، ولا يحتاجُ إلى تقديمٍ وتنويه.

وعندما راجعتَ الأستاذَ عادل عسّاف «صاحبَ دارِ البشائرِ» بدمشق، وكانَ يومها يعملُ لحسابِ مؤسَّسةِ الرسالة، وكذا دارِ المصحفِ، عرفَ أنكَ في طريقِ السفرِ إلى الرياض، فأعطاكَ حقوقكَ منهما كاملة، لكنَّ نشرَهما تأخَّر، ثلاثَ أو أربعَ سنوات، وكنتَ تلحُّ في سرعةِ طبعهِ من الأستاذ «خلدون الدوجي» الذي كان مندوبَ مؤسَّسةِ الرسالةِ في الرياض، ثم كان مديرَ «مكتبةِ التوبة».

فكانتْ بدايةُ التأليفِ سنة ١٣٩٨هـ، وإنهاءُ الكتابِ الأولِ سنة ١٤٠١هـ، وصدورهُ سنة ١٤٠٤هـ، وما زلتَ تحتفظُ بأولى كتاباتكَ عن الخضرِ عليه السلام، التي جاءتْ وقتها في (٣٤ص)! ومسوَّداتٍ أخرى له، ولكتاب (لقمان الحكيم).

وعندما طُبعَ كتابُ الخضر ـ وكنتَ في الرياض ـ فرحَ به الأستاذُ الأديبُ عبد العزيز الرفاعي كثيرًا وقرأهُ كلَّه، ووضعَ عليه ملاحظاتٍ مازالتْ على نسختهِ في مكتبته، ونبَّهكَ إليها، وكانَ مما قالَ معترضًا على مقدِّمةِ الشيخ عدنان: ما الذي تركَهُ لك؟ هو يقولُ في مقدِّمةِ الكتاب: «وحسبي أنني توخَّيتُ التحقيقَ العلميَّ في كلِّ أبحاثِ الكتابِ بعيدًا عن الارتجالِ والتهويل». فهل أنتَ المؤلِّفُ أم هو؟

وقد سُرقَ جهدُكَ في هذا الكتابِ بشكلٍ واضح، حيث أصدرَ «خضر العبيدي» كتاب «كشف البيان عن حال الخضر أبي العباس عليه السلام» وإن أكثرَ من (٩٠٪) من مادتهِ نقلٌ حرفيٌّ من كتابك، حتَّى مصادره! وقد أشهرتَ به في جريدةِ «الشرق الأوسط» في حينه، لكنه نُشِرَ مختصرًا، فأرسلتَ تفصيلَهُ إلى الناشرِ ليضعَهُ في مقدِّمةِ الطبعةِ الرابعةِ منه، ولا يُظَنُّ أنه سيفعل، حيث سبقَ إرسالُ تصحيحاتٍ على الطبعةِ الثانيةِ منه فأهملها، فصدرتِ الطبعةُ الثالثةُ بأخطائها السابقة.

ومن المؤسفِ ذكرهُ تُجاهَ هذا العملِ أن يكونَ الأستاذُ «خضر العبيدي» حاصلًا على الماجستير في موضوع «التربية الإسلاميَّة في سورة الحجرات». ومما عدَّدَ لنفسهِ من مناصب، أنه مشرفٌ عامٌّ على

مهامِّ أداءِ الدعوةِ والدعاةِ في لبنان!! عفا الله عنا وعنه. لقد كان الأولى به أن يعرفَ أن ما قامَ به ليس من الأمانةِ في شيء. وزادَ على ذلك بأن قال: إنه لم يفعلْ ذلك! وهو نفسهُ صاحب «دار العبيدي للتراث». وقد توفي سنة ١٤٣٢هـ.

وثنَّيتَهُ بكتابِ «لقمان الحكيم وحِكَمه» وأنهيتهُ في عدَّةِ شهور، وراجعَهُ لكَ الشيخُ خاشع حقي، وأهديتَهُ إلى صديقِكَ عبد الرحمن، وأُرسِلَ هوَ الآخرُ إلى دمشق.

وقد حملَ الكتابان «سلسلة أعلام قرآنية» لكن كُتبَ على كتابِ «لقمان» الرقم (١)، والحق أن يكونَ لكتاب «الخضر».

وكتبتَ فصولًا من كتابِ «ذو القرنين: القائد الفاتح والحاكم الصالح» في القامشلي، ثمَّ قُبلتَ في منحةٍ دراسيةٍ بالرياض، فصحبتَهُ معكَ إلى هناك. والتركيبةُ الأخيرةُ للعنوانِ الشارحِ للكتابِ من قبلِ الناشرِ الأستاذِ محمد سليم دولة، الذي عُرِفَ باسمِ محمد علي دولة.

وكلُّ ما صدرَ لكَ من بعدُ ألَّفتهُ في بلادِ الحرمين.

وقدَّر الله أن تكونَ أول مخطوطةٍ حقَّقتها أيضًا في الخضرِ عليه السلام، وهو كتابُ «الحذر في أمر الخضر» للملَّا علي القاري رحمه الله، الذي أنهيته في شهر صفر من عام ١٤١٠هـ، وصدر في السَّنة التالية. وهو الكتابُ الوحيدُ الذي مُنِعَ في السعوديَّةِ من بينِ كتبِكَ كلِّها؛ لأن مؤلِّفَ الكتابِ يرى أن الخَضِرَ حيّ، على الرغم من أنكَ رددتَ عليه في الهوامشِ والتعليقاتِ وفنَّدتَ أدلَّتَهُ في ذلك. ولم تعدِ الرقابةُ على المطبوعاتِ مثلَ قبل، فلعله فُسِحَ من بعد.

وكنتَ تعرفُ أنَّ الكتبَ القديمةَ تُحقَّقُ من مخطوطات، ولكنْ لا تعرفُ كيفيةَ الحصولِ عليها وتحقيقها، وقد أقلَّتكَ رجلاكَ مرةً إلى دارِ الظاهريةِ وأنتَ طالبٌ جامعيّ، وسألتَ عن قسمِ المخطوطات، فأردتَ التعرُّفَ عليه، وماذا يمكنُ أن يحقَّقَ وكيف، ورأيتَ المسؤولَ هناكَ معَ سيِّدةٍ بجانبه، فقلتَ لهُ إنكَ تريدُ رؤيةَ المخطوطات، وقد أجابكَ بصوتٍ خافتٍ لم تسمعهُ من شدَّةِ الحياء، فابتسمتَ وخرجت!!

ولم تتلقَّ تعليمًا أو تدريبًا في أسلوبِ البحثِ والتأليفِ وكيفيةِ التحقيقِ من أحد، بل لم تقعْ عينُكَ على مؤلِّفٍ حتَّى دخلتَ الجامعة! فما آتاكَ اللهُ هو من محضِ فضلهِ عليك، فله الحمدُ ولهُ الشكرُ حتَّى يرضَى.

❊ ❊ ❊

العلماء

ولم تلتقِ بعلماءَ في المدنِ إلَّا عَرَضًا، مثلَ بعضِ أساتذةِ الجامعةِ في محاضراتٍ لهم، ومشايخَ في خطبٍ لهم بمساجدَ في دمشق، وعلماءَ في زياراتٍ خاطفة، وقد حضرتَ عدَّةَ دروسٍ في التجويدِ عند الشيخ هاشم المجذوب في جامعِ سنجقدار وقرأتَ عليه، واستفدتَ منهُ، وقد سُجنَ أكثر من عشرينَ عامًا، وخرجَ من السجنِ وقد ساءتْ صحَّتهُ كثيرًا؛ لفتوىً أفتى بها ضدَّ حافظ الأسد.

كما حضرتَ دروسًا في العقيدةِ وغيرها للدكتور البوطي في جامعِ سنجقدار أيضًا، وكان قد أوتيَ شهرةً وقبولًا، قبل أن يُبتلى.

وكان حبُّك للعلماءِ ومجالسِهم شيئًا لا يوصف، كما دوَّنتَهُ في مقدمةِ كتابكَ «درر الأقوالِ من أفواهِ الرجال»، لكنكَ كنتَ بعيدًا عن المدن، تبعدُ عن دمشق نحو (٨٠٠ كم)، وحضورُكَ إليها كانَ لتأديةِ الاختباراتِ وحضورِ المعسكراتِ لا غير، ثمَّ غادرتَ موطنكَ وأنتَ ما تزالُ شابًّا (٢٥ سنة)، كما أن بدايةَ نشأتِكَ العلميةِ واكبَت أحداثَ حماةَ الخطيرة، فما كانَ بالإمكانِ أن تطلبَ العلمَ وتتابعَ العلماء آنذاك، وهكذا نشأتَ نبتةً فذَّةً في صحراء، وخرجتَ من جزيرةٍ مهملةٍ ومنسيَّةٍ كأنها في عالمِ الأشباح.

مشكلات... قبل الرحيل

وقُبيلَ سفرِكَ إلى الرياضِ شعرتَ بثقلٍ في السمع، ثم تبيَّنَ أنه صمم، فعالجتَه مدّةً هناك.

وكان شيخُكَ علوان يقول: إن العالِمَ الذي يذهبُ إلى هناك يكونُ كأنهُ دخلَ الثلَّاجة! وصدقَ الشيخ، فكان ذلك من أسبابِ عزلتِكَ هناك، واستبدلتَ به التفرُّغَ للكتابةِ والبحث، حتَّى لا تضيعَ أيامُكَ هباء.

وكانَ آخرُ عهدِكَ ببلدكَ أواخرَ سنةِ ١٤٠٢هـ، حيثُ عدتَ من الرياضِ في إجازةِ الصيف، وكنتَ تدرسُ بها الماجستير، وكانت أحداثُ حماةَ في أوجها، فلم يتعرَّضُ لكَ أحد، رغمَ كثرةِ نقاطِ التفتيش.

وكنتَ في هذهِ المرَّةِ مطمئنًّا من سيرِ أمورِكَ ونظاميَّةِ أوراقك، حيثُ إنكَ تخلَّصتَ من عقدةِ «الأجنبي» وصارتِ الهويَّةُ السوريَّةُ في جيبك. لكنكَ عندما أردتَ العودةَ لم يسمحوا لكَ بالخروج، وعلَّلوا السببَ بصدورِ قرارٍ يمنعُ كلَّ من يحملُ إجازةً في الشريعةِ من السفرِ إلى خارجِ القطر، والسببُ هوَ أنَّهُ لم يبقَ من مدرِّسي التربيةِ الإسلاميَّةِ

إلَّا فئةٌ قليلةٌ جدًّا، فكانوا بينَ قتيلٍ وسجينٍ وهارب! وصارَ من مدرِّسي هذهِ المادةِ أساتذةُ الرسمِ والموسيقى!

وتركتَ الجزيرةَ إلى دمشقَ حيثُ الأمورُ أسهلُ هناك، فتيسَّرَ الأمرُ أولًا عندما ختمَ موظفٌ على الجوازِ بالسماحِ بالسفر، وأعطاهُ لزميلهِ للتوقيعِ عليه، فلما نظرَ إلى المهنةِ وأنها إجازةٌ في الشريعةِ تناول «ختمَ الخطأِ» وختمَ بهِ على ختمِ السماحِ بالسفر، فزادَ الطينَ بلَّةً، وأعطاكَ الجوازَ وقال: لا يُسمحُ لكَ بالسفر! ولم يفدْ قولُكَ لهُ إنكَ تدرسُ الماجستير، وأنكَ ذاهبٌ إلى الرياضِ لتكملةِ منحتِكَ الدراسيَّة... وهذهِ هيَ الأوراق....

وعدتَ خائبًا إلى بلدتِكَ القحطانية، تحوقلُ وتسترجع، وتذكرتَ أن التيسيرَ والتدبيرَ من الله سبحانه، وليس كلٌّ من عنده هويَّةٌ يعني أن أمورَهُ ميسَّرة.

وقدَّرَ الله أن تكونَ هذهِ المشكلةُ في موسمِ الحجّ، وكانَ الناسُ قد أنهوا أوراقهم وتجهَّزوا للسفر، فألهمكَ الله أن تحاولَ الذهابَ إلى السعوديَّةِ بنيَّة الحجّ، وإقامتُكَ ساريةٌ هناك، فكانَ أن يسَّرَ اللهُ لكَ ذلكَ بفضله، ثم بجهودِ صاحبٍ لكم يعملُ في مكتبٍ خاصٍّ بمثلِ هذهِ الأمور... فودَّعتَ الأهل، وكانَ آخرَ لقائكَ بأصحابٍ لكَ وأحبَّة، تركتهم بجسدِكَ وأودعتَ عندهم قلبك... ولم تعدْ، فقد تُمنَعُ من السفرِ مرَّةً أخرى لأيِّ سببٍ كان، أو تكونُ في خبرها.. بكلِّ احتقارٍ ولا مبالاة!!

ثم إن الأسرةَ كلها تركتِ البلدةَ، وسكنوا في حرستا بدمشق، منذ سنةِ ١٤١٢هـ تقريبًا.

كانت تلك نفثاتِ شيخٍ صامتٍ حزين، مما تذكَّرَهُ حتَّى الخامسةِ والعشرينَ من عمره، يعني أيامَ شبابه، ولا تكتملُ الصفاتُ البارزةُ في الإنسانِ ولا يستقرُّ منهجهُ حتَّى يبلغَ الأربعينَ فما بعد، وهو ما كان في المرحلةِ الثانية.

❊ ❊ ❊

المرحلةُ الثانية

المرحلةُ الثانيةُ بدأتْ عندما وضعتَ رحالكَ في بلادِ الحرمين، حيثُ حصلتَ على منحةٍ دراسيةٍ لتكملةِ دراساتِكَ العليا في جامعةِ الإمامِ هناك، وذلكَ في ١٤ محرم من سنةِ ١٤٠٢هـ.

وقد رأيتَ بلدًا مختلفًا عن بلدكَ اختلافًا كبيرًا، فالكلمةُ الأولى في بلدِكَ للحزبِ والمخابرات، والأمرُ هنا ليسَ كذلك، والجوُّ هناكَ «مكهرب»، فلا يعرفُ المرءُ ماذا ينتظرهُ وماذا سيكونُ مآلهُ وهو يعيشُ تحتَ رحمةِ الأحكامِ العرفية، وهنا الأمنُ والهدوءُ متوفِّران، وقد مضى عليكَ أكثرُ من ثلاثينَ عامًا في الرياضِ ولم يسألْكَ أحدٌ عن مذهبكَ واتجاهك، فكان الجوُّ الجديدُ مساعدًا لكَ على البحثِ والتأليفِ والتحقيق، وهو ما كانَ بحمدِ الله.

وقد أمضيتَ في الرياضِ من العمرِ أكثرَ مما أمضيتهُ في سورية، وكانتْ إقامتُكَ بها ذاتَ أطرافٍ وشجون. . . .

الدراسة، وحصولُكَ فيها على العالِمية، دونَ العالِميةِ العالية، وعدمُ استفادتِكَ وإفادتِكَ من تخصُّصِكَ النادر (إذاعة وتلفزيون) لاقتصارِ هذه الوظيفةِ وكذا الدراسةِ على أهلِ البلد.

العملُ وظروفهُ ومجالاته، وخاصةً في مكتبةِ الملكِ فهد الوطنية، التي عملتَ بها مذ كانتْ مشروعًا (١٤٠٩هـ)، وأسلوبُ التعاملِ الشخصيِّ فيها، ومشكلاتها، وأسرارها.

الأعلامُ والشخصيَّاتُ الذينَ التقيتَ بهم.

الجوُّ الثقافيُّ ومدى حريةِ الرأي واختلافاتُ الرؤى والمذاهبُ الفكريةُ والإسلاميَّةِ هناك، وأولوياتُ القيمةِ فيها: العلم، أم المال، أم القبيلة؟

التفرُّغُ للبحثِ والتأليف، وتطوُّرُ الكتابةِ والمنهج، والموضوعاتُ المطروقةُ ومشكلاتُ التأليفِ والنشر، والحديثُ عن بعضِ الكتبِ وموضوعاتها وملابساتها، والاهتمامُ الخاصُّ بالتراجم.

العزلةُ والانزواء: أسبابه ونتائجه.

عقدةُ «الأجنبي» التي لازمتكَ، حيثُ كنتَ «أجنبيًّا» في بلدكَ مدَّةَ (٢٥) عامًا، وقيلَ لكَ هذا أيضًا حيثُ أقمت. وتدعو الله تعالى أن يجعلكَ من مواطني جنَّته.

هذا وغيرهُ مما يمكنُ الحديثُ فيه، في جولةٍ ثانيةٍ من هذه الذكريات، وهو ما لم تعزمْ عليه.

والحمدُ لله وحده.

* * *

مُلحَق

* صُوَرٌ ووثائق.
* سِيرةٌ عِلمية.
* المؤلفات والتحقيقات.

صور ووثائق

أقدم صورة لدي، طالب في المرحلة الإعدادية، نحو سنة ١٣٨٩هـ، مع ابن خالتي محمد محمود

في الثانوية سنة ١٣٩١هـ

في الجامعة، في سنة الزواج ١٣٩٥هـ

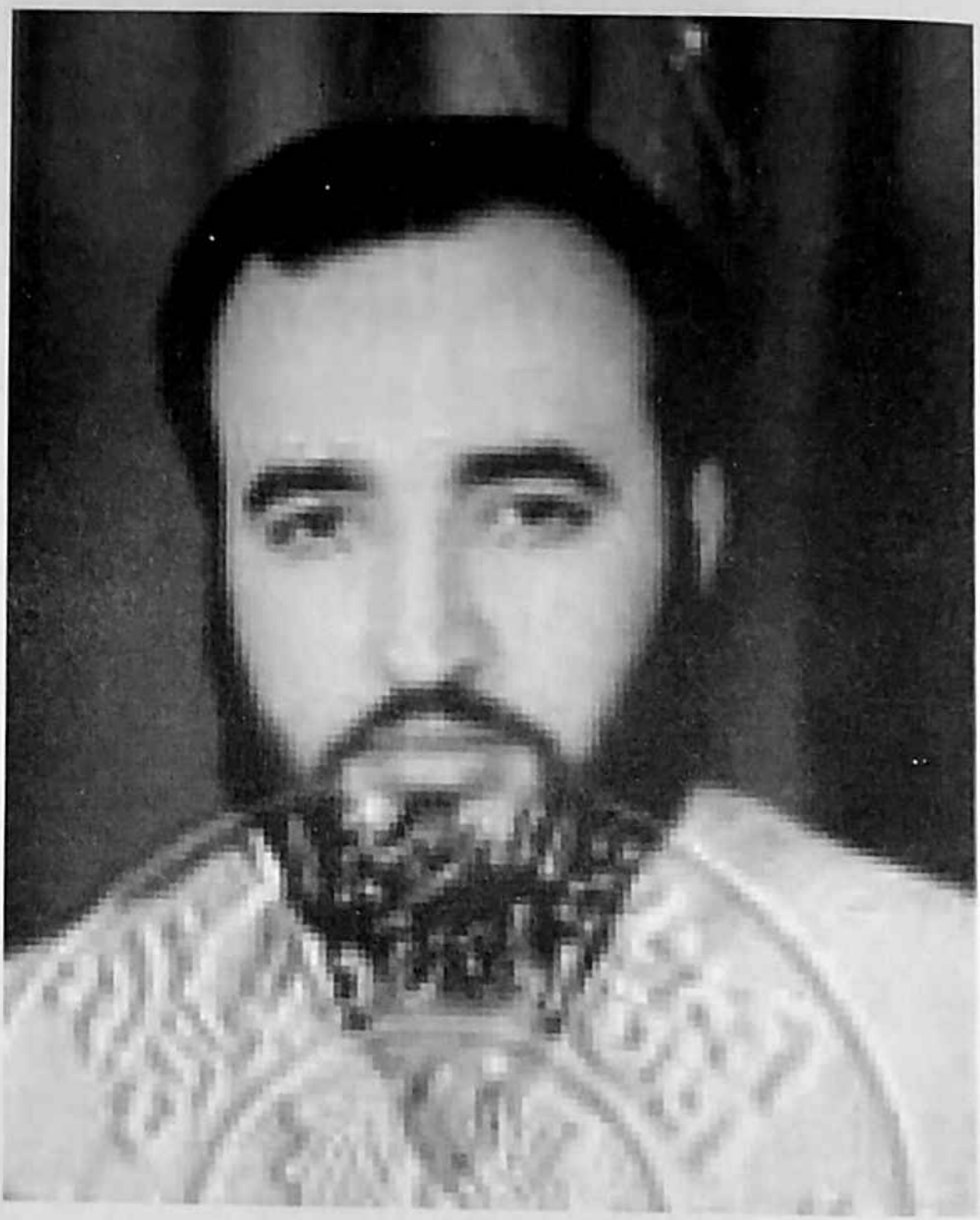

آخر صورة لي في سورية، سنة١٤٠٢هـ

شيخي علوان حقي، رحمه الله

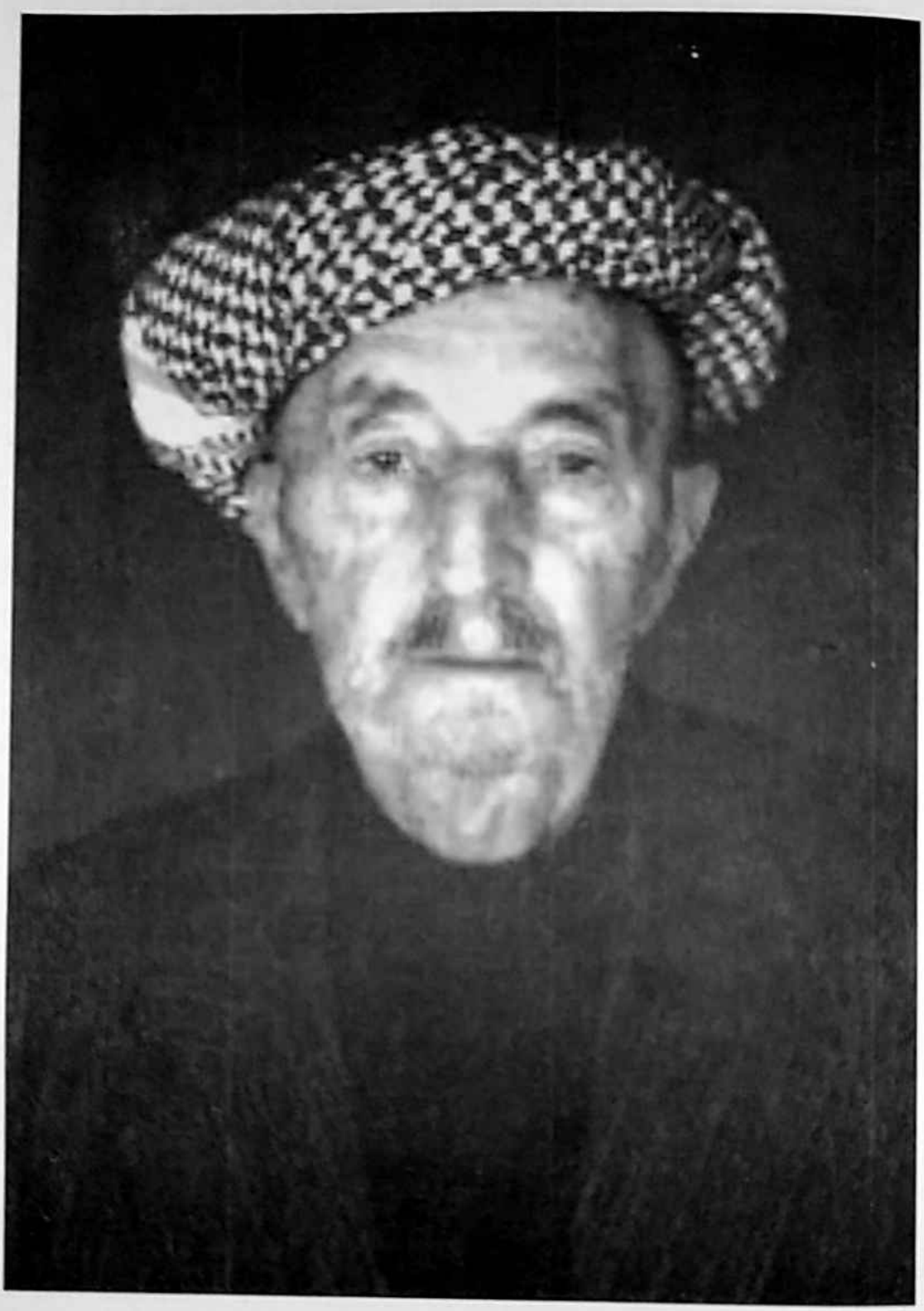

الوالد رمضان يوسف رحمه الله، أواخر عام ١٤٢٣هـ

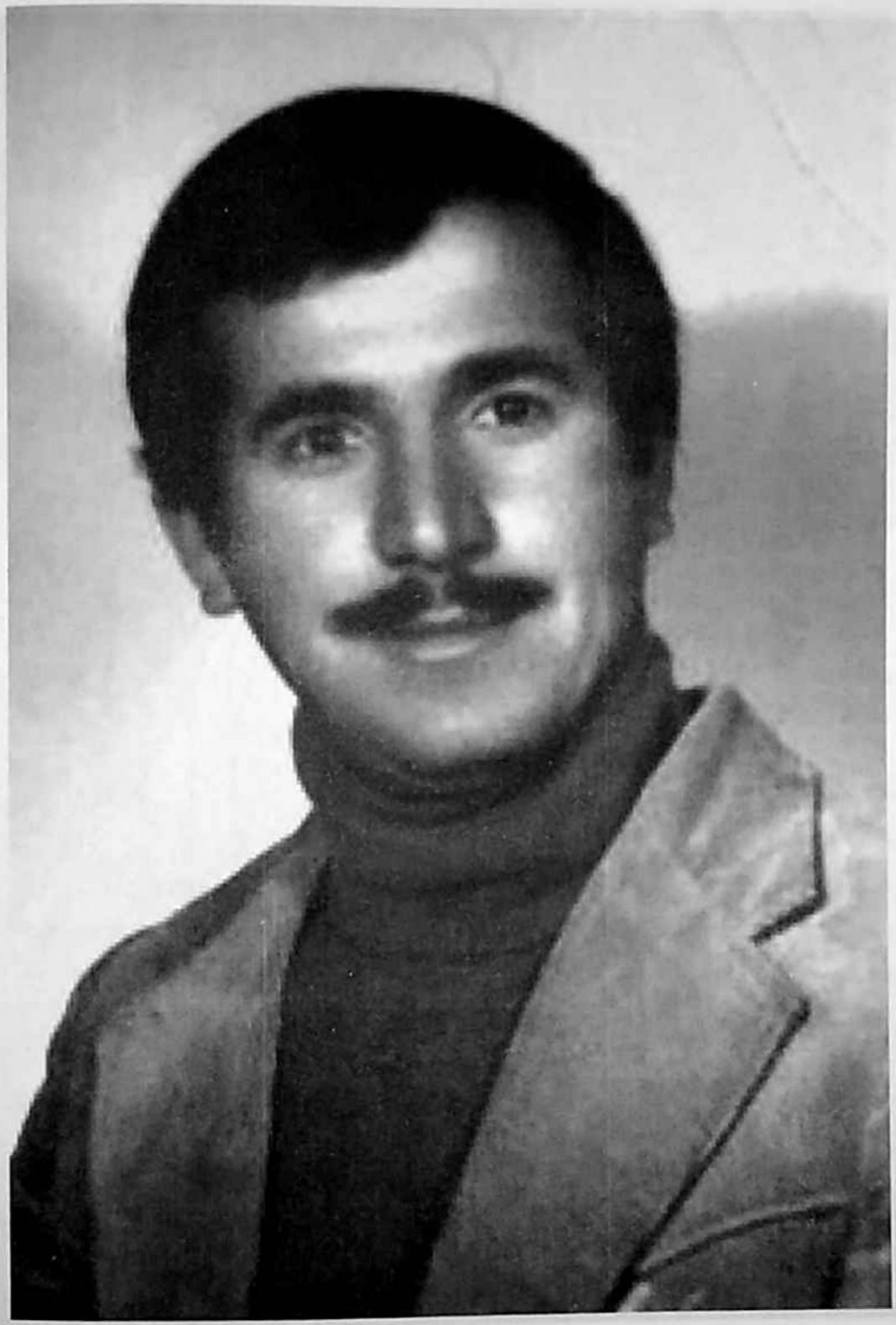

صديق العمر عبد الرحمن أحمد، سنة ١٤٠٠هـ

أقدم وثيقة لدي، شهادة التقدير الوحيدة التي حصَّلتها
وأنا في السَّنة الرابعة الابتدائية، سنة ١٣٨٦هـ

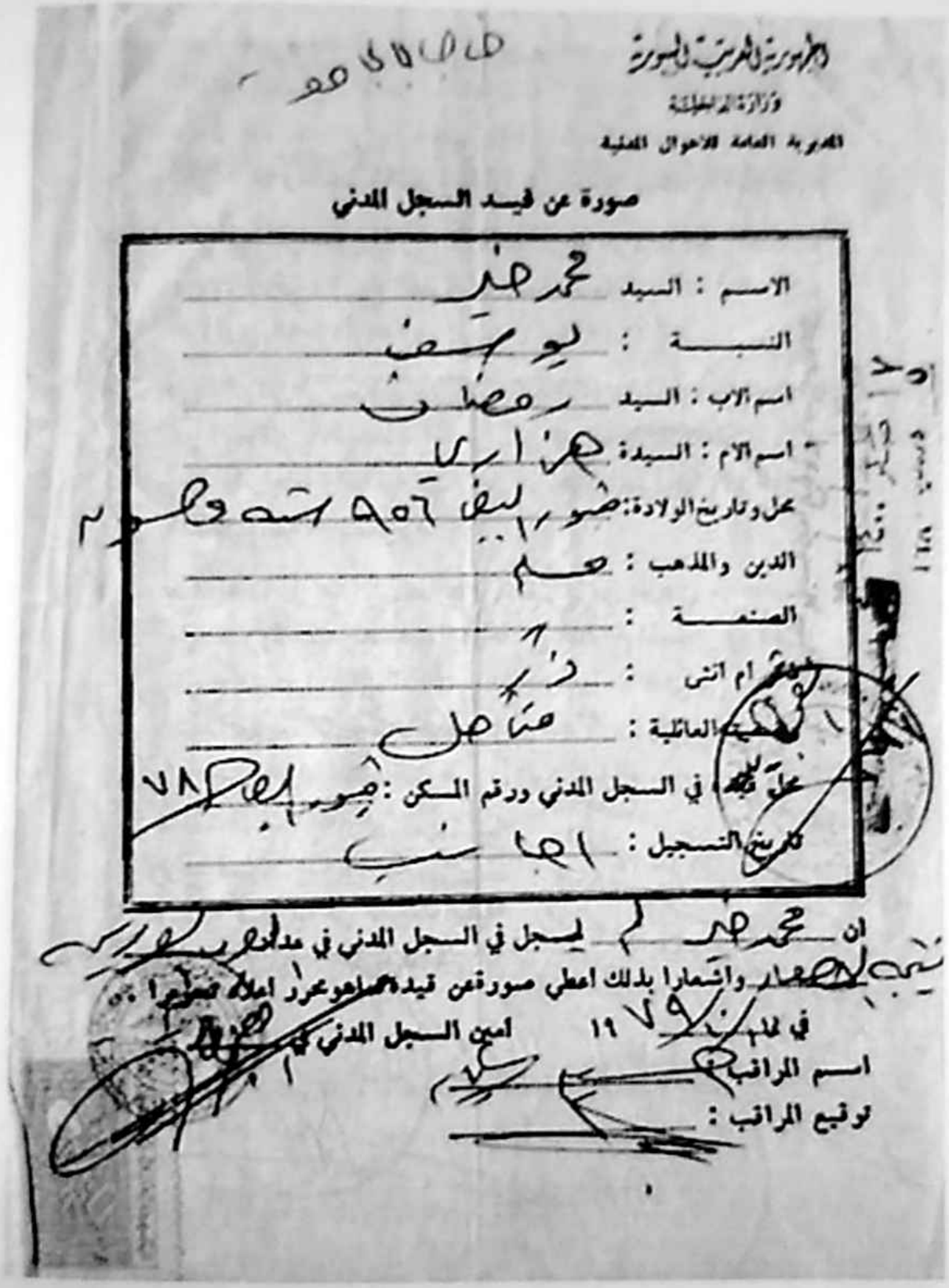

الجمهورية العربية السورية
وزارة الداخلية
المديرية العامة للأحوال المدنية

صورة عن قيد السجل المدني

الاسم : السيد محمد خير
النسبة : يوسف
اسم الأب : السيد رمضان
اسم الأم : السيدة هنادي
محل وتاريخ الولادة: صور ليف ١٩٥٦
الدين والمذهب : عربي
الصنعة :
ذكر أم أنثى : ذكر
الحالة العائلية : متأهل
محل القيد في السجل المدني ورقم السكن : صور ليف ٧٨
تاريخ التسجيل : ١٩٨١

ان محمد خير لم يسجل في السجل المدني في عداد العرب السوريين نتيجة الإحصاء واشعارا بذلك اعطي صورة عن قيده هذا وحرر امامه صورة

في ١٩٧٩ ١٩
امين السجل المدني

اسم المراتب :
توقيع المراتب :

«إخراج قيد» كان هو الإثبات بدل الهوية، وفيه:
«لم يسجل في السجل المدني في عداد العرب السوريين نتيجة الإحصاء»، ويقال لمثل هذا شعبيًّا: «أجنبي»

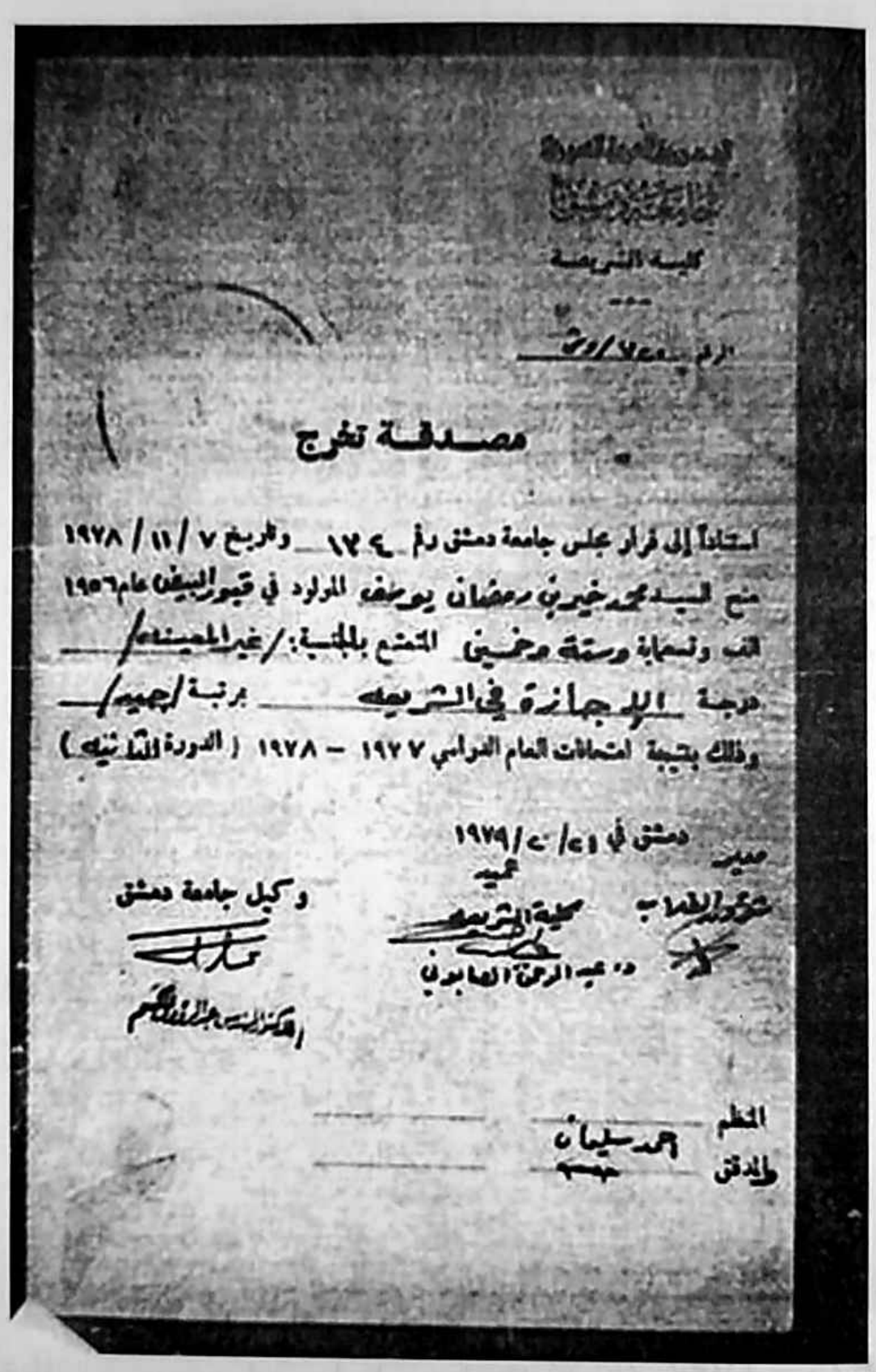

الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الشريعة

الرقم: ٤٧٤ / ق

مصدقة تخرج

استناداً إلى قرار مجلس جامعة دمشق رقم ٤٧٤ وتاريخ ٧ / ١١ / ١٩٧٨
منح السيد محمد خير بن رمضان يوسف المولود في قبور البيضا عام ١٩٥٦
الف وتسعمائة وستة وخمسين المتمتع بالجنسية: / غير المعينة /
درجة الإجازة في الشريعة برتبة / جيد /
وذلك بنتيجة امتحانات العام الدراسي ١٩٧٧ - ١٩٧٨ (الدورة الثانية)

دمشق في ٤ / ٤ / ١٩٧٩

عميد كلية الشريعة
د. عبد الرحمن الصابوني

وكيل جامعة دمشق

المنظم أحمد سليمان

المدقق

مصدقة التخرج من جامعة دمشق،
لاحظ الجنسية «غير المعيّنة»

الهوية السورية؛ حصلت عليها بعد انتظار (٢٥) عامًا، بعد تخرُّجي
من الجامعة. وفيها يظهر خطأ من أمين السجل
بأنها تنتهي في اليوم نفسه!

السيرة العلمية
(مُحَمَّد خَير رمَضان يُوسُف)

* الاسم الرُّباعي: محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف.
* وُلدت في قرية «كري بري» وتعني «تل الجسر» التابعة لناحية تربَ سبي (قبور البيض) القحطانية حاليًّا، من منطقة القامشلي ـ محافظة الحسكة ـ سورية، عام ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م، وفي السَّنة الخامسة من عمري انتقلنا إلى الناحية المذكورة، وعشت فيها نحو ربع قرن من حياتي الأولى.
* حصلتُ على الشهادة الابتدائية من مدرسة خالد بن الوليد الريفية بالقحطانية عام ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
* ثم على الشهادة الإعدادية من إعدادية فايز منصور بالقحطانية عام ١٣٩١هـ= ١٩٧١م، ودرست في ثانويتها حتَّى الثاني الثانوي العلمي.
* ثم على الشهادة الثانوية الأدبية من ثانوية عربستان بالقامشلي عام ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.
* ثم على شهادة الإجازة (ليسانس) من كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م بدرجة جيد، وكنت من العشر الأوائل فيها.
* ثم على شهادة الماجستير في الإعلام من كلية الدعوة والإعلام بالرياض (تخصص إذاعة وتلفزيون) ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، عام ١٤٠٥هـ، بدرجة جيد جدًّا.

* قمت بالتدريس نحو سبع سنوات، في فترات متقطعة، للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في محافظة الحسكة والعاصمة دمشق بين ١٣٩٤ ـ ١٤٠١هـ (١٩٧٤ ـ ١٩٨١م).
* عملت إمامًا، ثم إمامًا وخطيبًا في جامع زين العابدين، بمدينة القامشلي مدة عام ونصف العام، بين ١٤٠٠ ـ ١٤٠١هـ، وصاحبت أثناءها علماء، وحضرت مجالس عِلم، واستفدت من شيخي علوان حقي ـ رحمه الله تعالى ـ خاصة، قبل هذه المدَّة وبعدَها، وأُجزتَ منه إجازةً عامة. وقرأت «مغني المحتاج» في الفقه الشافعي على الملا صالح الحرباوي (متنَ المنهاج فيه)، وقمت بأعمال دعويَّة في بلدتي، وألقيت دروسًا.
* حصلت على منحة دراسية من جامعة الإمام عام ١٤٠٢هـ لتكملة دراساتي العليا، وأقمت في الرياض منذ ذلك التاريخ.
* عملت مصحِّحًا للغة العربيَّة في جريدة الجزيرة بالرياض (متعاونًا) مدة سنتين، من أوَّل ١٤٠٢هـ حتَّى نهاية ١٤٠٣هـ.
* عملت متعاونًا لفترات متقطعة بين ١٤٠٤ ـ ١٤٠٨هـ في مركز شؤون المكفوفين للشرق الأوسط، قارئًا، سجلت أثناءها كتبًا إسلاميَّة عديدة، منها صحيحا البخاري ومسلم وسنن الترمذي، والمطلوبُ في هذا العمل: الصوتُ الحسن، والأداءُ الجيِّد، واللغةُ السليمة. ولم أكنْ بذاكَ كلِّه.
* ثم عملت في دار الرفاعي للنشر بالرياض، مصحِّحًا مع أعمال إدارية أخرى مدة سنتين ١٤٠٥ ـ ١٤٠٧هـ.
* عملت محرِّرًا ومصحِّحًا في مجلة «عالم الكتب» السعوديَّة منذ شهر

ربيع الأول ١٤٠٧هـ حتَّى نهاية شهر جمادى الأولى من عام ١٤١٢هـ، متفرغًا ثم متعاونًا. وكنت أقوم بتحرير معظَم الأبواب الثابتة فيها، مثل باب «كتب حديثة»، وباب «رسائل جامعية» وباب «الأخبار الثقافية»... بل كنت المصحح والمحرر الوحيد فيها طوال تلك المدة، وكانت تحوَّل إليَّ مقالات للنظر فيها ومدى صلاحيتها للنشر.

* عملت محكِّمًا في مجلة «التوباد» بالرياض لعدة أشهر عام ١٤٠٩هـ.
* ومندوبًا لمجلة «المسلم المعاصر» في السعوديَّة من ١٤٠٧ - ١٤٠٩هـ، أزوِّدها بالنشرة المكتبية شهريًّا في تلك المدة.
* عملت في مكتبة الملك فهد الوطنية منذ بداية إنشائها عام ١٤٠٩هـ، وتعيَّنتُ مديرًا لإدارة الاقتناء وتنظيم المعلومات من محرَّم ١٤١١هـ، حتَّى شهر صفر من عام ١٤١٣هـ، ومحكِّمًا في كتبٍ قليلةٍ حوِّلت إليَّ، واستقرَّ عملي في إدارة التصنيف والفهرسة مفهرسًا ومصنفًا للكتب ومراجعًا لهما. وأثناء إدارتي للقسم أصدرت نشرة أو مجلة صغيرة بعنوان (الدرَّة)، صدر منها عدة أعداد، وتوقفت باستقالتي من الإدارة.
* صدرت لي بحوث ومقالات قليلة في دوريات عربيَّة مثل «عالم الكتب»، و«التوباد»، و«العالم الإسلامي»، وكتاباتٌ في الشبكة العالمية للمعلومات.
* ولي موقع شخصي.
* وأصدرتُ مجلة إلكترونية في ١٥ رمضان ١٤٣٢هـ بعنوان (مجلة الكتاب الإسلامي)، أقوم بإعدادها وتحريرها.

* * *

المؤلّفاتُ والتحقيقات

(أ) المطبوعة، حسب تاريخ الصدور

١ ـ **لقمان الحكيم وحكمه**/ دمشق: دار المصحف، ١٤٠٤هـ، ١٩٥ص ـ (سلسلة أعلام قرآنية؛ ١).

ط٢ ـ دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ، ٢١٦ص ـ (سلسلة أعلام القصص القرآني؛ ٢) طبعة مزيدة معدلة ـ زيادة في العنوان الشارح: دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسَّنة والتاريخ.

ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢ ـ **الخَضِر بين الواقع والتهويل**/ دمشق: دار المصحف، ١٤٠٤هـ، ٣٦٨ص ـ (سلسلة أعلام قرآنية؛ ٢).

ط٢ ـ دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ، ٢٥٨ص ـ (سلسلة أعلام القصص القرآني؛ ١)، طبعة مزيدة منقحة معدلة ـ زيادة في العنوان الشارح: دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسَّنة والتاريخ.

ط٣ ، ١٤٢٠هـ.

٣ ـ **ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح: دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسَّنة والتاريخ**/ دمشق: دار القلم، ١٤٠٦هـ، ٤١٢ص.

ط٢ ـ دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ، ٤١٢ص، طبعة مصححة، بها مقدمة جديدة ـ (سلسلة أعلام القصص القرآني؛ ٣). ط٣، ١٤٢٠هـ.

٤ ـ **صفات مقدمي البرامج الإسلاميَّة في الإذاعة والتلفزيون**/ الرياض: المؤلف: توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، ١٤٠٦هـ، ١٣٦ص.

وأصله قسم من رسالة الماجستير.

٥ ـ فهرس الكتب المطبوعة بمكتبة محمد بن عبد الرحمن العبيكان الخاصة/ الرياض: صاحب المكتبة، ١٤٠٧هـ، ١٣٨ص.

٦ ـ الدعوة الإسلاميَّة: مفهومها وحاجة المجتمعات إليها/ الرياض: المؤلف: مطابع الفرزدق، ١٤٠٧هـ، ١٣٦ص ـ (مع الدعوة؛ ١).
ط٢، مزيدة منقحة ـ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١٥٥ص.

٧ ـ الدعوة الإسلاميَّة: الوسائل والأساليب/ الرياض: المؤلف؛ مطابع الفرزدق، ١٤٠٧هـ، ١٣٦ص ـ (مع الدعوة؛ ٣).
ط٢، منقحة ـ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١٣٦ص.
وهذا وسابقه أصلهما قسم من رسالة الماجستير.

٨ ـ من خصائص الإعلام الإسلامي/ مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤١٠هـ، ١٩٠ص ـ (دعوة الحق؛ ٩٧).
ط٢، بعنوان: خصائص الإعلام الإسلامي ـ جدة: دار العمير، ١٤١٢هـ، ١٥٨ص ـ بآخره ملحق: ميثاق الشرف الإعلامي، قرارات وتوصيات المؤتمر الإسلامي الأول لوزراء الإعلام. وإضافة الملحق من قبل الناشر الأخير، ولا يُنشرُ مرة أخرى مع الكتاب.

٩ ـ جولة بين كتب غريبة/ الرياض: المؤلف: مطابع الشريف، ١٤١٠هـ، ١١١ص.
ط٢، مصححة ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ١١١ص.
[وهو الرقم (١) من موسوعة الكتب النادرة].

١٠ ـ الحذر في أمر الخضر/ الملا علي بن سلطان محمد القاري الهروي (تحقيق) ـ دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١١هـ، ٢١٢ص.

١١ ـ المرأة الكرديَّة في التاريخ الإسلامي: تراجم لأميرات كرديات ومحدِّثات عالمات/ الرياض: المؤلف؛ بيروت: توزيع دار القادري، ١٤١٢هـ، ٨٩ص.
(ترجم إلى الفارسية بقلم فائز إبراهيم محمد، رأيته في الإنترنت سنة ١٤٢٥هـ، عنوانه: زنان كرد در تاريخ إسلامي، في ٦٦ص من الحجم الكبير، كما ترجم إلى التركية بواسطة محمد دمرداش وعلي ريزا سيفين، وصدر عن دار نوبهار بإستانبول عام ١٤٢٥هـ، في ٩٢ص، كلاهما بدون إذن مني).

١٢ ـ **تاج التراجم**/ قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت٨٧٩هـ)، (تحقيق) ـ دمشق: دار القلم، ١٤١٣هـ، ٥٦٨ص.

١٣ ـ **دليل المؤلفات الإسلاميَّة في المملكة العربيَّة السعوديَّة ١٤٠٠ ـ ١٤٠٩هـ** ـ الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤١٣هـ، ٧٨١ص.
[عليه مستدرك لم يُطبع].

١٤ ـ **نساء زاهدات**/ الرياض: دار الوطن، ١٤١٣هـ، ٤٠ص.

١٥ ـ **مؤلفات الشيخ ابن باز**/ الرياض: دار ابن خزيمة، ١٤١٣هـ، ٧٩ص.

١٦ ـ **قارئات حافظات**/ الرياض: دار ابن خزيمة، ١٤١٣هـ، ١٢٥ص.

١٧ ـ **الإعلام الإسلامي: ببليوجرافيا بالكتب والرسائل والبحوث الجامعية**/ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١١٧ص.

١٨ ـ **كتب نادرة من التراث الإسلامي**/ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١٧٥ص.
[موسوعة الكتب النادرة؛ ٢].

١٩ ـ **الأجر الكبير على العمل اليسير: مختارات من الأحاديث الصحيحة مع شرحها**/ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ٩٦ص. (تُرجم إلى الإنجليزية).
ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٧٩ص.
ط٣، مزيدة. ـ القاهرة: وصال: توزيع دار سما للكتاب، ١٤٣٣هـ، ٨٦ص.

٢٠ ـ **مؤلفات الشيخ محمد بن صالح العثيمين**/ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ٩٤ص.

٢١ ـ **فقيهات عالمات**/ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١٢٠ص.

٢٢ ـ **المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن**/ الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١١٢ص.
ط٢، مزيدة ومنقحة ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ١١٦ص.

٢٣ ـ **كتاب الحيطان: أحكام الطرق والسطوح والأبواب ومسيل المياه والحيطان في الفقه الإسلامي**/ المرجي الثقفي، مع شرحه وتهذيبه والزيادات عليه، (تحقيق) ـ دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث؛ بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٤هـ، ٢٠٨ص.

[الكتاب بزياداته وتعليقاته هو لابن قطلوبغا، والتصرف الخطأ في العنوان من قِبَل الناشر، بدون إذن مني].

٢٤ ـ **حكم الإسلام في لحوم الخيل/** قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت٨٧٩هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٤هـ، ١٢٠ص.
[عنوانه على المخطوطة: رسالة في لحم الفرس].

٢٥ ـ **الحسن البصري: الواعظ البكَّاء/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٤هـ، ٥٣ص.

٢٦ ـ **المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر/** تأليف محمد بن بير علي البيركلي (ت٩٨١هـ)، (تحقيق)، ويليه رأي الإمامين ابن تيمية وابن القيم ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٤هـ، ١١٢ص.

٢٧ ـ **فهرس الأحاديث التي رواها ابن أبي الدنيا: يشمل فهرسة أطراف أحاديث تسعة وثلاثين كتابا من كتبه/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ١٥٨ص.

٢٨ ـ **اللمعات البرقية في النكت التاريخية/** تأليف شمس الدِّين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ١٧٦ص.

٢٩ ـ **رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة/** محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٦٣ص.

٣٠ ـ **تاج الدِّين فيما يجب على الملوك والسلاطين/** تأليف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت٩٠٩هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٦٢ص.

٣١ ـ **الرقة والبكاء/** تأليف موفق الدِّين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ)، (تحقيق) ـ دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ، ٥٣٤ ص.
ط٢ ، ١٤٢٢هـ.

٣٢ ـ **نوادر الكتب: غريبها وطريفها/** الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ، ٢٤٧ص ـ (موسوعة الكتب النادرة؛ ٣).
ط٢، ١٤٢١هـ، (لم يذكر رقم الطبعة).

٣٣ ـ **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسرُّ عدالته/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٤٨ص ـ (القدوة الحسنة؛ ٢).
ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ.

٣٤ ـ **عمر بن عبد العزيز: الخليفة الزاهد/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٤٧ص ـ (القدوة الحسنة؛ ٣).
ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ.

٣٥ ـ **سفيان بن عيينة: شيخ الإسلام وحافظ العصر/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٣٥ص ـ (القدوة الحسنة؛ ٤).
ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ.

٣٦ ـ **موفق الدين بن قدامة المقدسي: صاحب المغني/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٢٩ص ـ (القدوة الحسنة؛٧).
ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ.

٣٧ ـ **قصيدة يوم الحشر/** محمد بن زين النحراري (ت٨٤٥هـ) (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٤٥ص.

٣٨ ـ **دعوة الأصحاب إلى التحلي بحلى الآداب/** أرجوزة من نظم محمد سعيد بن محمد إياس الدمشقي (كان حيًّا سنة ١٣٢٩هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥، ٤٨ص.
سجِّل في «لحن» جميل على شريط كاسيت من قبلِ شركة إنتاجية إعلامية بالسعوديَّة دون إذن مني.

٣٩ ـ **الرقة والبكاء/** أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، (تحقيق) ـ الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ، ٤٤٧ ص.
[ط٢] ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٣٧٠ص.
ط٣، [مصححة معدلة] ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ، ٣٦٩ص.
ط٤، ١٤٢٦هـ.

٤٠ ـ **فتح العلام في أحكام السلام/** تأليف علوي بن أحمد السقاف الشافعي (ت١٣٣٥هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٥٨ص.

٤١ ـ **قصر الأمل/** تأليف أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٣١٢ص.
ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٧هـ، ٣١٢ص.

٤٢ ـ **دليل مؤلَّفات الحديث الشريف المطبوعة: القديمة والحديثة (بالاشتراك مع** محيي الدِّين عطية وصلاح الدِّين حفني)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٢مج (٩٧٧ص). ط٢، ١٤١٨هـ.

٤٣ ـ **الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى (لا إله إلَّا الله)/** ألّفه سعيد بن حجي الحنبلي (ت١٢٢٩هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ١٠٠ص.

٤٤ ـ **كتاب الأربعين في فضل الرحمة والراحمين/** تأليف شمس الدِّين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ١٧٥ص.

٤٥ ـ **تكملة أعلام النساء (وفيات ١٣٩٧ ـ ١٤١٥هـ)/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ١١٦ص.
وتجهز الطبعة الثانية، وتكون في جزأين، أو مجلد ضخم.

٤٦ ـ **أعلام أجانب: مستشرقون ـ مؤلفون ـ مشاهير (وفيات ١٣٩٧ ـ ١٤١٥هـ)/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ١٤٤ص.

٤٧ ـ **الغريب النادر من كتب التراث الإسلامي/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ١٧٦ص ـ (سلسلة الكتب النادرة؛ ٤).

٤٨ ـ **العقوبات (العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم)/** ابن أبي الدنيا؛ (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٣٠٩ص.
ط٢، ١٤١٩هـ.

٤٩ ـ **حكم وآداب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مرتبة على الحروف الهجائية/** لمؤلف مجهول؛ (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٨٧ص.
[تبين أنه قطعة من كتاب «غرر الحكم ودرر الكَلِم» للقاضي ناصح الدِّين عبد الواحد بن محمد الآمدي، ت٥٥٠هـ].

٥٠ ـ **الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون: سيرة ذاتية للمؤلف وبيان بمؤلفاته البالغة (٧٥٣) كتابًا**/ تأليف شمس الدِّين محمد بن طولون الصالحي (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٢٢٦ص.

٥١ ـ **أسرار خزانة المكتبة التراثية: عرض مجموعة كتب نادرة**/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٢٣٣ص ـ (سلسلة الكتب النادرة؛ ٥).

٥٢ ـ **أمهات النبي ﷺ**/ لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ، ٤٠ص.

٥٣ ـ **رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾**/ ابن طولون (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٧هـ، ٩٦ص.
[تبين أن هذا الكتاب وُجد بخط ابن طولون وليس من تأليفه، وغالب الظن أنه للعلاء الكيكلدي].

٥٤ ـ **الجوع**/ ابن أبي الدنيا (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٧هـ، ٢٧١ص.
ط٢، ١٤٢١هـ.

٥٥ ـ **كتاب المحتَضرين**: ابن أبي الدنيا (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٧هـ، ٣٣٦ص.
ط٢، ١٤٢١هـ.

٥٦ ـ **وصية العالم الجليل موفق الدِّين ابن قدامة المقدسي (صاحب المغني)**/ (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٧٨ص.

٥٧ ـ **القول المعتمد في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾**/ جمال الدِّين يوسف بن عبد الله الأرميوني الشافعي (ت٩٥٨هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ١٣٨ص.

٥٨ ـ **الأربعون حديثًا في الرقة والبكاء**/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٩٩ص.

٥٩ ـ **العقود الدرِّية السلطانية فيما ينسب إلى الأيام النيروزية**/ محمد سلطان بن محمد أورون الخجندي المعصومي، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ١١١ص.

٦٠ ـ صفة النار، ابن أبي الدنيا، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٧هـ، ٢١٤ص.

ط٢ ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢١٤ص.

٦١ ـ الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ١٩٤ص.

ط٢، ١٤٢٣هـ.

٦٢ ـ كتاب المتمنين، ابن أبي الدنيا، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ١٤٤ص.

٦٣ ـ كلام الليالي والأيام لابن آدم، ابن أبي الدنيا، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٧٧ص.

٦٤ ـ الوجل والتوثق بالعمل؛ ومعه حديث أنطونس السائح ومواعظه وأمثاله، ابن أبي الدنيا، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٦٨ص.

٦٥ ـ تكملة معجم المؤلفين: وفيات ١٣٩٧ ـ ١٤١٥هـ/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٧٩٤ص.

وتجهز لطبعة ثانية. وتكون في عدة أجزاء إن شاء الله.

٦٦ ـ تتمة الأعلام للزركلي: وفيات ١٣٩٧ ـ ١٤١٥هـ/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٢مج.

ط٢، (وفيات ١٣٩٦ ـ ١٤١٥هـ)، يليه مستدرك جديد في مجلد (ج٣)، دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ.

وتجهز الطبعة الثالثة حتَّى وفيات ١٤٣٣هـ، وتكون في نحو عشرة مجلدات أو أكثر إن شاء الله.

٦٧ ـ جزء فيه: تحرير الجواب عن ضرب الدواب (من أحكام الرفق بالحيوان في السُّنة النبوية)/ للسخاوي، (تحقيق)/ بيروت: توزيع دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ١٠٣ص.

٦٨ ـ كذبة نيسان في الميزان/ بيروت: توزيع دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ١٢٩ص.

٦٩ ـ دلالة الشكل على كمية الأكل (حدود الشبع)/ محمد بن علي بن طولون (تحقيق)/ بيروت: توزيع دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٤٤ص.

٧٠ ـ تأييد الإنكار لإتيان الطيور ونحوها في الأوكار/ محمد بن علي بن طولون (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٣٠ص.

٧١ ـ مداراة الناس/ ابن أبي الدنيا، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٢١٤ص.

٧٢ ـ دكانة الكتب: رحلة إلى جزر التراث/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ٢٦٣ص ـ (موسوعة الكتب النادرة؛ ٨).

٧٣ ـ المروءة وما جاء في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين/ تصنيف أبي بكر محمد بن خلف المرزباني، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ، ١٨٣ص.

٧٤ ـ نوادر الشوارد: فوائد في التحقيق والتدقيق: لثقافة عالية/ بيروت: المكتب الإسلامي: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ، ٤١٢ص.

٧٥ ـ أعجب العجب: كتاب وضع لمن لا يعجبه العجب/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ٢٠٦ص.

ط٢، ١٤٢٥هـ.

ط٣، ١٤٢٥هـ.

٧٦ ـ الجواهر المجموعة والنوادر المسموعة (الجود والبخل، قضاء الحوائج، اصطناع المعروف وشكره، الصدقة وإطعام الطعام)/ تصنيف شمس الدِّين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ)، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ٤٥٤ص.

٧٧ ـ إفادة الأنام بما ورد في المنام/ تصنيف قطب الدِّين مصطفى بن كمال الدِّين البكري (ت١١٦٢هـ)، (تحقيق).

يليه:

٧٨ ـ الأربعون حديثًا في آداب النوم/ جمعها وخرجها المحقق/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٧٤ص.

٧٩ ـ القول التمام في آداب دخول الحمام (أحكام دور الاستحمام في الفقه الإسلامي)/ تأليف شهاب الدِّين أحمد بن عماد الأقفهسي (ت٨٠٨هـ)، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ١٦١ص.

٨٠ ـ **الأربعون الصحيحة فيما دون أجر المنيحة/** تأليف يوسف بن محمد بن مسعود السُّرَّمَرِّي (ت٧٧٦هـ)، (تحقيق وتخريج)/ بيروت: المكتب الإسلامي: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢٠٠ص.

٨١ ـ **الفوائد البارزة والكامنة في النعم الظاهرة والباطنة/** عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، (تحقيق)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٥٢ص.

٨٢ ـ **عجائب الفكر وذخائر العبر/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢١١ص.

٨٣ ـ **تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق/** ألّفه محمود بن أحمد الفاريابي (ت٦٠٧هـ)، (تهذيب وتخريج أحاديث)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢مج (١٤٠٧ص).

٨٤ ـ **حلم الأحنف: سيرة وأخلاق/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ١٠٠ص، [المتميزون؛ ١].

٨٥ ـ **ذكاء إياس: ذكاء خارق وفراسة عجيبة/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ١٣٩ص، [المتميزون؛ ٢].

٨٦ ـ **صيد الكتب/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٢٥٠ص، (موسوعة الكتب النادرة؛ ٩).

٨٧ ـ **المكثرون من التصنيف في القديم والحديث: من صنّف مائة كتاب... فألفًا... فأكثر/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ١٧٥ ص.

٨٨ ـ **الكشكول المفيد/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ٣٣٣ص.

٨٩ ـ **اصطناع المعروف/** ابن أبي الدنيا، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ، ٢٠٥ص.

٩٠ ـ **قضاء الحوائج/** ابن أبي الدنيا، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ، ١٤٨ص.

٩١ ـ **المعجم المصنَّف لمؤلفات الحديث الشريف: وهو تكملة ومستدرك على «دليل مؤلفات الحديث»/** الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ، ٣مج، (١٣٧٩ص).

ويجهز ما تجدَّد لدي من عناوين مؤلفات الحديث في كتاب جديد، ربَّما يحمل عنوان (موسوعة مؤلفات الحديث الشريف)، وفيها أكثر من (٥٠٠٠) عنوان جديد.

٩٢ ـ **يا بني/** الرياض: دار الوطن، ١٤٢٣هـ، ٦٤ص.

٩٣ ـ **يا بنتي/** الرياض: دار الوطن، ١٤٢٣هـ، ٦٤ص.

٩٤ ـ **أربعون حديثًا في فضائل الحج والعمرة/** لأبي الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي (ت١٣٠٧هـ)، (تحقيق)/ الرياض: دار الوطن، ١٤٢٣هـ، ٥٦ص.

٩٥ ـ **الكلمات البينات في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ تأليف مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (ت١٠٣٣هـ)، (تحقيق)/** بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٥هـ. (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ٦٢).

٩٦ ـ **الغُرَر على الطُّرَر: غُرَر الفوائد على طرر المخطوطات والنوادر/** بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٥هـ، ٢مج في ١، (٣٦٠، ٣٤١ص).

٩٧ ـ **معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة وما طُبع منها أو حُقِّق بعد وفاتهم: وفيات ١٣١٥ ـ ١٤٢٤هـ/** الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٥هـ، ٢مج، ٩٣٤ص ـ السلسلة الثالثة (٥٥).
وتجهز الطبعة الثانية. وتكون في نحو خمسة مجلدات.

٩٨ ـ **مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان/** جمال الدِّين يوسف بن عبد الهادي المقدسي (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ، ٥٠٨ص.

٩٩ ـ **طرح المدر لحلِّ اللآلئ والدرر/** يوسف بن محمد الشربيني، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ، ٧٥ص ـ (كتاب، كلُّ حروفه بدون نقط).

١٠٠ ـ **السرُّ المصون على كشف الظنون/** جميل بن مصطفى العظم (ت١٣٥٢هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٥هـ، (ج١: أ ـ ب فقط، ٤٣٨ص).

١٠١ ـ سفينة الفرج فيما هبَّ ودَبَّ ودَرَج/ محمد سعيد بن قاسم القاسمي (ت١٣١٧هـ)، (تهذيب واعتناء) ـ بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة ١٤٢٥هـ، ٧١٢ص.

١٠٢ ـ الأربعون الرياضيّة: أربعون حديثًا في فضائل الرياضة/ الرياض: دار طيبة، ١٤٢٥هـ، ١١٥ص.

١٠٣ ـ مرآة المروءات/ أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت٤٣٠هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٥هـ، ١٠٤ص.

١٠٤ ـ هكذا قلت في الدِّين والنفس والمجتمع/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠ص.

١٠٥ ـ آخر لقاء مع (٢٠) عالمًا ومفكرًا إسلاميًّا (جمع وإعداد)/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ٢٦٦ص.

١٠٦ ـ كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار (حكمة التشريع في سؤال وجواب)/ شهاب الدِّين أحمد بن عماد الأقفهسي (ت٨٠٨هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ٤٢٢ص.

١٠٧ ـ البيِّنات في بيان بعض الآيات/ الملا علي بن سلطان محمد القاري الهروي (ت١٠١٤هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ٤٨ص ـ (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ٧٢).

١٠٨ ـ دور الفلك في حكم الماء المستعمل في البِرَك/ شمس الدِّين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٦هـ، ٦٣ص، (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ٧٧).

١٠٩ ـ حِكَمُ القرآن: فصل من علوم القرآن، بحث في التفسير الموضوعي/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ٢٤٠ص.

١١٠ ـ دوافع البحث والتأليف عند المسلمين/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ١٦٦ص.

١١١ ـ الكوكب الحثيث شرح درَّة الحديث/ نظم وشرح محمد أمين بن محمد السفرجلاني (ت١٣٣٥هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ٨٣ص.

١١٢ ـ آداب إعارة الكتاب في التراث الإسلامي/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ١٤٦ص.

يليه:

١١٣ ـ جزء فيه عاريَّة الكتب/ لأبي بكر أحمد بن محمد اليزدي، (توفي بعد ٤٢٩هـ).

يليه:

١١٤ ـ بذل المجهود في خزانة محمود/ جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت٩١١هـ).

١١٥ ـ أربعون حديثًا قدسيًّا.. ويليه:

١١٦ ـ أربعون حديثًا نبويًّا في الثناء على الله تعالى/ يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ، ١٢٥ص.

١١٧ ـ ١٠٠ فائدة وفائدة/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٧هـ، ٢١٨ص.

١١٨ ـ لحظات قبل الموت ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٧هـ، ٣٧٨ص.

١١٩ ـ سفينة الذهب من الثقافة والأدب/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٧هـ، ٣٢٠ص.

١٢٠ ـ الأربعون العددية: في كل حديث عدد/ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٧هـ، ١٠٥ص.

١٢١ ـ ابن سحمان: سليمان بن سحمان بن مصلح الخثعمي العسيري النجدي (١٢٦٦ ـ ١٣٤٩هـ): تاريخ حياته وعلمه وتحقيق شعره عقود الجوهر المنضدة الحسان/ تحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري (محمد بن عبد الرحمن العقيل)؛ شارك في تصحيحه والتعليق عليه محمد خير رمضان يوسف، عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر ـ الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٧هـ، ٤ج في ٢مج.

١٢٢ ـ **منظومة الأقفهسي فيما يحلُّ ويحرم من الحيوان/** (تحقيق)، بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٧هـ، ٦٤ص (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ٨٥).

١٢٣ ـ **الجواهر والدرر فيما نفع وندر/** بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٨هـ، ٤٩٦ص.

١٢٤ ـ **لماذا يُسلمون؟ توجيهات ونماذج حول أسباب اعتناق الإسلام/** الرياض: مدار الوطن للنشر، ١٤٢٩هـ، ٩٨ص.

١٢٥ ـ **الأجوبة الجليَّة عن الأسئلة الشرعية في مذهب السادة الشافعية/** محمد بن عبد الله الجرداني (ت١٣٣١هـ)، (تحقيق) ـ عمَّان: دار الفتح للدراسات والنشر، ١٤٣٠هـ، ١٠٠ص.

(وقعت أخطاء في هذا الكتاب من قبل الناشر، فطلبت تصحيحها، فذكر أنه صححها، ورأيت نسخًا منها مصححة كما طلبت).

١٢٦ ـ **درر الأقوال من أفواه الرجال/** بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ، ٢٧٤ص.

١٢٧ ـ ١٣٣ ـ **مجموع أربعينات في فضائل رسول الله وشفاعته ومكارم أخلاقه ومعجزاته وخصائصه وصفته وفضل الصلاة عليه ﷺ/** يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ، ٢٣٦ص.

فيه (٧) كتب في الأربعينات:

ـ أربعون حديثًا في فضائله ﷺ.

ـ أربعون حديثًا في شفاعته ﷺ يوم القيامة.

ـ أربعون حديثًا في معجزاته ﷺ.

ـ أربعون حديثًا في وصف خلقه الشريف ﷺ.

ـ أربعون حديثًا في مكارم أخلاقه ﷺ.

ـ أربعون حديثًا في خصائصه وأمته ﷺ.

ـ أربعون حديثًا في فضل الصلاة عليه ﷺ.

١٣٤ ـ **تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب/** محمد جمال الدِّين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ، ١٢٠ص.

١٣٥ ـ **عنوان البيان وبستان الأذهان ومجموع نصائح في الحكم/** عبد الله بن محمد الشبراوي (ت١١٧١هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ، ٢٠٧ص.

١٣٦ ـ ١٥٠ ـ **موسوعة الفضائل الإسلاميَّة: لكلِّ فضيلة أربعون حديثًا/** يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣١هـ، ٤٣٩ص.

وتحتوي على(١٥) أربعينًا في الحديث:

أ ـ أربعون حديثًا في فضل القرآن وتلاوته.

ب ـ أربعون حديثًا في فضل الإيمان والإسلام.

ج ـ أربعون حديثًا في فضل ذكر الله تعالى.

د ـ أربعون حديثًا في فضل لا إله إلَّا الله.

هـ ـ أربعون حديثًا في فضل الحبِّ في الله والبغض في الله.

و ـ أربعون حديثًا في فضل الصلاة.

ز ـ أربعون حديثًا في فضل رمضان وصيامه وصيام التطوع.

ح ـ أربعون حديثًا في فضل الزكاة وصدقة التطوع.

ط ـ أربعون حديثًا في فضل الحج والعمرة.

ي ـ أربعون حديثًا في فضل مكة المكرمة والمسجد الحرام والكعبة المعظمة والحجر الأسود وزمزم والمقام وسائر المشاعر العظام.

ك ـ أربعون حديثًا في فضل المدينة المنورة والمسجد النبوي.

ل ـ أربعون حديثًا في فضل أهل البيت.

م ـ أربعون حديثًا في فضل أربعين من الصحابة.

ن ـ أربعون حديثًا في الفتن وفضل الشام والهجرة إليها في آخر الزمان وأخبار المهدي عليه السلام.

س ـ أربعون حديثًا في فضل اصطناع المعروف للمسلمين وقضاء حوائج الملهوفين.

١٣٤ ـ **تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب/** محمد جمال الدِّين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ، ١٢٠ص.

١٣٥ ـ **عنوان البيان وبستان الأذهان ومجموع نصائح في الحكم/** عبد الله بن محمد الشبراوي (ت١١٧١هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ، ٢٠٧ص.

١٣٦ ـ ١٥٠ ـ **موسوعة الفضائل الإسلاميَّة: لكلِّ فضيلة أربعون حديثًا/** يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣١هـ، ٤٣٩ص.

وتحتوي على(١٥) أربعينًا في الحديث:

أ ـ أربعون حديثًا في فضل القرآن وتلاوته.

ب ـ أربعون حديثًا في فضل الإيمان والإسلام.

ج ـ أربعون حديثًا في فضل ذكر الله تعالى.

د ـ أربعون حديثًا في فضل لا إله إلَّا الله.

هـ ـ أربعون حديثًا في فضل الحبِّ في الله والبغض في الله.

و ـ أربعون حديثًا في فضل الصلاة.

ز ـ أربعون حديثًا في فضل رمضان وصيامه وصيام التطوع.

ح ـ أربعون حديثًا في فضل الزكاة وصدقة التطوع.

ط ـ أربعون حديثًا في فضل الحج والعمرة.

ي ـ أربعون حديثًا في فضل مكة المكرمة والمسجد الحرام والكعبة المعظمة والحجر الأسود وزمزم والمقام وسائر المشاعر العظام.

ك ـ أربعون حديثًا في فضل المدينة المنورة والمسجد النبوي.

ل ـ أربعون حديثًا في فضل أهل البيت.

م ـ أربعون حديثًا في فضل أربعين من الصحابة.

ن ـ أربعون حديثًا في الفتن وفضل الشام والهجرة إليها في آخر الزمان وأخبار المهدي عليه السلام.

س ـ أربعون حديثًا في فضل اصطناع المعروف للمسلمين وقضاء حوائج الملهوفين.

١٥١ ـ **الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق/** لأبي الحسن سلام بن عبد الله الباهلي الإشبيلي (ت٥٤٤هـ)، (تحقيق) ـ بيروت دار ابن حزم، ١٤٣١هـ، ٧٩٤ص.

١٥٢ ـ **تحفة الناسك لأداء المناسك/** عبد الله بن علي بن حميد (ت١٣٤٦هـ)، (تحقيق) ـ الرياض: دار كنوز إشبيليا، ١٤٣١هـ، ٤٧ص.

١٥٣ ـ **تذكرة طاهر الجزائري/** طاهر بن صالح السمعوني الجزائري، المتوفى سنة ١٣٣٨هـ، (تحقيق) ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٣هـ، ٢ مج (١٣١٤هـ).
وفيها تحقيق (٢٥) جزءًا من أصل (١٠٠) جزء.

١٥٤ ـ **هكذا علَّمني الإسلام وهكذا أدَّبني الإسلام/** الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، قطاع الشؤون الثقافية، إدارة الثقافة الإسلاميَّة، ١٤٣٣هـ، ٢٠٥ص.

١٥٥ ـ **الروضة النديَّة في السياسة الشرعية/** أحمد بن محمد بن بسَّام بن عساكر (ت بعد ١٠٦٧هـ)، (تحقيق) ـ القاهرة: وصال: غلاف: دار الحسن، ١٤٣٣هـ، ٩٩ص.

١٥٦ ـ **آداب التحقيق: خطوات عملية في تحقيق المخطوطات/** القاهرة: وصال، ١٤٣٣هـ، ٧٨ص.

١٥٧ ـ **حلاوة الرزّ في حلِّ اللغز؛** ويليه:

١٥٨ ـ **قطع اللجاج في الإجاج/** كلاهما لأحمد بن أحمد الحلواني الخليجي (ت١٣٠٨هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٣٣هـ، ١١٠ص (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ١٨٦ ـ ١٨٧).

١٥٩ ـ **المنتقى من كتاب الرهبان للحافظ ابن أبي الدنيا (المتوفى سنة ٢٨١هـ)/** انتقاء كاتب مجهول (تحقيق واستدراك) ـ عمَّان: دار الفتح للدراسات والنشر، ١٤٣٣هـ.

١٦٠ ـ **التذكير بالمرجع والمصير/** محمد كمال الدِّين الأدهمي (ت١٣٧٢هـ)، (تحقيق)، ط٢، ـ القاهرة: وصال: توزيع دار سما للكتاب، ١٤٣٣هـ، ١١٩ص.

١٦١ ـ موارد ذوي الاختصاص إلى مقاصد سورة الإخلاص/ ناصر الدِّين أبو المعالي محمد بن عبد الدائم ابن بنت الميلق (ت٧٩٧هـ)، (تحقيق) ـ القاهرة: وصال: توزيع دار سما للكتاب، ١٤٣٣هـ، ٢٧٥ص.

١٦٢ ـ حِلم معاوية/ لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، (جمع وتحقيق) ـ القاهرة: دار الإمام مسلم: توزيع دار سما للكتاب، ١٤٣٣هـ، ١١١ص. يليه: المستدرك على حلم معاوية/ (أنس محمد خير يوسف).

١٦٣ ـ التفاوض في التناقض/ محمود بن محمد نسيب الحمزاوي (ت١٣٠٥هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٣٤هـ، ٤٤ص (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ١٩٧).

١٦٤ ـ سلَّم الوصول إلى علم الأصول/ عبد العليم بن محمد أبي حجاب الحدّادي (ت١٣٦١هـ)، (تحقيق) ـ بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٣٤هـ، ١٢٠ص.

١٦٥ ـ الإبحار إلى أعماق التراث: عرض مجموعة من الكتب النادرة/ الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، إدارة الثقافة الإسلاميَّة، ١٤٣٤هـ، ٣٤٢ص (موسوعة الكتب النادرة؛ ٦).

١٦٦ ـ رحيق التراث: مختارات من كتب نادرة/ الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، إدارة الثقافة الإسلاميَّة، ١٤٣٤هـ، ٣٤٧ص (موسوعة الكتب النادرة؛ ٧).

١٦٧ ـ فضل علم السَّلف على علم الخلف/ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ)، (تحقيق) ـ عمان: دار النور المبين، ١٤٣٥هـ، ٩٩ص.

١٦٨ ـ الواضح في التفسير (تفسير كامل القرآن الكريم)/ القاهرة ـ دار ابن الجوزي، ١٤٣٥هـ، ٣مج (١٧٦٦ص). تُرجمت سبعة أجزاء منه إلى الإنجليزية، ونشرت في القسم الإنجليزي من شبكة الألوكة.

١٦٩ ـ ١٧٠ ـ **خطة تصنيف علوم الدين الإسلامي: المختصرة، الموجزة، المتوسِّطة، الموسَّعة** ـ الرياض: دار الألوكة، ١٤٣٥هـ، ٢٥٤ص. (يتضمن كتابين: كيف تصنِّف مكتبتك الإسلامية، وخطة تصنيف علوم الدين الإسلامي).

١٧١ ـ **آخر لقاء مع هؤلاء/** الرياض، دار الألوكة، ١٤٣٥هـ، ٢٦٨ص.

١٧٢ ـ **تأخير الظلامة إلى يوم القيامة/** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) (تحقيق) ـ بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٣٥هـ، ٣١ص (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام؛ ٢٢٣).

١٧٣ ـ **القول الجلي الوافر في طهارة المريض ومسحه على الساتر/** محمد بن عوض حسين الدمياطي؛ تحقيق محمد خير رمضان يوسف ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٣٥هـ، ٢٦٥ص.

١٧٤ ـ ١٨٧ ـ **رسائل نادرة** (وتضم ١٤ رسالة)، هي:

ـ أربعون حديثًا في فضل سورة الإخلاص، الأرميوني (ت٩٥٨هـ).

ـ الأربعون التفسيرية، محمد خير يوسف.

ـ أربعون حديثًا في مدح العدل وذمِّ الظلم، النبهاني (ت١٣٥٠هـ).

ـ أربعون حديثًا في شدة تحريم الربا، النبهاني.

ـ أربعون حديثًا في تحريم شرب المسكرات، النبهاني.

ـ الأربعون الحجازية، حجازي الدجوي.

ـ جزء فيه فضيلة ذكر الله عزَّ وجلّ، لابن عساكر (ت٥٧١هـ).

ـ الهدية المستحسنة للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، شاكر البغدادي.

ـ الزوائد على رسالة المقاصد للنووي، شرح ابن خرما البيروتي.

ـ تحفة الرأي السديد الأحمد لضياء التقليد والمجتهد، أحمد بن أحمد الحسيني (ت١٣٣٢هـ).

ـ مسألة الفيل وما رجِّح منه بالرواية والدليل، كوزل حصاري (ق١٢هـ).

ـ إرشاد الحيارى في ردع من مارى ومعرفة اختلاف النصارى، الديريني (ت٦٩٤هـ).

ـ رأس الحكمة، عثمان الحسيني.

ـ محاورة الدينار والإنسان، نظم مصطفى وهبي.

١٨٨ ـ سلام من جزيرة منسية: ذكريات وسيرة ذاتية/ (وهو هذا الكتاب).

(ب) مصفوفة جاهزة للطبع

١٨٩ ـ الكشكول اللطيف: فوائد وغرائب (٢مج).

١٩٠ ـ كتب هادفة: إسلاميَّة نافعة/ (نُشر في حلقات بالشبكة العالمية للمعلومات).

١٩١ ـ ورد الخير: أدعية وأذكار/ (لعله ينشر ضمن مجموع، وهو منشور في الموقع الخاص بالمؤلف).

١٩٢ ـ خواطر وتأملات من أعماق الحياة (تحت الطبع).

١٩٣ ـ الدعاء والذكر عند قراءة القرآن (تحت الطبع).

١٩٤ ـ البيان فيما يركز عليه القرآن (تحت الطبع، ونشر في ثلاث حلقات بموقع الألوكة).

١٩٥ ـ كتب قيّمة: إسلاميَّة بيّنة (نشرت في (١٥) حلقة بموقع الألوكة).

١٩٦ ـ كتب جديدة نافعة (نشر منها ٦٠ حلقة على الشبكة العالمية للمعلومات، ١٤٣٤هـ).

١٩٧ ـ جمال النظر فيما ورد من حكمة وفائدة وأثر على ظهر كتاب خُطَّ أو نَدَر/ (عند الناشر لطبعه).

١٩٨ ـ غاية المراد في الخيل الجياد/ محمد رشيد بن داود السعدي (ت١٣٥٨هـ) (تحقيق)، (عند الناشر لطبعه).

١٩٩ ـ تفسير ما لم يفسره ابن كثير.

٢٠٠ ـ المستدرك على تفسير البغوي.

٢٠١ ـ نسيم الكتب (موسوعة الكتب النادرة؛ ١٠)، (عند الناشر لطبعه).

٢٠٢ ـ برد الأكباد في الأعداد/ الثعالبي (ت٣٥٠هـ)، (تحقيق).

ـ رأس الحكمة، عثمان الحسيني.

ـ محاورة الدينار والإنسان، نظم مصطفى وهبي.

١٨٨ ـ سلام من جزيرة منسية: ذكريات وسيرة ذاتية/ (وهو هذا الكتاب).

(ب) مصفوفة جاهزة للطبع

١٨٩ ـ الكشكول اللطيف: فوائد وغرائب (٢مج).

١٩٠ ـ كتب هادفة: إسلاميَّة نافعة/ (نُشر في حلقات بالشبكة العالمية للمعلومات).

١٩١ ـ ورد الخير: أدعية وأذكار/ (لعله ينشر ضمن مجموع، وهو منشور في الموقع الخاص بالمؤلف).

١٩٢ ـ خواطر وتأملات من أعماق الحياة (تحت الطبع).

١٩٣ ـ الدعاء والذكر عند قراءة القرآن (تحت الطبع).

١٩٤ ـ البيان فيما يركز عليه القرآن (تحت الطبع، ونشر في ثلاث حلقات بموقع الألوكة).

١٩٥ ـ كتب قيّمة: إسلاميَّة بيّنة (نشرت في (١٥) حلقة بموقع الألوكة).

١٩٦ ـ كتب جديدة نافعة (نشر منها ٦٠ حلقة على الشبكة العالمية للمعلومات، ١٤٣٤هـ).

١٩٧ ـ جمال النظر فيما ورد من حكمة وفائدة وأثر على ظهر كتاب خُطَّ أو نَدَر/ (عند الناشر لطبعه).

١٩٨ ـ غاية المراد في الخيل الجياد/ محمد رشيد بن داود السعدي (ت١٣٥٨هـ) (تحقيق)، (عند الناشر لطبعه).

١٩٩ ـ تفسير ما لم يفسره ابن كثير.

٢٠٠ ـ المستدرك على تفسير البغوي.

٢٠١ ـ نسيم الكتب (موسوعة الكتب النادرة؛ ١٠)، (عند الناشر لطبعه).

٢٠٢ ـ برد الأكباد في الأعداد/ الثعالبي (ت٣٥٠هـ)، (تحقيق).

٢٠٣ ـ الطريقة المثلى في الإرشاد إلى ترك التقليد واتباع ما هو الأولى/ نور الحسن بن محمد صديق القنوجي (ت١٣٣٦هـ)، (تحقيق).

٢٠٤ ـ تنبيه الأواه بفضل لا إله إلَّا الله/ محمد بن محمد البكري الصدِّيقي (تحقيق).

٢٠٥ ـ فصل الأقوال في الجواب عن حادثة السؤال ونفي العقوبة بالمال/ محمد بن كمال الدِّين الأخميمي (ت١٣٤٦هـ)، (تحقيق).

٢٠٦ ـ موائد الفوائد/ (عند الناشر لطبعه).

٢٠٧ ـ الدليل الجديد لمؤلفات الحديث الشريف./ وهو تكملة لـ (دليل مؤلفات الحديث الشريف المطبوعة) و(المعجم المصنَّف لمؤلفات الحديث الشريف). (عند الناشر لطبعه).

٢٠٨ ـ فوائد حاضرة من طُرَر المخطوطات والكتب النادرة (عند الناشر).

٢٠٩ ـ خواتيم الوراقين.

٢١٠ ـ كلمات في الطريق. (نُشر في حلقات في موقعي وفي صفحة الفيس بوك الخاصة بي وصلت إلى ٥٠ حلقة حتى تاريخه).

(ج) المخطوطة

٢١١ ـ درَّة التنزيل وغرَّة التأويل (الحكمة من تكرار آيات في كتاب الله الكريم)/ محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، ت٤٢٠هـ. (تحقيق).

٢١٢ ـ رسالة الفتح المبين ردًّا على من أوجب تعلم اللغات الأجنبية من بعض المعلمين/ يعقوب بن يوسف اليوسف (ت١٣٧٥هـ)، (تحقيق).

٢١٣ ـ تراجم الفضلاء.

٢١٤ ـ الروض الأزهر والمسك الأذفر (موسوعة الكتب النادرة؛ ١١).

٢١٥ ـ الرونق الناضر من الأخبار والفوائد على طرز المخطوطات والنوادر.

٢١٦ ـ ٢٢٢ ـ مجموع أربعينات متنوع الموضوعات: أدعية، أذكار، صلوات مأثورة، جوامع الكلم، أدلة الأحكام، مكارم الأخلاق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذمُّ من يقول ولا يفعل/ يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ) (تحقيق).

وهذه الأربعينات هي:

أ ـ أربعون حديثاً من أدعيته واستعاذاته ﷺ.

ب ـ أربعون حديثاً في أربعين صيغة من ذكر الله تعالى.

ج ـ أربعون حديثاً بأربعين صيغة من صيغ الصلوات المأثورة عن النبي ﷺ.

د ـ أربعون حديثاً من جوامع كلمه ﷺ.

هـ ـ أربعون حديثاً من أربعين باباً من أدلة الأحكام.

و ـ أربعون حديثاً في التحريض على مكارم الأخلاق والتحذير من مساوئها.

ز ـ أربعون حديثاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذمُّ من يقول ولا يفعل.

٢٢٣ ـ سعادة الأنام في اتِّباع دين الإسلام وتوضيح الفرق بينه وبين دين النصارى في العقائد والأحكام/ يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ) (تحقيق).

٢٢٤ ـ نظرات ووقفات في الدين والنفس والحياة.

(د) المقالات والدراسات

وهي التي كتبتها في بلاد الحرمين، أمَّا قبل ذلك فلم أذكرها، فبعضها محفوظ في ظروف، وبعضها ضاعت.. ولو جمع المطبوع إلى المخطوط لجاء في مجلدات، بينها ما هو مفيد إن شاء الله. ومجموع المذكور منها أكثر من (١٦٠) مقال ودراسة.

١ ـ المقالات المطبوعة (المنشورة)

مرتبة حسب تاريخ النشر:

ـ مواقف مع الداعية.

(هذه سبيلي، الرياض ـ المعهد العالمي للدعوة الإسلاميَّة، ع٤، ١٤٠٢هـ، ص١٨٧ ـ ١٩٩، توقفت المجلة).

ـ المثل: نوع فريد من الآداب.
(صحيفة المدينة ع٦٦٣٦، ١٦/ ٩/ ١٤٠٥هـ).

ـ أمثالنا العربيَّة وما تحمله من قيم اجتماعية وتاريخية.
(المجلة العربيَّة، ع٩٣، شوال ١٤٠٥هـ، ص٩٨ ـ ٩٩).

ـ تساؤلات حول الإعلام الإسلامي؟!
(المسلمون ع٢٤، ٤ ـ ١٠ ذي القعدة ١٤٠٥هـ).

ـ نعم، ولكن ما السبب وكيف العلاج؟ [حول الإقبال على الكتب والقراءة].
(عكاظ ع٦٩٩٩، ١/ ١٢/ ١٤٠٥هـ).

ـ قطب رحى القرآن: من أحسن ما قرأت لابن تيمية [من كتاب مختصر الفتاوى المصرية].
(المدينة ع٧٤٣٧، ١٥/ ١/ ١٤٠٨هـ).

ـ كلمات مضيئة من جامع العلوم والحكم.
نشرت في ثلاث حلقات من جريدة المدينة، الأعداد ٧٤٣٩ (١٧/ ١/ ١٤٠٨هـ) والعدد ٧٤٤١ (١٩/ ١/ ١٤٠٨هـ) والعدد ٧٤٤٣ (٢١/ ١/ ١٤٠٨هـ).

ـ محاولة للتعرف على الحياة الواقعية في بيئة ابن تيمية من خلال كتاب مختصر الفتاوى المصرية.
(التوباد، مج٢، ٣ رجب ١٤٠٨هـ، ص١٢٣ ـ ١٢٩).

ـ التفسير الإسلامي للتاريخ لعماد الدِّين الخليل [عرض ونقد].
(عالم الكتب مج٩، ع١، رجب ١٤٠٨هـ، ص٨٢ ـ ٨٧).

ـ مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية [عرض ونقد].
(عالم الكتب مج٨، ع٢، شوال ١٤٠٨هـ، ص٢٣١ ـ ٢٤٠).

ـ جامع العلوم والحكم: هذا الكتاب الفريد! [عرض ونقد].
(التوباد، مج٢، ع١، ٢، محرم ـ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ، ص١٩٩ ـ ٢٠٣).

ـ السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية لزياد أبو غنيمة [عرض ونقد].
(عالم الكتب مج٩، ع٣، محرم ١٤٠٩هـ، ص٣٩٧ ـ ٤٠٩).

ـ **الرسائل الجامعية التي نوقشت في كلية الدعوة والإعلام بالرياض**: المعهد العالي للدعوة والإعلام سابقًا.
(عالم الكتب مج١٠ ع٣، شوال ١٤٠٩هـ، ص٢٤٣ ـ ٢٣٦).

ـ **الوقف وبنية المكتبة العربيَّة للدكتور يحيى ساعاتي [عرض وتحليل]**
(التوباد، مج٢، ع٣ ـ ٤، ذو الحجة ١٤٠٩هـ، ص١٩٧ ـ ٢٠٣).

ـ **علوم القرآن الكريم: ببليوجرافيا مما صدر في المملكة العربيَّة السعوديَّة ١٤٠٠ ـ ١٤٠٩هـ [ثم ضمَّنته كتابي: دليل المؤلفات الإسلاميَّة في السعوديَّة]**.
(عالم الكتب مج١٢، ع١، رجب ١٤١١هـ، ص٥٤ ـ ٧٠).

ـ **المستدرك على فهرس مؤلفات السيوطي المطبوعة**.
(عالم الكتب مج١٢، ع٣، محرم ١٤١٢هـ، ٤٤٠ ـ ٤٤٩).

ـ **الإعلام الإسلامي: ببليوجرافيا وملاحظات**.
(التوباد س٤، ع١٣، ربيع الأول ١٤١٢هـ، ٦ص).

ـ **الأخبار الثقافية**.
(وهي الأبواب التي حررتها في مجلة عالم الكتب، عددها (١١)، بين رجب ١٤٠٧هـ حتَّى محرم ١٤١١هـ، صورتها في ظرف عندي، وكنت أحرر فيها باب الرسائل الجامعية، وباب كتب حديثة أيضًا، ولم أذكرها هنا).

ـ **تاج التراجم بين المطبوع والمخطوط**.
صدر في عددين من مجلة عالم الكتب: مج١٣، ع٤، محرم وصفر ١٤١٣هـ، ص٣٤٦ ـ ٣٦٥؛ ومج١٣، ع٥، الربيعان ١٤١٣هـ، ص٤٦٦ ـ ٤٧٨.

ـ **المطبوع من مؤلفات الحافظ ابن أبي الدنيا**.
(عالم الكتب مج١٦، ع٣، ذو القعدة وذو الحجة ١٤١٥هـ، ص٢٨٠ ـ ٢٨٥).

ـ **إجابة عن سؤال كون المرأة أول الضحايا في المناطق التي تشتعل فيها الحرب ضد المسلمين**.
(ضمن ملف «قضية المرأة تحرير أم تدمير» في عدد ممتاز من مجلة الشقائق س١، ع٢، رمضان ١٤١٦هـ، ص١٤ ـ ١٥).

ـ من خصائص الإعلام الإسلامي.
لم أكتبه، ربَّما استنتجه محرر المجلة من كتاب لي بالعنوان السابق نفسه، وكتب تحته: بقلم محمد خير رمضان يوسف (مجلة هدي الإسلام، عمّان، وزارة الأوقاف مج٤٠، ع٧، ١٤١٧هـ، ص١١٧ ـ ١٢٧).

ـ هذه هي قصة المخطوط الهندي [هذا هو العنوان المخطوط للمقال، ثم نشر بعنوان]: محقق كتاب «حكم وآداب» يوضح ملابسات العثور على نسخة الآمدي.
(الشرق الأوسط ع٧٦٠٧، ١٦/٦/١٤٢٠هـ).

ـ يا بني [أرسلت منه بضع صفحات إلى مجلة المجتمع، ثم نشرتُه في كتاب].
نشرت منه حلقتان في مجلة المجتمع: (ع ١٤٧٣، ٤/٨/١٤٢٢هـ، ص٥٧)، و(ع١٥٤١، محرم ١٤٢٤هـ، ص٥٥) ولعل حلقات أخرى نشرت ولم أتابعها.

ـ المكثرون من التصنيف في القديم والحديث [وهو مستدرك على كتابي بالعنوان نفسه].
(الفيصل ع٣٢٦، ص٢٢ ـ ٢٩) لعله سنة ١٤٢٣هـ.

ـ تنهيدة النساخ، أو خواتيم الوراقين (زدت عليه ويكون في رسالة لطيفة إن شاء الله).
(الفيصل، محرم ١٤٢٤هـ، ص٥٢ ـ ٦١).

ـ هكذا قلت في الدِّين والنفس والمجتمع [ثم جمعتها في كتاب بالعنوان نفسه].
كثير منها صدر في أكثر من (٣٠) حلقة في دوريات إسلاميَّة بدون ترتيب موضوعي، كما ذكرت ذلك في هامش مقدمة الكتاب، وهذه الدوريات هي: صحيفة العالم الإسلامي (تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة)، مجلة المستقبل الإسلامي (تصدرها الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ثم توقفت)، وحلقة في مجلة التقوى (تصدر في طرابلس الشام)، وحلقة منها نشرت تحت عنوان «بصراحة» في مجلة المستقبل المذكورة. صدرت ما بين ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، حتَّى صفر ١٤٢٥هـ.

ـ **أبو أمامة الباهلي** [ترجمة موثقة، محكمة].

كتبتها لـ«موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين» التي أنجزت أجزاء عديدة منه منظمة التربية والثقافة والعلوم، (نحو خمس صفحات من المسودة).

ـ **الإعلام الإسلامي: تعريفه وأهدافه والغاية منه.**

لم أرسل شيئًا منه إلى المجلة، وربما استنتجه المحرر من كتاب لي في الإعلام الإسلامي.

نشر في مجلة الداعي (الهندية) س٢٧، ع٩ ـ ١٠، رمضان ـ شوال ١٤٢٤هـ، ص٦٨ ـ ٧٢.

ـ **التوثيق العلمي من ظهور الكتب والمخطوطات.**

(الفيصل، ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ص٨٩ ـ ١٠٥).

ـ **أنيس منصور والإسلام من خلال مقالات له.**

مجلة البيان ـ الرياض ـ ع٢٥٠ (جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ) ص٧٦ ـ ٨١.

ونشر في موقعي أيضًا.

ـ **دفاعًا عن معجم المؤلفين المعاصرين.**

مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١٣، ع٢ (رجب ـ ذو الحجة ١٤٢٩هـ) ص٣٨٨ ـ ٤٠٠.

ـ **«موسوعة أعلام العلماء والأدباء» وإشكالية المداخل.**

مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١٥، ع١ (جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ) ص٣٧١ ـ ٣٩٣.

ـ **معلمة المغرب ونظرات في أعلامها.**

مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١٦، ع١ (محرم ـ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ) ص٣٤١ ـ ٣٥٢.

ـ **معجم البابطين لشعراء العربيَّة: مراجعة ونقد.**

نشر في ثلاث حلقات طويلة في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية:

الأولى: في مج١٦، ع٢ (رجب ـ ذو الحجة ١٤٣١هـ) ص٢٦٧ ـ ٢٩٩.

الثانية في مج١٧، ع١ (محرم ـ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ) ص٣٥٥ ـ ٣٩٤.

الثالثة في مج١٧ ع٢ (رجب ـ ذو الحجة ١٤٣٢هـ) ص٣٣٩ ـ ٣٧٦.

ثم نشر في موقعي.

٢ ـ المقالات والدراسات المخطوطة:

(بعضها عُرضت ولم تنشر، وبعضها فات وقتها، أو أبقيتها حتَّى يلتئم شملها مع غيرها إن شاء الله، وبعضها مسودات، وترتيبها على التاريخ التقريبي):

ـ الموظف وطاسة اللبن [قصة واقعية جرت معي، ذكرتُ ملخصها في ذكرياتي]، ١٢ص.

ـ تمثيلية إذاعية ذات ثلاثة فصول [كتبت سنة ١٤٠٣هـ]، ٧ص.

ـ في العمل الإعلامي [كتبت سنة ١٤٠٣هـ،]، ٣ص

ـ حيرة أم، قصة واقعية، المقصود الوالدة، وأنا وشقيقي محمد زكي، ٧ص، ذكرت ملخصها في ذكرياتي.

ـ آلام، ١ص.

ـ ذكريات مختصرة، ٣ص، فيها ما لم أورده في الذكريات.

ـ الجنون في حب الكرة، ١٤ص.

ـ رحلة في عالم الأمثال، ٣ص.

ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب. نقد لطبعة دار المعرفة، ٩ص.

ـ الكتاب السعودي: المشكلة والحل، ١٥ص.

ـ خصائص الإعلام الإسلامي، ١٤ص (لعله نفسه الذي ذكرته في المقالات المنشورة؟).

ـ رد على «الخضر عليه السلام في الفكر الصوفي» لعبد الرحمن عبد الخالق، ١٢ص، أردت إضافته إلى الطبعة الجديدة من كتابي «الخضر بين الواقع والتهويل» فلم يوافقني أحد الإخوة، وليس فيه ما يغضب الفريقين، فالتزمت كلامه دون اقتناع.

ـ تعقيب على مقال «بين لقمان الحكيم وبتاح حتب» [كتبته سنة ١٤٠٨هـ]، ٥ص، أرسلته تعقيبًا على كاتب المقال محمد العزب موسى، إلى جريدة الأهرام، فلم ينشر.

ـ المطبوع من مؤلفات ابن طولون، ٧ص.

ـ كتابان في الإسلام يقطران سمًّا [كتبته سنة ١٤٠٨هـ]، ١٣ص.

- المقصود: كتاب «حول الدعوة الإسلاميَّة إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة» لحسين أحمد أمين، وكتاب «سوسيولوجيا الفكر الإسلامي» لمحمود إسماعيل.
- حادث مروّع على طريق مكة ـ المدينة، ٨ص. حدث واقعي، أرسلته إلى جريدة المدينة فلم ينشر.
- المرأة الكرديَّة بين سعادة الأمس ومخاطر اليوم، كتبته سنة ١٤١٦هـ، ٧ص.
- أخطاء ينبغي تصحيحها في مختصر صحيح مسلم، كتبته سنة ١٤٢٠هـ، ٢ص، أرسلته إلى ناشره.
- طبيبات من التاريخ الإسلامي، ٥ص.
- بدايات خاطئة: قصص قصيرة جدًّا، ٥ص.
- كتابات وأشعار غير منتظمة.

٣ ـ مقالات ودراسات نشرت في الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت):

المقالات التالية نشرت في موقعي ضمن (شبكة الألوكة):

- إغارة أستاذ جامعي على كتاب «تتمة الأعلام». (أستاذ جامعي يستولي على أكثر من (٥٥٠) ترجمة من «تتمة الأعلام» (أكثر من ٤٠٠ص) في كتابيه «نثر الجواهر» وذيله «عقد الجوهر»).
- الجمعية العالمية للكتاب الإسلامي (مشروع مقترح).
- قناة الأعلام والوفيات.
- نفايات في بيوت الله.
- الدولة والعلماء والكولا وما إليها.
- موقع للأشرار وآخر للأبرار.
- أعلام غيَّروا آراءهم.
- الهواية زينة.
- سعيد بن راشد اليمْني (ت١٤٢٩هـ).

- حيرة القارئ [في صحته].
- الفرقة الذبابية.
- المسلمون والتقصير في خدمة كتاب الله (١): دار المصاحف.
- المسلمون والتقصير في خدمة كتاب الله (٢): بنك معلومات عن القرآن الكريم.
- المسلمون والتقصير في خدمة كتاب الله (٣): التفسير الصحيح للقرآن الكريم.
- محمود درويش ونضاله مع الشيوعيين اليهود.
- علم النفس العلاجي عند ابن حزم.
- جنَّاتٌ... كيف تجري من تحتها الأنهار؟
- صفة خاصة بالأنبياء، فهل من مشمِّر؟
- أشجان الثورة.
- أكثر الكتب الإسلاميَّة تأثيرًا (في الموقع القديم).
- ما لا يُعرف عن عبد الله الطريقي.
- مصحف الدروز وعقيدتهم.
- المنظمة الإسلاميَّة للعلوم الطبية.
- رسائل نادرة (حلقتان).
- آخر أيام نزار قباني وموقفه من الدين.
- هداية وزيادة.
- رحم الله عمر كيف قالها!
- عباقرة الفكر الإسلامي في عصرنا.
- اللامبالاة مرض.
- عرب أم عجم؟
- مع الشباب.
- عبث الشباب.
- إلى حملة إعلامية.

ـ تعالوا إلى مدرسة الخير.

ـ أسباب انحراف العلماء والدعاة.

ـ الأطفال والأيادي المجرمة.

ـ هل العالم بخير؟

ـ سورة عظيمة.

ـ هل يجوز الاسترواح بالباطل؟

ـ توفيق الحكيم والإسلام.

ـ ضعف الكلمة.

ـ كلمات في الثورة.

ـ الاستسلام الحق.

ـ مقام السجود.

ـ النور والظلمة.

ـ مقارنة على استحياء.

ـ صراحة الرسول ﷺ.

ـ دعوة صريحة (نشر في موقع أو مواقع أخرى).

ـ حجم جريمة الحكم العلماني.

ـ تشريح الإبداع.

ـ لن يستمرَّ الطغيان.

ـ إلى أين يذهبون به؟ (عن الميت).

ـ بين حياة وحياة.

ـ الانحراف الفكري لدى القادة في مصر.

ـ فرقٌ بين الانطواء والعزلة.

ـ التلاوة المفيدة.

ـ نحو قيادة صادقة مسؤولة.

ـ طريقان ومنفذان.

ـ ضوابط الحق عند من؟

ـ أسامة! (رثاء ابن شقيقي محمد زكي).

ـ مزالق الثقافة.

ـ التنويرية المظلمة.

ـ فِرقة وفِرَق.

ـ العقلانية والدِّين.

ـ رثاء (محمد قطب).

ـ أمثال أكاديمية.

ـ تقرير «إسلام حضاري ديمقراطي».

ـ الاستيراد والتصدير الثقافي.

ـ معلومتان أدبيتان.

ـ فائدة لغوية.

ـ الكتاب على الأرائك وبين السنابك (٢٠حلقة، وهو بمثابة مجلة للكتاب الإسلامي). ويمكن أن يكون كتابًا.

* والمقالات المنشورة فيها معظمها قصير، وهي:

ـ رسالة إلى محقق جديد.

ـ السرقات الأدبية.

ـ الأجزاء المفقودة من تاريخ البيهقي (نقد).

ـ عمالقة التحقيق في عصرنا.

ـ قيمة الرسائل الجامعية والاهتمام بها.

ـ الحلية فيما لكل فعل من تصريف وبنية (عرض ونقد).

ـ همَّة في التأليف... ودقَّة في التحقيق.

ـ طبقات الفقهاء الشافعيين (نقد).

ـ معجم المطبوعات العربيَّة في شبه القارة الهندية الباكستانية (عرض ونقد).

ـ سلاسل رائعة.

ـ موسوعة شعر الغناء اليمني (عرض ونقد).

ـ الشماريخ في علم التاريخ (عرض ونقد).

ـ تراثنا الأدبي والجريمة.

ـ مكتباتنا ومكتباتهم.

ـ الموسوعة العربيَّة (السورية) (عرض ونقد).

ـ غرامي صحيح... أم غير صحيح؟!

ـ عالم عَلَم... أكثر من صنَّف في هذا العصر.

ـ عناوين غير لائقة.

ـ نظرة في كتاب «الدين والحياة» لمفتي مصر الشيخ علي جمعة.

ـ عناوين فظَّة قاسية.

ـ «الأعلام» للزركلي (تصحيح واستدراك).

ـ كتابة التراجم.

ـ قاعدة معلومات الرسائل الجامعية (نقد).

ـ بيانات النشر.

ـ خزانة التراث (نقد).

ـ ملاحظات في التأليف.

ـ ولكنهم عظماء: معاقون عظماء من التاريخ العربي الإسلامي (نقد).

ـ تحذير من آفة كتابية.

ـ بهجة المعرفة: موسوعة علمية مصورة (نقد).

ـ الشعر في ساحة الكتابة والخطابة.

ـ أصول البحث العلمي وتحقيق المخطوطات (نقد).

ـ شيء من أدب اللغة.

ـ معالم الإيمان في تفسير القرآن (نقد).

(هـ) موقع محمد خير رمضان يوسف

أنشئ عام (١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م) ثم مُحي أو اختفى بعد نحو ثلاث سنوات، وحوِّلت موادُّه إلى موقعي في شبكة الألوكة، وفيه الأبواب التالية:

- الصفحة الرئيسية.
- التعريف بالموقع.
- تعريف بالكتب المطبوعة (كتب صاحب الموقع).
- كتب إسلاميَّة مفيدة.
- الواضح في التفسير.
- السيرة والآثار العلمية.
- منوعات.
- مقالات ودراسات.
- مشاركات.
- ذكريات (أُلغي).
- المسرد فيما تجدَّد من علوم القرآن والتفسير (نُشر ويُنشر في حلقات بموقعي في شبكة الألوكة، بمساعدة ولدي إبراهيم، وصل إلى (٣٠) حلقة حتى تاريخه).
- رسائل علمية مفيدة (نُشر ويُنشر في حلقات، وصل إلى (١٥) حلقة حتى تاريخه.
- كتب ناطقة.
- مواد مترجمة.
- مجلة الكتاب الإسلامي.

* ومما نُشر في الموقع:

- كتب جديدة نافعة: (نُشر في ٦٠ حلقة، كل حلقة فيها عرض لـ ٤ كتب إسلاميَّة).
- كتب مفيدة جديدة (يُنشر على حلقات، وصل إلى (٦٠) حلقة حتى تاريخه).
- لغة القرآن: مسردٌ بما جدَّ من كتب اللغة والنحو والبلاغة والتفسير. (نُشر وينشر في حلقات بموقعي في شبكة الألوكة، بمساعدة ولدي إبراهيم).

وعرض بشكل مفرد كتب أخرى.

ـ منوعات (معظمها مقتطفات): من محاسن الكلام: كلمات ونصائح، خطورة ألف ليلة وليلة، من أعماق الإيمان، فوائد لغوية، تدبَّر، طرف وأشعار، عبر هادفة في ذكريات منسية، الوثائق البريطانية.

ـ ذكريات: نشر منها (٩) حلقات في الموقع القديم، وتوقفت بعد تهيئتها للنشر؟

(و) (مجلة الكتاب الإسلامي)

إلكترونية، أصدرتها في ١٥ رمضان ١٤٣٢هـ، وأقوم بإعدادها وتحريرها، ويصممها الابن أحمد. وهي فصلية. وتكون في موقعي ومواقع أخرى.

* ومن المقالات التي فيها (الأعداد ١ ـ ١٠):

ـ تطور صنعة الكتاب الإسلامي في عصرنا.

ـ سبحان الذي علَّم بالقلم.

ـ الأخطاء في العناوين.

ـ مختصرات في المخطوطات.

ـ مكتبات المساجد.

ـ أخطاء في أسماء المؤلفين.

ـ أسماء دور النشر.

ـ ماذا عن تراثنا العلمي؟

ـ رسائل علمية مميزة.

ـ التأليف المفيد.

ـ التأريخ للكتب الصادرة بالعربيَّة في الهند.

ـ منظومات ألفية.

ـ من لهذا المشروع (المكتبة التراثية)؟

ـ قصة اسمها التراجم.

ـ علم وأدب.

ـ التعاون في نشر التراث الإسلامي.

ـ المرشد المكتبي.

ـ سرقة الكتب.

ـ الكتاب والعزلة.

ـ إهداءات الكتب.

ـ المخطوط الرقمي.

ـ مجمع لغوي حرّ.

ـ الكتاب في القرآن الكريم.

ـ وقفُ الكتاب.

ـ هاجس الإيداع.

ـ الإكثار من التصنيف.

بيانات المعلومات السابقة

حتَّى شهر شعبان من عام ١٤٣٥هـ.

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدّمة	٥
توطئة	٩
البداية (الأصل والأسرة)	١١
القرية وأحوالها	٢٠
ترب سبي (القحطانية)	٢٤
أحوال وفيضانات	٢٨
أرض وأعمال	٣٤
أوليات في البلدة	٣٦
عادات وألعاب شعبية... ومظاهر	٤٦
وقائع وأحداث (صور من البلدة)	٥٣
أحوال اجتماعية ودينية	٦٦
أصول وأجناس ومظاهر	٧٣
أول طريق العلم	٨٤
مرحلة أخرى من التعليم	٨٩
بذرة الإيمان والتربية	٩١
الوالدان	٩٣
بين المراهقة والسياسة والعلم	٩٩

أساتذة وزملاء ١١٠
على أبواب العلم الرفيع ١٢٣
شيء لا بد منه ١٢٥
حسب الله ١٢٦
أساتذة ومحاضرات ١٢٩
حب الكتاب والإيجار ١٣٣
عبد الرحمن خليفاوي ١٣٨
المعسكر الجامعي ١٤٠
البحث عن شيعي ١٤٣
معسكر شتوي ١٤٤
إخوة في الله ١٤٦
ذكريات من مدارس القرى ١٤٨
في صحبة الملا ١٥٣
في قرية أخرى ١٥٧
بينك وبين الجن ١٦٠
حيلة فقير ١٦٢
الخوف من الشرطة ١٦٣
مالم يذكر ١٦٤
من مآسي التدريس ١٦٧
ذكرى مؤلمة ١٧٢
وقفات ١٧٦
طاسة اللبن ١٧٨

نفـاق ١٨٠
حزب السلامة ١٨٢
الزواج وما إليه ١٨٣
الحـذر ١٨٨
الألتزام بالحجاب ١٩٠
الشيخ علوان ١٩٢
الأجنبي والدراسات العليا ١٩٩
جامع زين العابدين وأعلام من حوله ٢٠٣
في قبضة المخابرات ٢١٥
أمور أخرى ٢١٩
أحوال أسرية ٢٢٢
المطالعة وبدايات الكتابة وهموم العلم ٢٢٧
بداية التأليف ٢٤٣
العلماء ٢٥٠
مشكلات قبل الرحيل ٢٥١
المرحلة الثانية ٢٥٤

ملحق

* صور ووثائق ٢٥٨
* سيرة علمية ٢٦٩
المؤلفات والتحقيقات: ٢٧٢
(أ) المطبوع، حسب تاريخ الصدور ٢٧٢
(ب) مصفوف جاهز للطبع ٢٩٠

(ج) المخطوط ٢٩١
(د) المقالات والدراسات ٢٩٢
١ ـ المطبوعة ٢٩٢
٢ ـ المخطوطة ٢٩٧
٣ ـ مقالات ودراسات نشرت في الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت): ٢٩٨
(هـ) موقع محمد خير رمضان يوسف ٣٠٣
(و) مجلة الكتاب الإسلامي ٣٠٤
فهرس المحتويات ٣٠٧

❑❑❑

منشورات

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة ـ البحرين[1]

* المُحقِّق السُّعوديّة: لخطب الشيخ محمَّد بن عبد اللطيف آل سعد.

أولاً: سلسلة دفائن الخزائن

١ ـ كتاب ذكر اسم كل صحابي روى عن رسول الله ﷺ؛ للأزدي، (دار ابن حزم بيروت).

٢ ـ كتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتَّقين؛ لأبي الفتوح محيي الدِّين الهمداني، بتحقيق د. عبد الستَّار أبو غدَّة، سنة ١٤٢٠هـ.

٣ ـ المواهب المدَّخرة في خواتيم سورة البقرة؛ لبرهان الدِّين المقدسي، بتحقيق د. عبد الستَّار أبو غدَّة، سنة ١٤٢١هـ.

٤ ـ وصيَّة الشيخ أبي الوليد الباجي لولديه؛ بتحقيق عبد اللطيف الجيلاني، ط ٢، سنة ١٤٢٣هـ.

٥ ـ تحرير تنقيح اللباب (في فقه الإمام الشافعي)؛ لزكريَّا الأنصاري، بعناية د. عبد الرؤوف الكمالي، سنة ١٤٢٤هـ.

٦ ـ مجموع فيه: جواب بعض الخدم لأهل النعم عن تصحيف حديث «احتجم»؛ ويليه:

٧ ـ العشرة من مرويَّات صالح ابن الإمام أحمد وزياداتها؛ لابن عبد الهادي، ويليهما:

٨ ـ جزء فيه إسلام زيد بن حارثة وغيره من أحاديث الشيوخ؛ للرازي.
للأولها بتحقيق محمَّد صباح منصور، سنة ١٤٢٤هـ.

٩ ـ كتاب اليقين؛ لابن أبي الدنيا، بتحقيق ياسين السوَّاس، سنة ١٤٢٥هـ.

١٠ ـ مختصر الفوائد المكِّيَّة فيما يحتاجه طلبة الشَّافعيَّة؛ للسقَّاف، بتحقيق د. يوسف المرعشلي، سنة ١٤٢٥هـ.

---

(١) جميع هذه المنشورات صادرة عن دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ما عدا الإصدار الأول من سلسلة «دفائن الخزائن».

١١ ـ سفينة الفرج فيما هب ودب ودرج؛ للأديب محمَّد سعيد القاسمي، بتحقيق محمَّد خير رمضان يوسف، سنة ١٤٢٥هـ.

١٢ ـ ألفيَّة السند؛ للحافظ محمَّد مرتضى الزبيدي، بعناية نظام يعقوبي، سنة ١٤٢٦هـ.

١٣ ـ قرَّة العين بالمسرَّة الحاصلة بالثواب للميت والوالدين؛ ويليه:

١٤ ـ الإيضاح والتبيين بمسألة التلقين؛ للإمام السخاوي (٩٠٢هـ).

كلاهما بعناية نظام يعقوبي، سنة ١٤٢٦هـ.

١٥ ـ الكواكب النيِّرات في إثبات وصول الحسنات المهداة إلى الأحياء والأموات؛ للعلَّامة سعد الدِّين بن محمَّد بن عبد الله المقدسي، المعروف بابن الديري (٨٦٧هـ)، بعناية نظام يعقوبي، سنة ١٤٢٧هـ.

١٦ ـ المقاصد الممحّصة في بيان كيِّ الحمّصة؛ للشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي (١١٤٣هـ)، بتحقيق د. سعود بن إبراهيم الشريم، سنة ١٤٢٨هـ.

١٧ ـ رؤوس المسائل وتحفة طلَّاب الفضائل؛ للإمام أبي زكريَّا يحيى بن شرف بن مري النووي (٦٧٦هـ)، بتحقيق د. عبد الرؤوف بن محمَّد الكمالي، سنة ١٤٢٨هـ.

١٨ ـ الجزء فيه ذكر صلاة التَّسبيح والأحاديث التي رُوِيت عن النَّبيّ ﷺ فيها، واختلاف النَّاقلين لها؛ لحافظ المشرق أحمد بن علي الخطيب البغدادي، بتحقيق الدكتورة إيمان علي العبد الغني، سنة ١٤٢٩هـ.

١٩ ـ كتاب الأربعين؛ لأبي العبَّاس الحسن بن سفيان النَّسوي، بتحقيق محمَّد بن ناصر العجمي، سنة ١٤٢٩هـ.

٢٠ ـ الواضحة (كتب الصَّلاة وكتب الحجّ)؛ لعبد الملك بن حبيب الأندلسي، بتحقيق وتعليق د. ميكلوش مُوراني، سنة ١٤٣٠هـ.

٢١ ـ نزهة النَّاظر والسَّامع في طرق حديث الصَّائم المُجامع؛ للحافظ الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، حقَّقه وعلَّق عليه وقدَّم له بدراسة عنوانها: «التبيان لأحكام الواطي في نهار رمضان»: فريد محمَّد فويله، سنة ١٤٣١هـ.

٢٢ ـ كتاب التَّراتيب الإداريَّة والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلميَّة التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلاميَّة في المدينة المنوَّرة العليَّة؛ للعلَّامة محمَّد عبد الحيّ الكتاني، سنة ١٤٣٢هـ.

٢٣ ـ **الموطأ (أبواب البيوع)**؛ لمالك بن أنس الأصبحي، رواية عبد الرحمن بن القاسم العُتقي عنه، بتحقيق وتعليق د. ميكلوش موراني، سنة ١٤٣٢هـ.

٢٤ ـ **الألفيَّة الورديَّة في علم تعبير الرؤى والأحلام**؛ لعمر بن المظفر بن عمر بن الوردي، بتحقيق طارق بن سعد بن سالم آل عبد الحميد، تقديم: أ. د. يوسف بن دخيل الله الحارثي، سنة ١٤٣٢هـ.

٢٥ ـ **كتاب جماع أبواب وجوب قراءة القرآن في الصَّلاة على الإمام والمأموم والمنفرد في كلِّ ركعة منها، وبيان تعيينها بفاتحة الكتاب، المسمَّى بـ: «القراءة خلف الإمام»**؛ للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، بتحقيق أبي بسطام محمَّد بن مصطفى، سنة ١٤٣٣هـ.

٢٦ ـ **لذَّة العيش في طرق حديث «الأئمَّة من قريش»**؛ للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، بتحقيق محمَّد بن ناصر العجمي، سنة ١٤٣٣هـ.

٢٧ ـ **إحراز السَّعد بإنجاز الوعد بمباحث «أمَّا بعد»**؛ لإسماعيل بن غنيم الجوهري، بتحقيق راشد الغفيلي، سنة ١٤٣٣هـ.

٢٨ ـ **مجموع الحافظ إسماعيل بن جماعة، الخطيب الكناني المقدسي (في الحديث النبوي الشريف)**، بعناية وقراءة وتحقيق يوسف بن محمد مروان بن سليمان البخاري الأوزبكي، سنة ١٤٣٤هـ.

٢٩ ـ **مكارم الأخلاق**؛ للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني؛ بتحقيق أبي بسطام محمَّد بن مصطفى، سنة ١٤٣٤هـ.

٣٠ ـ **فوائد حاضرة من طرر المخطوطات والكتب النادرة**؛ جمع وتعليق محمد خير رمضان يوسف، سنة ١٤٣٥هـ.

ثانيا : دراسات وبحوث

١ ـ **استدراكات على «تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين»**؛ د. نجم عبد الرحمن خلف، سنة ١٤٢١هـ.

٢ ـ **كتاب الأربعين في فضائل البحرين وأهلها الصالحين**؛ لبشار بن يوسف الحادي، سنة ١٤٢٣هـ.

٣ ـ **الجوهر المنظم في سيرة النبي المكرم ﷺ**؛ للشيخ عبد الرحمن الأريكلي، سنة ١٤٢٤هـ.

٤ ـ الدرر اللطيفة بتحقيق ما ورد في الروضة الشريفة؛ جمع محمَّد صباح منصور، سنة ١٤٢٤هـ.

٥ ـ الغرر على الطرر؛ جمعها محمَّد خير رمضان يوسف، سنة ١٤٢٥هـ.

٦ ـ دور الفقهاء في الحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة بالأندلس؛ د. خليل الكبيسي، سنة ١٤٢٥هـ.

٧ ـ أهازيد تهاميَّة ونفحات أهدليَّة «ديوان شعر»؛ للشاعر الشيخ سليمان الأهدل، سنة ١٤٢٦هـ.

٨ ـ بدايات الفقه الإسلامي وتطوُّره في مكَّة حتى منتصف القرن الهجري الثاني/ الميلادي الثامن؛ وضعه هارَلد موتسكي، عرَّبه د. خير الدِّين عبد الهادي، راجعه د. جورج تامر، سنة ١٤٣٠هـ.

٩ ـ مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي؛ لخالد بن عبد الرحمن بن عيسى الشنو، سنة ١٤٣٠هـ.

١٠ ـ الدرَّة اليتيمة في تخريج أحاديث «التحفة الكريمة في بيان كثير من الأحاديث الموضوعة والسقيمة»؛ للشيخ عبد العزيز بن باز، تخريج ودراسة محمَّد زياد التكلة، سنة ١٤٣١هـ.

١١ ـ قصص القرآن تفسير وبيان؛ جمع وإعداد الدكتور عبد اللطيف محمود آل محمود، سنة ١٤٣٣هـ.

١٢ ـ القنوت في الوِتر في رمضان وغيره، وما يتعلَّق به من أحكام وآداب ومخالفات؛ للشيخ فريد بن محمَّد فويلة، سنة ١٤٣٣هـ.

١٣ ـ محاضرات في تاريخ الأُمم الإسلاميَّة (الدَّولة العبَّاسيَّة)؛ تأليف الشيخ محمَّد الخضري، بتحقيق وتعليق عبده علي كوشك، سنة ١٤٣٤هـ.

١٤ ـ الدراية فيما جاء في ماء زمزم من الرواية، (دراسة حديثية نقدية للمرويات الواردة في ذكر ماء زمزم)، ومعه: جزء فيه الجواب عن حال الحديث المشهور «ماء زمزم لما شرب له» للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق وتعليق فريد بن محمد فويلة، سنة ١٤٣٤هـ.

١٥ ـ ميزان الاعتدال في نقد مرويات لحى الرجال، تأليف فريد بن محمد فويلة، سنة ١٤٣٤هـ.

١٦ ـ خطوط العلماء من القرن الخامس إلى العاشر الهجري، (نماذج وأمثلة)؛ إعداد عبد الله بن محمد الكندري، وجاسم صالح الكندري، سنة ١٤٣٤هـ.

١٧ ـ تحفة المفسِّر، (نظم المقدمة في أصول التفسير لابن تيمية)، بقلم عبد الحكيم بن الحبيب أبو صندل، سنة ١٤٣٤هـ.

ثالثًا : أعلام وأقلام

١ ـ أديب علماء دمشق الشيخ عبد الرزَّاق البيطار (حياته وإجازاته)؛ لمحمَّد بن ناصر العجمي، سنة ١٤٢١هـ.

٢ ـ قاضي الأندلس الملهم، وخطيبها المفوَّه، الإمام منذر بن سعيد البلوطي، مع تحقيق رسالتين مخطوطتين من تراثه؛ لعبد الرحمن بن محمَّد الهيباوي السجلماسي، سنة ١٤٢٣هـ.

٣ ـ الإمام عبد الله بن سالم البصري المكّي؛ للعربي الدائز الفرياطي، سنة ١٤٢٦هـ.

٤ ـ العلَّامة المحدِّث المباركفوري ومنهجه في كتابه «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي»؛ تأليف عبد الله بن رفدان الشهراني، سنة ١٤٣٠هـ.

٥ ـ الدُّرر البهيَّة في أخبار محدِّث الدِّيار الشاميَّة، (ترجمة المحدِّث الشيخ بدر الدِّين الحسني)؛ تأليف الشيخ محمود بن رشيد العطَّار، بتحقيق: أسماء بنت عبده كوشك، سنة ١٤٣٣هـ.

٦ ـ المحدِّث العلَّامة الشيخ شعيب الأرنؤوط (سيرته في طلب العِلم وجهوده في تحقيق التراث)؛ بقلم إبراهيم الزَّيبق، سنة ١٤٣٣هـ.

٧ ـ المحدِّث الكبير الدَّاعية الجليل، الشَّيخ محمَّد زكريّا الكانهلوي رحمه الله (حياته وجهوده العلميَّة والتعريف بأهمّ مؤلّفاته)؛ تأليف محمَّد رحمة الله محمَّد ناظم الندوي، سنة ١٤٣٤هـ.

٨ ـ من أعلام محدِّثي الأندلس (١): محدِّث قرطبة الحافظ أبو بحر سفيان بن العاص الأسدي الأندلسي وجهوده في نشر الحديث في الأندلس.

ومعه:

٩ ـ من أعلام محدِّثي الأندلس (٢): الراوية المسند حاتم بن محمد الطرابلسي المعروف بابن الطرابلسي القرطبي وروايته للحديث في الأندلس.

كلاهما تأليف الأستاذ الدكتور محمد بن زين العابدين رستم. سنة ١٤٣٥هـ.

١٠ ـ سلام من جزيرة منسيَّة (ذكريات وسيرة ذاتية)، تأليف د. محمد خير رمضان يوسف (عن نفسه)، سنة ١٤٣٥هـ.

رابعًا :
الأثبات والمشيخات والإجازات والمسلسلات

١ ـ فتح الجليل في ترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد الله بن عبد العزيز العقيل؛ جمع وتخريج محمَّد زياد التكلة، سنة ١٤٢٥هـ.

٢ ـ المَجاز في ذكر المُجاز، شيخ شيوخ اليمن عبد القادر بن عبد الله شرف الدِّين، (حياته وأسانيده ومسموعاته)؛ لعبد الله بن صالح العبيد، سنة ١٤٢٥هـ.

٣ ـ الروض الفائح وبغية الغادي والرائح بإجازة فضيلة الأستاذ محمَّد رياض المالح؛ للشيخ محمَّد ياسين الفاداني، بتحقيق د. يوسف المرعشلي، سنة ١٤٢٦هـ.

٤ ـ الإمتاع بذكر بعض كتب السماع؛ لعبد الله بن صالح العبيد، سنة ١٤٢٧هـ.

٥ ـ المعجم المختص، (تراجم أكثر من ستمئة من أعيان القرن الثاني عشر الهجري)؛ للحافظ محمَّد مرتضى الزبيدي، ويليه: معجم شيوخه الصغير وإجازاته، للعلَّامة محمَّد سعيد السويدي، بعناية نظام يعقوبي ومحمَّد بن ناصر العجمي، سنة ١٤٢٧هـ.

٦ ـ النوافح المسكيَّة من الأربعين المكّيَّة (وهي منتخبة من عيون أحاديث الكتب المسموعة والمسلسلات العزيزة)؛ من مرويات شيخ الحنابلة عبد الله العقيل، تخريج تلميذه محمَّد زياد بن عمر التكلة، سنة ١٤٢٨هـ.

٧ ـ مجموع الأثبات الحديثيَّة لآل الكزبري الدمشقيِّين وسيرهم وإجازاتهم، وتتضمَّن:

١ ـ ثبت العلَّامة علي بن أحمد كزبر (١١٠٠ ـ ١١٦٥هـ).

٢ ـ ثبت العلَّامة عبد الرحمن بن محمَّد الكزبري الكبير (١١٠٠ ـ ١١٨٥هـ).

٣ ـ ثبت العلَّامة محمَّد بن عبد الرحمن الكزبري الأوسط (١١٤٠ ـ ١٢٢١هـ).

٤ ـ ثبت العلَّامة عبد الرحمن بن محمَّد الكزبري الصغير (١١٨٤ ـ ١٢٦٢هـ).

٥ ـ مجموع إجازات بني الكزبري.

وهي بتحقيق عمر بن موفق النشوقاتي، سنة ١٤٢٨هـ.

٨ ـ زاد المسير في الفهرست الصغير، ومعه: فهرست مؤلّفات الإمام السيوطي؛ للإمام جلال الدّين السيوطي، بتحقيق د. يوسف مرعشلي، سنة ١٤٢٩هـ.

٩ ـ ثبت الأمير: العلّامة المتفنّن محمّد بن محمّد السنباوي (الأمير الكبير)؛ بتحقيق محمّد إبراهيم الحسين، سنة ١٤٣٠هـ.

١٠ ـ مشيخة الصّيداوي: زين الدّين أبي اللطف عبد الرحمن بن إبراهيم (الشهير بابن صارم الدّين)؛ تخريج جمال الدّين يوسف بن إبراهيم الصّالحي/ المعروف بابن الجاموس، بتحقيق د. يوسف مرعشلي، سنة ١٤٣٠هـ.

١١ ـ ثبت ابن عابدين، المسمّى: عقود اللآلي في الأسانيد العوالي؛ وهو تخريج لأسانيد شيخه محمّد شاكر العلّاد، بتحقيق محمّد إبراهيم الحسين، سنة ١٤٣١هـ.

١٢ ـ ثبت الكويت؛ هو الثبت الجامع لمجالس قراءة وسماع كتب الحديث في الكويت (١٤٢٦ ـ ١٤٣٠هـ). ويضم: تراجم مشايخ السماع ومن يدور عليهم إسناده من المتأخرين، وتحرير أسانيد الكتب المسموعة، وبآخره محاضر السماع لمن حضر ذلك. جمع وإعداد محمّد زياد بن عمر التكلة، سنة ١٤٣١هـ.

١٣ ـ ثبت شيخ الإسلام القاضي زكريا بن محمّد الأنصاري (٨٢٥ ـ ٩٢٦هـ)؛ تخريج الحافظ شمس الدين أبي الخير محمّد بن عبد الرحمن السخاوي الشافعي (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ)؛ بتحقيق محمّد إبراهيم الحسين، سنة ١٤٣١هـ.

١٤ ـ الأربعون المجلونيّة، المسمّاة: عقد الجوهر الثمين في أربعين حديثًا من أحاديث سيّد المرسَلين؛ لمحدّث الشام العلّامة إسماعيل بن محمّد العجلوني، بدراسة وتحقيق محمّد وائل الحنبلي، سنة ١٤٣١هـ.

١٥ ـ اللُّمْعَةُ في إسناد الكتب التسعة، للشيخ المحدّث السيّد صبحي بن جاسم السامرائي الحسيني؛ تخريج محمّد زياد التكلة، سنة ١٤٣١هـ.

١٦ ـ جزء فيه عوالي الشّيخات الستّ؛ تخريج الحافظ مؤرّخ الشام القاسم بن محمّد البرزالي الدّمشقي، حقّقه وقدّم له بمقدّمة بعنوان: «في عناية النساء بالحديث» محمّد بن ناصر العجمي، سنة ١٤٣٢هـ.

١٧ ـ الأنوار الجليّة في مختصر الأثبات الحلبيّة؛ للعلّامة الشيخ محمّد راغب بن محمّد الطبّاخ. ويتضمّن ثلاثة أثبات، وهي:

١ ـ كفاية الرّاوي والسّامع وهداية الرائي والسّامع؛ للعلّامة المحدّث الشيخ الحسيني (ت١١٥٣هـ).

٢ ـ إنالة الطالبين لعوالي المحدّثين؛ للعلّامة المحدّث الشيخ عبد الكريم الشراباتي (ت١١٧٨هـ).

٣ ـ منار الإسعاد في طرق الإسناد؛ للعلّامة المحدّث الشيخ عبد الرّحمن بن عبد الله الحلبي (ت١١٩٢هـ).

ومعها: إجازات من مشايخه.

وهي بتحقيق الدكتور عبد الستّار أبو غدّة، ومحمّد بن إبراهيم الحسين، سنة ١٤٣٢هـ.

١٨ ـ ثبت السلّامي، المحدّث شمس الدّين محمّد بن إبراهيم السلّامي الحلبي؛ بتحقيق محمّد بن إبراهيم الحسين، سنة ١٤٣٣هـ.

١٩ ـ ثبت عبد الحيّ ابن العماد الحنبلي (صاحب شذرات الذّهب)، ويليه: مختصر ثبت إمام الحنابلة في عصره: عبد الباقي البعلي الدّمشقي؛ اختصره ابنه أبو المواهب الحنبلي، بتحقيق محمد بن ناصر العجمي، سنة ١٤٣٤هـ.

٢٠ ـ مشيخة الحسيني، (وهي مشيخة السيّد كمال الدّين أبي البقاء محمد بن حمزة بن أحمد بن علي الحسيني الدمشقي الشافعي، المتوفى سنة ٩٣٣هـ، دراسة وتحقيق شهلاء بنت عبد الله بن عبد القادر، سنة ١٤٣٤هـ.

خامسا:

ضمن سلسلة لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام بتحقيقه

١ / ٤ ـ مختصر تنزيه المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام؛ لابن الضياء القرشي، سنة ١٤٢٠هـ.

١٢/٢ ـ جزء فيه ذكر حال عكرمة مولى ابن عباس؛ لابن عبد القوي، ويليه:

١٣/٣ ـ عقد الجمان في بيان شعب الإيمان؛ للسيد محمّد مرتضى الزبيدي، سنة ١٤٢١هـ.

٢٠/٤ ـ وصيّة تقيّ الدّين السبكي لولده محمّد؛ ويليه:

٢١/٥ ـ مسائل تحليل الحائض من الإحرام؛ للقاضي البارزي، سنة ١٤٢١هـ.

٢٣/٦ ـ جزء فيه شروط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النصارى؛ سنة ١٤٢٢هـ.

٣٣/٧ ـ القصيدة الوضاحيّة في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين؛ لأبي عمران الأندلسي، سنة ١٤٢٣هـ.

٨/ ٤٢ ـ قصيدة في مدح السنة واتباع عقيدة السلف؛ لأبي طاهر السلفي، ويليه:

٩/ ٤٣ ـ رسالة في بر الوالدين؛ لتقي الدين السبكي، سنة ١٤٢٣هـ.

١٠/ ٥٨ ـ حصول البغية للسائل هل لأحد في الجنة لحية؛ لبرهان الدين الناجي، سنة ١٤٢٥هـ.

١١/ ٧٠ ـ نفض الجعبة في الاقتداء من جوف الكعبة؛ لعبد الغني النابلسي، سنة ١٤٢٦هـ.

١٢/ ٨٦ ـ كتاب الذبح والاصطياد المنتخب من كتب الشيخين ووجوه المتأخرين أهل التحقيق والاجتهاد؛ لبعض أئمة الشافعيَّة، سنة ١٤٢٧هـ.

١٣/ ٨٧ ـ أخبار الثقلاء، للإمام الحسن بن محمَّد الخلال، سنة ١٤٢٧هـ.

١٤/ ٩٧ ـ ترجمة مسلمة بن مخلد وبيان صحبته للنَّبيّ ﷺ؛ للحافظ أبي الحجَّاج يوسف المزِّي، سنة ١٤٢٨هـ.

١٥/ ١٠١ ـ القول البليغ في حكم التبليغ؛ لأبي العبَّاس أحمد بن محمَّد مكي الحموي، سنة ١٤٢٨هـ.

١٦/ ١١٠ ـ جزء في الإجازة؛ لمنصور بن سليم الشَّافعي المعروف بابن العماديَّة، سنة ١٤٢٩هـ.

١٧/ ١٢٤ ـ المسائل الستّ الكرام المتعلّقة بجمع أحاديث الإحرام والبيت الحرام وتفضيل البلد الحرام على المدينة المنوَّرة على ساكنها الصَّلاة والسَّلام؛ للإمام العلَّامة مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي، سنة ١٤٣٠هـ.

١٨/ ١٣٢ ـ جزء في الذبّ عن الإمام الطبراني؛ للإمام الحافظ ضياء الدِّين المقدسي، سنة ١٤٣٠هـ.

١٩/ ١٤٢ ـ دليل الحكَّام في الوصول إلى دار السلام؛ للإمام العلَّامة مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، سنة ١٤٣١هـ.

٢٠/ ١٥٠ ـ جزء فيه ذِكر صلاة النبيّ ﷺ خلف أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه؛ للإمام الحافظ ضياء الدِّين المقدسي الحنبلي، سنة ١٤٣٢هـ.

٢١/ ١٥١ ـ فضائل العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ للإمام إسماعيل بن أحمد السمرقندي، سنة ١٤٣٢هـ.

٢٢/ ١٧٠ ـ الجزء النَّجيح في الكلام على صلاة التَّسبيح، تأليف الإمام العلَّامة محمَّد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، سنة ١٤٣٣هـ.

٢٣/ ١٨٨ ـ جزءٌ فيه حديثَي «لحوم البقر داء...» و«يُنزل الله على هذا البيت كلَّ يوم وليلة...»؛ تأليف الحافظ محمَّد بن عبد الرحمن السّخاوي، سنة ١٤٣٤هـ.

٢٤/ ٢١٢ ـ جزء في طرق حديث «نعم الإدام الخل»، (المنتقى من جزء أبي محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم بن أبي نصر التميمي، المتوفى سنة ٤٢٠هـ)؛ تأليف العلَّامة السيِّد محمد مرتضى الزبيدي، سنة ١٤٣٥هـ.

سادسًا:

سلسلة الكواكب اللّمعيّة من الدُّرر الشّاميّة

١ ـ الشَّافي الأنيس في نظم «الياقوت النَّفيس في مذهب الإمام الشَّافعي ابن إدريس؛ لمؤلِّفه العلَّامة أحمد بن عمر الشَّاطري»، نظمه وعلَّق عليه: عبد الله بن محمَّد بن سالم بارجاء، سنة ١٤٣٤هـ.

❑❑❑